الجمهـــــورية الجـــــزائريـــــة الديمقـــراطيـــــة الشعبيـــــة

وزارة التعليـم العالـي والبحـث العلمـي

جامعـة جيلالـي ليـابـس - سيـدي بلعبـاس -

كليـة الآداب و العلـوم الإنسـانيـة قسـم اللغـة العربيـة وآدابـها

النظـــرية الغلوسيمـــاتيكية وتجلياتـــها في الدرس اللســـاني العـــربي

مقـــاربة إبستمـــولوجية

أطروحـــة مقدمـــة لنيـــل شهـــادة الدكتـــوراه في اللسانيـــات

إعداد الطـالب:

ابن شماني محمد

إشراف الأستاذ الدكتـور:

عقـــاق قـــــادة

أعضـــاء لجنـة المنـــاقشة

د.سعـــــيد عكـــــاشة	رئـــيســـا	جامعة سيدي بلعباس
أ.د. عـــقــــــاق قادة	مشـــرفا ومقررا	جامعة سيدي بلعباس
د. بن سنـــــوسي سعـــاد	منـــاقشـــا	جامعة سيدي بلعباس
د. دايـــري مســكـــــين	منـــاقشـــا	جـــامعة سعيـــدة
د. مفــــلاح بن عبـــد الله	منـــاقشـــا	المركز الجامعي بغليزان
د.مصـــابيح محـــــمـــد	منـــاقشـــا	المركز الجامعي بتسمسيلت

السنـــة الجـامعيـــة : 2015/2014- 1433/1432هـ

مقدمة

يتجلى مسعى المعرفة اللسانية الحديثة والمعاصرة عبر دراستها للغة في حرصها الشديد على بلوغ الموضوعية، والدقة في الطرح العلمي مع الصرامة المنطقية، كما تحرص على صياغة

قوانين عامة وشاملة، تسمح للمعرفة اللسانية بالارتقاء إلى مصاف العلوم الدقيقة، وهو ما يفسر بروز النظريات والاتجاهات اللسانية بشكل لافت للنظر. وإن اختلفت هذه النظريات والتيارات في جوانب كثيرة متعلقة بدراسة اللغة، إلا أنها تتفق جميعها على ضرورة الوصول إلى عمق اللغة، والكشف عن أسرارها ومن ثم إدراك حقيقة اللغة والوقوف تبعا لذلك على فهم دقيق لها ولكيفية اشتغالها .

ولعل ما يزيد من وضوح طبيعة التفكير اللساني الحديث والمعاصر هو دراسة منطلقاته وأسسه الفكرية والفلسفية والمنطقية، باعتبارها قواعد أولية تشيد عليها الأنساق النظرية اللسانية، وهذا يعني أن المسلك القادر على استجلاء المبادئ الأولى للفكر اللساني هو المسلك الإبستمولوجي الذي يعنى بنقد المبادئ الأولى للعلم، سواء أتعلق الأمر بالفرضيات أم بالتصورات أم بالنتائج المتحصل عليها .

من هذا المنظور، جاء اختيارنا للنظرية الغلوسيماتيكية، لكونها نظرية لسانية متضمنة للكثير من القضايا اللسانية والمنطقية والفلسفية والرياضية، مما يجعلها نظرية قابلة للدراسة النقدية بالمفهوم الإبستمولوجي، خصوصا إذا علمنا بأنها لها منهج فريد في دراسة اللغة الإنسانية، وهو المنهج الوصفي المبالغ في الوصف والتجريد الرافض لكل معرفة لغوية ليست نابعة من اللغة ذاتها .

تأسيسا على ما تقدم جاءت مقاربتنا للغلوسيماتيك مقاربة إبستمولوجية تسعى إلى الكشف عن حقيقة المنطلقات الفلسفية والمنطقية والجبرية، فضلا عن اللسانية التي بنى عليها هلمسلف نظريته هاته، ويقتضي هذا جملة من الأسئلة التي ينبغي طرحها باعتبارها حاصرة لما نحن بصدد عرضه، أهمها:

ما هي الأصول الفلسفية والرياضية والمنطقية التي شُيدت عليها الغلوسيماتيك؟ وما طبيعة المبادئ والفرضيات الأولى التي وضعها هلمسلف خاصة في بناء نسقه النظري، وتعيين حدود برنامجه العلمي اللساني؟ ثم ما هي القيمة الموضوعية والمنهجية والمنطقية وكذا المعرفية للغلوسيماتيك؟ وأخيرا ما حقيقة النتائج المتوصل إليها في الغلوسيماتيك؟ هل هي ذات

مواصفات واقعية أم هي مجرد قضايا صورية لا علاقة لها بالواقع اللغوي الفعلي بحكم المنهج التجريدي المتوخى فيها، هذا في جانب.

وهناك جانب آخر يتصل بالأسباب التي جعلتنا ننتقي هذه النظرية اللسانية ولعل من أبرزها وأهمها:

- قلة الدراسات اللسانية حول المدرسة الغلوسيماتيكية لسانيا وإبستمولوجيا.
- ندرة القراءات الإبستمولوجية للنظريات اللسانية، مما ولّد غياب الجانب المعرفي وهو جانب هام جدا وضروري في إيقاظ الوعي العلمي؛ إذ به يتم معرفة ما يتلاءم مما لا يتلاءم من النظريات اللسانية مع الفكر اللساني العربي.
- محاولة الوقوف على المنطلقات الفكرية والمعرفية الكامنة خلف طرق الاستدلال التي تبنتها الغلوسيماتيك في دراسة اللغة.
- توسيع دائرة البحث الإبستمولوجي في حقل الدراسات اللسانية قصد الوصول إلى قراءات معمقة ودقيقة.

ومن الأسباب الجديرة بالذكر، انحصار أغلب الدراسات والبحوث اللسانية في إطار الوصف أو التعريف أو الترجمة.

ومن الأسباب الداعية لذلك أيضا، عدم حظوة الغلوسيماتيك بقبول حسن من قبل اللسانيين العرب عموما من المنظور اللساني الخالص، في حين رُحب بها من المنظور السيميائي السردي.

أما فيما يتعلق بالأسلوب الإبستمولوجي المتبع هنا، فإننا لم نقتصر على أسلوب إبستمولوجي واحد، بل طبيعة الموضوع فرضت علينا اللجوء إلى توظيف أساليب إبستمولوجية منوعة، تارة إبستمولوجية حلقة فيينا خاصة رودولف كارناب، وتارة أخرى إبستمولوجية إمري لاكاتوس وتحديدا فيما يتعلق بمفهوم برامج الأبحاث العلمية ومكوناتها، كما استعنا بإبستمولوجية كارل بوبر خاصة في المنهج الفرضي الاستنباطي، واستثمرنا أيضا إبستمولوجية

توماس كُون، خاصة في مفهوم الأزمة العلمية، وما يترتب عليها من ثورات علمية تفضي إلى ظهور براديغم علمي جديد .

من هذا المنطق ارتأينا أن يكون موضوع بحثنا هو مقاربة النظرية الغلوسيماتيكية إبستمولوجيا، فكان أن اتسقررنا على موضوع عنوناه بـــ:

"النظرية الغلوسيماتيكية وتجلياتها في الدرس اللساني العربي"

مقاربة إبستمولوجية

وهكذا فرضت علينا المادة العلمية المتوافرة منهجية يمكن حصرها في مقدمة ومدخل وثلاثة فصول وخاتمة، ثم فهرس للمصطلحات العلمية وآخر للمصادر والمراجع ثم فهرس للموضوعات العامة.

أما المدخل فقد خصصناه لدراسة التحولات الجذرية التي عرفتها اللسانيات إبَّان أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهو ما اصطُلح عليه بالمنعرج اللساني، وبيَّنا هناك أن أي تحول في أي علم من العلوم راجع إلى حدوث أزمات علمية ينجر عنها تحول كبير يصيب العلم، فيحدث إثرها منعرج علمي يُعد فاتحة جديدة لمرحلة علمية أخرى، وهو ما وقع فعلا في اللسانيات .

أما الفصل الأول فقد جاء بعنوان **"الإبستمـــولوجيا الأســـس والمبـــادئ"**، وفيه عالجنا قضية الإبستمولوجيا باعتبارها علما نقديا يُعنى بدراسة ونقد العلوم كلها، بما في ذلك اللسانيات، كما بينا أهميتها وعلاقتها بالعلوم، ثم ذكرنا أنواعها من إبستمولوجيا خاصة وأخرى عامة، وختمنا الفصل الأول بالتطرق إلى إبستمولوجيا اللسانيات عموما .

وخصصنا **الفصل الثاني** لمقاربة النظرية الغلوسيماتيكية، لذا جاء موسوما بـــ **"المقـــاربة الإبستمولـــوجية للنظرية الغلوسيمـــاتيكية"**، وفيه تم التطرق إلى دراسة الغلوسيماتيك من جوانب متعددة، ولكنها تصب كلها في الإطار الإبستمولوجي، ولعل أبرز ما ركزنا عليه هو ذكر طبيعة الفرضيات الأولية التي أُسست عليها الغلوسيماتيك، وكذلك مكونات النسق

النظري عند هلمسف، من نواة صلبة، ومنهج متبع، ودراسة كفايات النظرية في برنامج هلمسلف إلى غير ذلك من القضايا النظرية والإبستمولوجية المذكورة في مواضعها .

بالمقابل جعلنا **الفصل الثالث** مقتصرا على دراسة تلقي العرب لهذه النظرية فكان عنوانه: **"تلقـــي الفكـــر اللســانـــي العربي للنظرية الغلوسيماتيكية"**، وفيه عالجنا إشكالية موقف الفكر اللساني العربي من هذه النظرية، وتبين هناك أن تجلياتها انحصرت في أصناف ثلاثة: صنف جعل للغلوسيماتيك حيزا في مؤلفاته، وبيّنا نوع الأسلوب الذي اتخذه كتاب هذا الصنف في دراسة الغلوسيماتيك، وصنف ثان درس الغلوسيماتيك إبستمولوجيا وبشكل موسع، وصنف ثالث لم يتطرق إلى ذكرها أصلا وإن كانت كتاباته مندرجة في إطار المدارس والنظريات اللسانية، كما عرّجنا على سبب عدم التعويل عليها عربيا من منظور لساني خالص، في حين التف حولها جمع غفير من اللسانيين العرب في صورتها السيميائية السردية .

أما **الخاتمة** فقد تضمنت أهم النتائج المتوصل إليها، ثم أردفنا البحث بقائمة للمصطلحات العلمية الموظفة مترجمة إلى الفرنسية، وقائمة لأهم المصادر والمراجع المستعملة في البحث، وأخيرا فهرسا لموضوعات البحث.

هذا ولا يخلو أي بحث من صعوبات تقف في طريق الباحث، وأولاها عندنا طبيعة المسائل والقضايا اللسانية التي درسها هلمسلف في كتابه المقدمات خاصة، إذ تميز هذا المؤلف بالأسلوب المجرد والطرح العميق ذي الخلفية الفلسفية والمنطقية الرياضية، وهذا انجر عنه عسر الفهم لبعض المقولات والمصطلحات الغلوسيماتيكية مع العلم أننا قمنا بترجمة أقواله من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، وكفى بهذه العملية صعوبة .

زيادة على هذا ندرة المراجع اللسانية باللغة العربية التي درست النظرية الغلوسيماتيكية، وإن وجدت فهي لا تفي بالغرض ولا توصل إلى المبتغى، كونها في معظم الأحيان معاكسة لما أصَّل له هلمسلف في مؤلفاته .

ينضاف إلى هاتين، قلة المراجع العربية المتخصصة في إبستمولوجيا اللسانيات الحديثة والمعاصرة، كل هذا يُعد عندنا من الصعوبات والمعوِّقات الجوهرية التي لم يكن من السهل

تخطيها، على هذا ليس ينبغي النظر إلى هذا العمل نظرة كمال، بل النقص فيه وارد وبامتياز، ويبقى الكمال لله تعالى وحده .

وفي الختام نحمد الله تبارك وتعالى على إتمام هذا البحث بخير، ثم أتقدم بالشكر الجزيل إلى سعادة الأستاذ المشرف **الدكتور: عقـــاق قـــادة** الذي كان بحق عونا ومرشدا وموجها لي من بداية البحث إلى نهاية، فله الشكر الجزيل ولكل من أسهم وأعان وسدد في إخراج هذا العمل على هذه الهيئة.

وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين .

المدخل

المنعرج اللساني

صار الأمر بديهيا في تاريخ اللسانيات بشكل عام أنّ اللغة قبل ظهور اللسانيات الحديثة على يد "دي سوسير" (***De Saussure***) كانت تُدرسُ اعتماداً على علوم أخرى مجاورة لها، أهمها: التاريخ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة، إلاّ أن هذا الواقع أَرَّقَ اللّسانيين الباحثين عن طرائق أخرى جديدة تكون أكثر علمية ودقة، وموضوعية وشمولية، وهو ما حدا بهم إلى رفض كل دراسة لا تنطلق من اللغة بحد ذاتها، ولعل من أبرز نتائج هذا الرفض هو ظهور تيار لساني جديد معاكس للتيارات اللسانية السائدة في تلك الحقبة من تاريخ اللغة، إنه المنهج الآني الوصفي، الذي قام على مفهوم النسق في دراسة اللغة، باعتبارها كياناً مجرداً ومستقلاً عن كل السياقات الخارجية، وهكذا وجدت ثنائية لسانية، هي: الآني والتاريخي.

لكن السؤال الجوهري الذي يفرض نفسه هنا، هو: هل هذا التحول عن المنهج التاريخي إلى المنهج الآني الوصفي راجع إلى تراكمات معرفية جسدتها نظريات لسانية، مما أدى إلى حالة من التضخم المعرفي؟ أم إن الأمر يتعلق أساسا بعقم وضعف المناهج والنظريات التي كانت سائدة وعلى رأسها المنهج التاريخي والمقارن؟

مبدئيا، علينا أن نبيّن بأن البحوث اللسانية في مسيرتها نحو التطور العلمي، لم تكن تسير على نسق مستقيم ومتسلسل، بل واجهتها انقطاعات علمية وأوقفتها، وأكثرها خطورة هي أن تتأزم الأوضاع العلمية سواء على المستوى المعرفي أم على المستوى المنهجي، وهذه الأزمات لم تقتصر على اللسانيات وحدها، بل عرفتها علوم أخرى قبل اللسانيات مثل الفلك والرياضيات والمنطق والفيزياء وغيرها، وعليه فإن الأمر الهام هو دخول اللسانيات في أزمة خانقة كانت سببا مباشراً في تعطل مسيرتها، ولكنها بالمقابل أدت إلى نقلة نوعية لم تعرفها اللسانيات من قبل، والمتمثلة في التحول عن المنهج التاريخي المقارن السائد إلى المنهج الآني الوصفي الثائر، هذه النقلة النوعية هي ما بات يُعرف في عُرف اللسانيين "بالمنعرج اللّساني": "***Le tournant linguistique***".

الأزمة وحدوث المنعرج في العلوم:

قبل التطرق إلى دراسة طبيعة الأزمة التي عرفتها اللسانيات في أواخر القرن التاسع عشر تحديداً، وكيف حدث المنعرج اللساني، يحسن بنا أن نبيِّن أولاً ما المقصود بالأزمة في العلم عموما. فهي عند "توماس كون" (***T. Kuhn***) عبارة عن حصول وعي مشترك لدى العلماء بأن شيئا ما قد تعرض للخطأ"[1]" في النظرية السائدة، مما يوجب عليهم إعادة النظر ومراجعة الأسس التي قام عليها العلم في تخصص ما. أو هي اللحظة الحاسمة التي ينقسم فيها العلماء إلى فئتين كبيرتين متعارضتين، أو بعبارة أخرى، إن الأزمة في العلم هي « اللحظة الحرجة التي يتوقف عليها مصير فكرة أو نظرية أو نسق علمي أو فلسفي. فاللحظة الحاسمة إنّما هي إشارة إلى بداية كل شيء، أي: ميلاد شيء جديد وبداية نشوئه التدريجي»"[2]".إنها اللحظة التي يبدأ فيها المنعرج الحاسم في التشكل ليفصل بين الجديد النامي، والقديم المنهار"[3]". فتكون الأزمة بهذا المعنى ظاهرة لا يسلم منها أي تخصص علمي.

ففي مجال العلوم الصورية خاصة الرياضيات والمنطق، يكفي أن ندلل على الأزمة التي حصلت في الرياضيات بصيحات الفلاسفة والعلماء بضرورة مراجعة الأسس الأولى التي شيّدت عليها الرياضيات الكلاسيكية؛ إذ المعروف في تاريخ الرياضيات بأنها كانت في البداية علما حدسيا، باعتبارها « أداة لتأصيل وتدقيق ما تُسْفِرُ عنه التجارب العلمية وتأتي به الاختراعات الفعلية، وإثبات صحة ما يطرح من استبصارات ورُؤى نظرية»"[4]"، وظلت هذه الطريقة سائدة ومسيطرة حتى بروز أزمة الأسس في الرياضيات في أواخر القرن التاسع عشر.

يقول "روبير بلانشي" (***Robert Blanché***) موضحاً ذلك: « إن هذه المشكلة التي لم تكن حتى ذلك الحين قد شغلت بال الرياضيين، قد فرضت نفسها فجأة عليهم بسبب أزمة

---

[1]- ينظر **توماس كون**، بنية الثورات العلمية، تر: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسات الوحدة العربية ط2007/01 - ص124، 125 وص ص148، 149 وص157 وص ص298، 299.

[2]- **ملاح أحمد**، المختصر في تاريخ الإبستمولوجيا. منشورات مختبر الفلسفة وتاريخها، دار القدس وهران، ط2010، ص53.

[3]- ينظر، المرجع نفسه، ص54.

[4]- **نبيل علي**، العقل العربي ومجتمع المعرفة. سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر، 2009. ص128.

نظرية المجموعات. فهذه النّظرية التي وضعها "كانتور" (***Cantor***) خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، قد استطاعت بعد عدة مقاومات أن يظهر حوالي **1900** أنها أساس كل البناء الرياضي، فعلم الحساب الذي يتناول الأعداد المتناهية والذي بنينا به الأقسام الأخرى من الرياضيات، يقبل بالفعل أن ينبني بدوره بصفته حالة خاصة بسيطة وحدسية بوجه خاص من حالات نظرية المجموعات. هي حالة المجموعات القابلة للعدّ»"[5]"، ويضيف قائلاً: « لكن ههنا بالضبط تظهر داخل النظرية نقائض...أو متناقضات...أي أزواج من المبرهنات المتناقضة. فهل مجموعة كل المجموعات- التي– لا تحوي نفسها كعناصر، تحوي نفسها كعنصر؟»"[6]".

انطلاقًا من هذا تحتّم على المختصين ضرورة السعي لإيجاد حلٍّ لتلك الأزمة، فكانت مؤلفات فريغه (***Frege***) وراسل (***Russell***) فاتحة جديدة نقلت الرياضيات من وضع إلى آخر، لتصبح بعد ذلك أداة للتعبير عن « دراسة طبيعة العلاقات التي تربط بين المفاهيم في هيئة بِنى ذهنية مجردة»"[7]"، وبهذا استطاع الرياضيون وفلاسفة العلم وكذا المناطقة أن يحدثوا منعرجا حاسماً في العلم وأن يسهموا في تقدم مسيرته عموما والرياضيات خصوصا.

فبعد أن كانت الرياضيات الكلاسيكية قائمة على جملة من المسلَّمات والتعريفات التي لا تحتاج إلى برهنة أو تعليل، كما هو حال الهندسة الإقليدية، صارت الرياضيات مع الثورة الأكسيوماتيكة علما صوريا مجردا لا يأبه بالواقع الفعلي، بل على العكس من ذلك تماماً، تم التخلص من كل العلاقات التي ترتبط بالواقع الفعلي. علاوة على ذلك منحت الرياضيات الأكسيوماتكية حرية وضع المقدمات والفرضيات، بشرط اتساقها الداخلي وابتعادها عن التناقض المنطقي"[8]".

وما قيل عن الرياضيات يقال عن الفيزياء، فهي الأخرى عرفت أزمة علمية مستعصية على الحل؛ إذ كان المعتقد السائد لدى « الكثيرين من فيزيائي القرن التاسع عشر وبداية القرن

---

[5]- **روبير بلانشي**، المصادريات (الأكسيوماتيك). ترجمة، محمود اليعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2004، ص91.

[6]- المرجع نفسه، ص91-92.

[7]- **نبيل علي**، العقل العربي ومجتمع المعرفة، ص129.

[8]- ينظر، المرجع السابق، ص ص130-131. وينظر أيضاً، **الأخضر شريط**، المنطق الرياضي، خلاصة أثر المنطق المعاصر، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1430/01-2009، ص ص47،48.

العشرين أن المبادئ الأساسية للفيزياء قد تم اكتشافها، إذ كان في وسعهم بناءً على قوانين "نيوتن" تفسير حركة الأجسام المادية وتفاعلها،... وكانوا يرون أنه لم يبق عليهم سوى تحسين النظريات المختلفة المعتمدة في بعض تفاصيلها، بالإضافة إلى حل عدد محدود من المشاكل»"[9]"، إلاّ أن عكس ما كان متوقعا هو الذي حدث؛ بحيث دخلت الفيزياء الكلاسيكية في أزمة خانقة اضطرت العلماء إلى إعادة مراجعة طبيعة وأسس النظريات الفيزيائية السائدة. وكانت ثمرة هذه المراجعة أن تَلَتْهَا تَطَوُرَاتٌ نَظَرِيَةٌ عَظِيمَةٌ تُشَكِّلُ صميم ما نطلق عليه الآن بالفيزياء المعاصرة، وأبرز صورها وأكثرها تأثيراً في العلم النظرية النسبية، والميكانيكا الكونتية"[10]".

وهكذا تتجلى أزمة الفيزياء الكلاسيكية في كونها ارتبطت بأنموذج معين من التفكير ظل قائماً طوال ثلاثة قرون من الزمن، بخاصة في مفهومي الزمان والمكان اللذين اعتبرا مطلقين عند نيوتن فضلاً عن مفهوم المادة"[11]"، وفُسِّرت بناءً على ذلك باقي الظواهر الفيزيائية، وبعد بيِّنات فيزيائية وهندسية تغير كل شيء، وانهار الأنموذج الكلاسيكي للفيزياء ليحلّ مكانه أنموذج آخر جديد هو الفيزياء المعاصرة التي تصدَّرَتْهَا نظرية اينشتاين النسبية"[12]". يقول اينشتاين (***Einstein***) وهو في صدد الحديث عن نظريته: « إنّ الضرورة هي التي أدت إلى نشوء نظرية النسبية، فضلاً عن التناقض الواضح الكامن في النظرية القديمة والذي لم نستطع التخلص منه بكل الطرق الممكنة، وتعزى قوة النظرية الجديدة إلى البساطة والدقة التي حُلت بها هذه المشاكل مع استخدام فروض منطقية قليلة»"[13]"، وبهذا التوجه تكون الفيزياء المعاصرة قد أحدثت ثورة كبيرة جدا في تاريخ العلم وتمكنت من إحداث منعرج خطير في الفيزياء على المستويين المعرفي

---

[9]- **جمال ميموني ونضال قسوم**، قصة الكون، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص162.

[10]- ينظر،المرجع نفسه ص ص162-163.

[11]- للتوسع أكثر في مفهوم المادة كلاسيكيا ينظر، **ماهر عبد القادر**، نظرية المعرفة العلمية، دار النهضة العربية، بيروت، لبان، ط5،1985، من ص152 إلى ص171. وينظر أيضاً، **جمال ميموني ونضال قسوم**. قصة الكون، الفصل الخامس، ص127.

[12]- ينظر، **ماهر علي عبد القادر**، نظرية المعرفة العلمية، ص137.

[13]- المرجع السابق، ص160.

والمنهجي وصارت ظواهر الطبيعة الفيزيائية تُدَرَسُ بمنهج آخر جديد يتميز بكثير من الدقة والصرامة المنطقية.

اِستناداً على ما تقدم تكون الأزمات في العلم مبشراً بميلاد أنموذج أو براديغم علمي جديد يعطي العلم دفعاً قوّياً ومزيداً من الموضوعية واليقين. إن ما أشرنا إليه لا يَعْدُو أن يكون مجرد ملاحظات أو أفكار عامة، الغاية من وراءها تحديد طبيعة الأزمة في العلم، باعتبارها سبباً مباشراً في تحريك العلماء والفلاسفة نحو البحث عن براديغم ***Paradigme*** (أنموذج) جديد تُبنى عليه النظريات العلمية، ودرجة قوة هذين المفهومين- نعني: الأزمة، والبراديغم - في إحداث المنعرجات العلمية الكبرى في تاريخ العلوم.

أزمة اللّسانيات وحدوث المنعرج:

أما بالنسبة للسانيات فإنها لا تختلف عن العلوم التي تمت الإشارة إليها في كونها صادفت أزمة علمية كبيرة أدخلتها في مأزق لم يكن من السَّهل التخلّص منه، لأن اللّسانيات التاريخية في أواخر القرن التاسع عشر توقفت عن التقدم وانقسم اللسانيون حينها بين متشبث بالتقاليد اللّسانية خصوصا المنهج التاريخي والمقارن، وبين داعٍ إلى التجديد والتخلي عن المناهج والنظريات اللسانية السائدة بعدما تَبَيَّنَ لهم أنها لم تفلح في إيجاد طريقة علمية تدرس بها اللّغة،كما تحقق عندهم أن المنهج التاريخي والمقارن وصل إلى طريق مسدود، وبهذا يكون قد حصل لدى اللّسانيين الداعين إلى التجديد ومراجعة الأسس التي قامت عليها اللّسانيات التاريخية وعيٌ بحجم وضخامة الأزمة التي حلّت على اللّسانيات في تلك الحقبة، فلم يكن بُدٌّ من البحث عن حلّ مناسب يُخَلِّص اللّسانيات مما هي فيه.

بناءً على ذلك يمكن تشخيص الأزمة اللّسانية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في المظاهر الآتية:

- اعتبار اللّسانيين اللغة كائناً بيولوجياً.
- التتبع التطوري (التاريخي) للغات قصد الوصول إلى الكشف عن اللغة الأصل أو الأم.

- قانون الاطراد الذي دعا إليه النحاة الجدد والذي فحواه أن لا شذوذ في القوانين الصوتية.

إنَّ النظر إلى اللغة باعتبارها كائناً حيّاً يَخْضَعُ للقوانين التطورية التي تخضع لها الكائنات الحية مثل الإنسان أو الحيوان، لهو من أكثر الأفكار تأثيراً في البحوث اللّسانية إبَّان تلك الحقبة، فقد اعتقد اللّسانيون حينها بأن « اللُّغة هي أيضاً جهاز عضوي مثل الأحياء، لأنها تتكون من عناصر لها وظيفة وهي تنشأ وتترعرع وتكتهل ثم تشيخ وتموت مثل الأحياء»"[14]" تماما؛ مما حدا بهم الأمر إلى أن طالب بعضهم على غرار "شليجل" (***Schlegel***) بضرورة تشريح اللّغات كما هو الشأن مع الأجسام الحيّة"[15]".

هذا المنهج وإن كان يسعى إلى وضع قواعد وقوانين علمية تخدم الدراسات اللغوية إلاّ أنه لم يستطع الإيفاء بذلك، نظراً لغرابة المنطق الذي ارتكز عليه أولائك العلماء، وهو كون اللّغة كائناً حيًّا. إنَّ هذه الفكرة بِحدِّ ذاتها كما عُدت توجها تُدرسُ به اللّغة تُعد أيضاً من جانب آخر نقطة الضعف التي تسَبّبت في انهيار الّصرح النظري لهذا التوجه بدليل رفض اللّسانيين لذلك، وإبداع نظريات لسانية أخرى على أنقاض النظرية البيولوجية في اللّغة، إضافة إلى ذلك كونها ظلت مرتبطة بجملة من التخمينات والآراء الفلسفية التي لا تخدم اللّغة علميا، فاعتبار اللّغة كائناً حيّاً والنظر إلى اللّسانيات بأنها علم طبيعي صرف أقلق اللّسانيين الباحثين عن العلمية في الطرح، والجادين في التخلص من المخلفات الفكرية القديمة، كما حَصَرَ اللّغة الإنسانية في جانب واحد دون سواه وهو دراسة اللّغة اعتماداً على المكتوب، فنتج عنه أن تأزمت الدراسات اللّسانية خلال تلك المرحلة بدلا من أن تتقدم نحو الأمام؛ لأن أجزاءً أخرى هامة لم يُلْتَفَتْ إليها.

أمام هذا الوضع كان هناك وعي بوجود حلول علمية للتخلص من النظرة البيولوجية إلى اللغة فقد أفرز هذا الوعي بالأزمة التي أحدثها التوجه البيولوجي تياراً لسانياً آخـــر مناقضاً له،

---

[14]- **عبد الرحمن الحاج صالح**، بحوث ودراسات في علم اللّسان، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص121.

[15]- المرجع نفسه، ص121. وينظر أيضا:

R.M. Robins, *Brève histoire de la linguistique. Traduit de l'anglais par Maurice Borel, Ed du seuil – Paris 1976, p191-192.*

وهو التتبع التاريخي للغات بغية الوصول إلى اللّغة الأم أو الأصل المشترك الذي انبثقت منه اللّغات الإنسانية، وقد مثل هذا التوجه جماعةٌ من اللسانيين البارزين وقتئذ، وفحوى هذا التيار هو أن اللّغة لا يخدمها إلاّ التتبع التاريخي لمراحل تطورها؛ لأن المنهج التاريخي هو الكفيل بالكشف عن الأصول الأولى التي تُعَدُّ المنبع الحقيقي والوحيد لكل اللّغات المنتشرة في العالم.

في هذه المرحلة من تاريخ الدراسات اللّسانية ظهرت أفكار العَالِمِ البيولوجي ثم اللغوي "شلايشر"(***Schleicher***) الذي كان يعتقد بفكرة إعادة إنشاء اللّغة الأم وهي الهندوأوروبية"[16]"عن طريق المقارنة والتتبع التاريخي للغات، ولعل الذي ضاعف من حدّة هذا التوجه في دراسة اللغة هو ظهور النظرية الداروينية القائلة بالتطور، فقد تأثر بها شلايشر إذ وَجَدَ فيها مَا يُؤَكِّدُ على صحة فرضيته، ونلمح هذا التأثر "بداروين" (***Darwin***) واضحاً في قوله: «إنّ تكوّنُ اللّغات وتكوين التاريخ هما إذن أدوار متباينة للنشاط البشري... ويبلغ نمو اللّغة حَدهُ الأقصى عندما تظهر الآداب... وتلك أزمة تتجمد بعدها اللّغة... وفي الأزمنة التاريخية، تنحط جميع اللّغات ذلك أمر لا ريب فيه ... وتاريخ اللّغات معناه انحلال هذه اللّغات التي تخضع لحرية متزايدة، يخضع لها أيضاً الفكر في تطوره المتدرج»"[17]"، ويضيف قائلاً:«... ويشهد التاريخ على أن اللّغة تتطور حسب قوانين تثبت ثباتاً نهائياً...» "[18]".

ظلّت هذه النظرية سارية المفعول إلى أن تَبَيَّنَ أنها لا تقوى على تقديم برنامج علمي يُدرس به اللّغة، وذلك راجع إلى الهدف الذي حُدّدَ في البحث عن الأصل الغائب الذي اشتقت منه سائر اللّغات؛ إذ تحقق أنه هدف متعذر الوصول إليه، سواء بالمقارنة أم بغيرها ما دامت الوثائق التي بين أيدي الدارسين غير كافية في تقديم صورة واضحة لتاريخ اللغّات البعيد، فضلا عن ذلك ابتناء هذه الفكرة على أسس فلسفية وإيديولوجية تتنافى مع الروح العلمية والبحث العلمي الصارم، بالإضافة إلى ذلك التحقق من عدم جدوى نظرية النشوء والارتقاء التي ابتكرها

---

[16]- ينظر، **جورج مونان**، تاريخ علم اللّغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين. تر، بدر الدين القاسم، منشورات جامعة دمشق 1342، 1972، ص200.

[17]- المرجع نفسه، ص203 .وينظر أيضا: ***France Farrago**, le langage, Ed Armand Colin, Paris 1999, p25.*

[18]- **جورج مونان**، تاريخ علم اللغة مند نشأتها حتى القرن العشرين، ص203.

داروين؛ إذ كانت معارضة علماء تلك الفترة لها بخاصة رجال الدّين منهم كما يقول "كُون" (***Kuhn***) موجهة نحو الأساس وهو معنى التطور بحد ذاته، علاوة على طبيعة الهدف من هذا التطور"[19].

كل هذه التعثرات كانت سبباً قوياً في مزيد من التعقد والتأزم العلميين الذي وَسَمَ اللّسانيات التاريخية في أواخر القرن التاسع عشر، وهو في جانب آخر يُعَدُّ مُحَفِّزاً كبيراً نحو الإبداع والابتكار العلميين نظرياً ومنهجياً وعملياً أيضاً، وهو ما سعى إليه التيار الثالث الذي عُرِفَ في تاريخ اللّسانيات الغربية "بالنحاة الجدد"(***Néo-grammairiens***) الذين ثاروا على الأفكار والنظريات التي عرفت في عصرهم، فكانت معارضتهم للسائد من التوجهات اللسانية بمثابة ثورة علمية في اللّسانيات؛ لأنهم جاءوا بأفكار جديدة وإن لم تلق استحسانا من معارضيهم، إلا أنها كان لها الأثر الأقوى في تغيير الأوضاع العلمية حينها، فبقدر ما كانت آراؤهم ثورية وجديدة، بقدر ما أجَجَت من نار الأزمة وكشفت عن المكنون منها في النظريات السابقة عليهم وتحديدا في النظريتين البيولوجية والتطورية، ويمكن تلخيص أهم المبادئ التي قامت عليها آراء النحاة الجدد في النقاط الآتية:

1- لا شذوذ في القوانين الصوتية.
2- لا علمية إلا في المنهج التاريخي.
3- الوصف المباشر للأشياء الحقيقية"[20]" أو الآلية الصارمة.

إن هذه المبادئ التي ناضل لأجلها النحاة الجدد هي عبارة عن إفراز فكري مضاد كان سببه انتشار الأفكار الميتافيزيقية والميثولوجيات القديمة فقد قاومها النحاة الجدد « بعنف وطالبوا بالتوجه إلى وصف أشياء موجودة حقيقة،... ولكن ذلك لم يعد ممكنا الآن أن يكون للغات في حـــد ذاتها، بل الإنسان المتكلم أو أفعال نشاطه الكلامي الممكن ملاحظتها بشكل محدد.

---

[19]- ينظر، **توماس كون**، بنية الثورات العلمية، ص ص286-287. أما من الناحية الإبستيمولوجية للنظرية التطورية فينظر، **جورج كانغيلام**، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ترجمة: محمد بن ساسي، المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت لبنان، ط**2007/01**. الفصل المخصص لداروين من ص161 إلى ص198.

[20] -*voir:* ***Oswald Ducrot et Jean –Marie Schaeffer****, Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Ed du Seuil. Paris 1995, p30-31.*

إن الموضوع الحقيقي للباحث اللغوي على الأرجح هو كل منطوقات النشاط الكلامي لكل الأفراد في تأثيرهم المتبادل بعضهم في بعض»"[21]".

يدل هذا الكلام على التوجه الوضعي الآلي الذي نادى به النحاة الجدد، إذ بواسطة هذه الآلية استطاع النحاة الجدد أن يقضوا على التفسيرات الميتافيزيقية التي لا تمت بأية صلة إلى اللغة وإن كانت درست اللغة بها، فهذا التفسير الآلي للوقائع اللغوية يعدها وقائع تفسر« على أنها نتاج تغيّر... لواقعة مبكرة، ويعد اكتشاف ذلك التغير الحتمي (التحول المقنن) للغة هو الوظيفة المحورية الحقيقية لعالِم اللغة.» "[22]" عندهم.

بناء على ذلك وضعوا المبدأ الثاني القاضي بأن لا دراسة علمية إلاّ في المنهج التاريخي"[23]" وهذا دليل على أنهم وإن كانوا ثائرين على الدراسات التاريخية إلا أنهم كانوا منتمين إلى النمط الفكري العام الذي خيم على تلك الحقبة من تاريخ اللغة واللسانيات، وبذلك يكون النحاة الجدد قد سلموا بالمنهج التاريخي تسليما مطلقا، وسيترتب على هذا إشكالية منهجية تضاعف من أزمة اللسانيات في أواخر القرن التاسع عشر.

إضافة إلى المنهج التاريخي والتفسير الآلي للحقائق الواقعية، صاغ النحاة الجدد مبدأ ثالثاً صار معروفا لدى اللّسانيين بالقانون الصوتي، فقد أوصلتهم آليتهم المفرطة إلى الإيمان بأن لا شذوذ في القوانين الصوتية، وكان من الأوائل الذين نادوا به العالم "لِسكين" (***Leskien***) سنة **1876** وصار بعد ذلك شعاراً لهم جميعا، ومفاد هذا المبدأ هو « أنه لا يمكن أن توجد صيغ شاذة عن القوانين التطورية إلاّ لِعلةٍ معينة، وقد تخفى علينا هذه العلة لعدم اطلاعنا على جميع أحوال التطور بل على جميع أسراره وظروفه النفسانية والاجتماعية والفيزيولوجية، أما أن تفسر هذه الشواذ بالرجوع إلى مبادئ عقلية بحتة أو فلسفية ميتافيزيقية أو عوامل اعتباطية خيالية يصطنعها

---

[21]- **كلاوس هيشن**، القضايا الأساسية في علم اللغة، ترجمة حسن بحيري، مؤسسة المختار، مصر، ط01، 2003، ص09.

[22]- المرجع نفسه، ص12.

[23]- ينظر، **جورج مونان**، تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، ص217.

الإنســـان لإرضاء نزعاته الخاصة به أو بقومه، فهذا يعتبر تفسيرا غير علمي. فالقوانين التي يخضع لها تطور الأصوات مثلا، هي قوانين مطردة لا تحتمل الشذوذ غير المعلل»"[24]".

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها النحاة الجدد في القضاء على السائد الذي لم يرضوا به، ومحاولتهم الجادّة في صياغة قوانين لسانية علمية عامة إلاّ أن برنامجهم لم يستطع الصمود أكثر أمام البحوث اللّسانية الجغرافية التي استطاعت أن تنقض وتخرق قانون الاطراد والوضعية الآلية، وكان بذلك قد أُضْعِفَ الأساس الحقيقي الذي بنى النحاة الجدد عليه منهجهم اللّساني"[25]".

كل هذه التحولات العلمية السريعة التي شهدها المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تكن بعيدة عن الجوّ العام الذي سيطر على المناهج والأفكار العلمية واللّسانية خصوصاً، إذ ما ميّزها خلال تلك الفترة أنّها لم تمتلك القدرة الكافية لوضع برنامج علمي نظري يجمع ما تناثر من أفكار وآراء واقتراحات في ميدان اللّسانيات ضمن إطار نظري منسّق ومنسجم منطقياً، وغير متناقض داخلياً، أي: إنها لم تنشأ نظرية لسانية بالمفهوم العلمي الإبستمولوجي للنظرية، كون النظرية نظاماً مجرداً من الفرضيات المتضامّة والمنسجمة فيما بينها وغير متناقضة، كما لم تتوافر الدراسات التاريخية على شرط أساس في العلم عموماً، وهو شرط التنبؤ العلمي، ناهيك عن البساطة.

ربّما غياب هذه الأشياء المنهجية التي أوجدها العلم المعاصر صَعَّبت من مهمة اللسانيين التابعين لتلك الفترة من الوصول إلى نتائج علمية، إذ كان بالإمكان تجنب البحوث اللّسانية في أواخر القرن التاسع عشر الدخولَ في أزمة علمية حرجة كالتي حدثت فعلاً، إذ جمدت الأصول والمبادئ التي قامت عليها اللّسانيات التاريخية على الصعيدين النظري والمنهجي، وتعطلت مسيرة التقدم التي كان يناضل من أجلها اللّسانيون، والدليل على تلك الأزمة وجود آراء متضمنة في المنهج التاريخي والمقارن كانت تعي جيداً طبيعة الأزمة اللّسانية والتي تجلت في انقسام الباحثين إلى طوائف علمية متصارعة، ومنـــذ ذلك بدأت الأصوات ترتفع ضـــد النزعة التاريخية

---

[24]- **عبد الرحمن الحاج صالح**، بحوث ودراسات في علوم اللّسان، ص126.

[25]- ينظر، **كلاوس هيشن**، القضايا الأساسية في علم اللغة، ص19.

والمقـــارنة، والدعـــوة إلى دراسة اللّغة دراسة آنية وصفية، دراسة تتعامل مع اللّغة لا من منظور تاريخي تطوري أو مقارن بل من منظور نسقي مجرّد.

برزت الملامح الأولى للمنهج الوصفي الآني عند جماعة من اللّسانيين من أمثال: "أنطوان مارتي" (***Anton Marty***)، و"دي سوسير" (***De Saussure***)، و"بودوان كورتناي" (***Boudouin de Courtenay***) و الأمريكي "واتني" (***Whitney***)"[26]" وغير هؤلاء ممن لم تكتب لهم الشهرة.

إن رفض المنهج التاريخي أو بالأحرى الاشمئزاز منه فرض على اللّسانيين اتخاذ منهج معاكس له تماماً، إذ لم يوجد غيره، ومن هنا جاءت النظرة الآنية الوصفية ضرورة منهجية لم يكن بُدٌّ منها مادام تقرر عندهم رفض المنهج التاريخي الحركي. وهكذا استبدلت الحركة بالسكون إلاّ أن هذا الاستبدال لم يكن شيئاً اعتباطيا، بل نُظِّر له جيدا، بناءً على الوعي الذي حصل لأولئك اللسانيين الباحثين عن حل علمي يقضي على الأزمة ومخلفاتها.

ظلّ هذا التنظير الجديد يسير بحذر و لم يجسد إلاّ في بعض الكتابات التي غلب عليها الطابع التاريخي، وهذه هي حال البدايات الأولى، فممن طالب بأن تكون الدراسة اللّسانية وصفية ومتواقتة، هو السويسري أنطوان مارتي "***A. Marty***" الذي لم يلق آذاناً صاغية"[27]"من المهتمين وقتئذ، لأنهم لم يتفطنوا إلى أنه من صلب المنهج التاريخي المسيطر تستخرج أفكار ثائرة عليه وهي التي ستتولى بحث القضايا اللّغوية بشكل دقيق وموسع أيضا.

والشيء نفسه ينطبق على الأمريكي "واتني" (***Whitney***) الذي دعا هو الآخر إلى ضرورة الدراسة الوصفية للغة، « إذ أَلْهَمَ بما نشره من آراء عملاقين من عمالقة هذه اللّسانيات وهما: فرديناند دي سوسير السويسري وبلومفيلد الأمريكي. فهو أيضاً من الذين أظهروا الأفكار السابقة لأوانها»"[28]" فكان يرى أن الألفاظ اللّغوية هي علامات اعتباطية واتفاقية، كما اعتبر اللّغة مؤسسة اجتماعيةً"[29]"، يتواضع عليها البشر خدمة للمجتمعات.

---

[26]- ينظر، إسهامات هؤلاء اللّسانيين خاصة دي سوسير وواتني في

***Maurice Leroy**, les grands courants de la linguistique moderne, 2eme éd : l'université de Bruxelles, Belgique, 1980, p37, 40.*

[27]- ينظر، **جورج مونان**، تاريخ علم اللّغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، ص217.

[28]- **عبد الرحمن الحاج صالح**، بحوث ودراسات في علوم اللّسان، ص136.

[29] *-voir : **Maurice Leroy**, les grands courants de la linguistique moderne, p37.*

وبهذا بدأت الأفكار الجديدة تأخذ طريقها نحو الظهور والذيوع على الأقل على المستوى الذاتي للعلماء، أي: على مستوى الوعي بضرورة التجديد في حقل اللّسانيات وتطوير مناهجها، ثم تجلت تلك الأفكار على مستوى المؤلفات، وإن كانت بصورة غير واضحة تماماً، فمثلاً: "مايه" (***Meillet***) كان يجدّد في كتاباته اللّغوية إلاّ أنه ظل تابعاً للنسق التاريخي السائد"[30]".

كما برزت الملامح الداعية إلى التجديد في النظر اللّساني التاريخي والمقارن في شرق القارة الأوروبية، وقد مثلها اللّغوي: "بودوان" (***Boudouin***)؛ إذ اقترب أكثر من أي شخص آخر من النظرة العلمية للّسان خاصة في الجانب الصوتي منه دون أن يتجاوز في ذلك الاعتبارات اللّسانية الخالصة، وقد ظل هو وزميله "كراوزوسكي" (***Kruszewki***) مجهولين من مجموع العلماء الغربيين"[31]".

أما بالنسبة "لدي سوسير" (***De Saussure***) فقد عرفت البحوث اللّسانية معه تطوراً منقطع النظير، إذ اِلْتقتْ أفكاره الثورية بأفكار العلماء الذين أشرنا إليهم، وتجمّعت لديه، بحيث اِستطاع أن يَصوُغها في قالب نظري منسق أعطاها طابعها العلمي المتميز، وبذا يكون سوسير أول مُنَظِّرٍ لساني بالمفهوم الإبستمولوجي للنظرية، لذا كان له تأثير عميق في النظريات اللّسانية اللاحقة كما هو شأن "الغلوسماتيك" (***La glossématique***)، فكان هدفه الأكبر هو السعي إلى صياغة القوانين الكلية لعلوم اللّسان التي تجعل منه علماً مستقلاً عن باقي العلوم الأخرى.

إنّ الخطوات المنهجية والنظرية التي اتبعها "دي سوسير" دليل واضح على أنه فعلاً أحدث منعرجاً لسانيا حاسماً، باعتباره قَطَعَ الصلة بالبحوث اللّسانية التاريخية والمقارنة، فلم يَعُد الحـــديث عن تتبع تاريخي للغات، بل تحوّل الأمر إلى دراسة اللّغة كما هي في فترة زمنية معينة، وبطريقة وصفية وأكثر موضوعية.

---

[30]- ينظر، **جورج مونان**، تاريخ علم اللّغة مند نشأتها حتى القرن العشرين، ص222.

[31]- ينظر، **آن إينو**، تاريخ السيمائية، ترجمة، رشيد بن مالك، منشورات مختبر الترجمة والمصطلح، جامعة الجزائر، ودار الآفاق، الجزائر، 2004، ص32.

استطاع "دي سوسير" أن يضع القوانين العامة في دراسة اللّغة، من خلال ما هو مقرر في كتابه"دروس في اللّسانيات العامة"، ويمكن أن نوجز تلك القوانين في المَحَاوِر الكبرى الآتية:

1- النظرة النَّسقية إلى اللّغة، وهو ما تجلى في القانون السوسيري "دراسة اللّغة في ذاتها ومن أجل ذاتها"[32].

2- تحديد المنهج العلمي الذي تدرس به اللغة، وهو المنهج الآني الوصفي"[33].

3- تحديد موضوع اللّسانيات بأنه اللّغة من حيث هي هي، باعتبارها ظاهرة شكلية منعزلة عن الواقع الفعلي"[34].

4- تأسيس اللّسانيات على مبدإ الثنائيات الضدية"[35].

5- القول باعتباطية الدليل اللّساني"[36].

إن هذه المحاور الكبرى وغيرها الموجودة في الدروس، هي الفاصل الجوهري بين الدراسات التاريخية والمقارنة، والدراسات اللّسانية الحديثة، واستنباط "سوسير" لها إنّما يوحي بالتوجه التنظيري المنسجم الذي جُمِعَتْ تحته القضايا اللّغوية التي ظلّت ولعهود كثيرة مبعثرة بين العلوم غير لغوية، « فهو لم يقتنع اقتناع من سبقوه فلمّ المعطيات، وإنّما وضع وجهة نظر حول الموضوع وإطاراً عاماً يعقد فيه تنظير تلك المعطيات... ففي هذا السيّاق فتح سوسير التفكير العلمي في اللّسانيات، وما تحوّل إلى العلمية عبارة عن تفكير يدلي نفسه بمفاهيمه ومناهج التحليل الخاصة به»"[37].

فنظرة" دي سوسير" إلى اللغة بهذا المفهوم لم تعد عبارة عن الأنشطة الكلامية الفردية التي درسها النحاة الجدد بل هي نظام مجرد وصوري، أو هي ذلك الموضوع «الذي يقوم العالِمُ بإعادة بنائه عن طريق التجريد، انطلاقا من المادة التي تدركها الملاحظة»"[38]، وبهذه الطريقة

---

[32] -*Voir : **De Saussure**. Cours de linguistique générale. Ed, Talantikit- Bejaia 2002, p280.*
[33] -*Voir : Ibid. p123.*
[34] -*Voir : Ibid. p11 et p280*
[35] -*Voir : Ibid. de p83 à p118.*
[36] -*Voir* : *Ibid*. p87.

[37]- **كترين فوك، بيار لي قوفيك:** مبادئ في قضايا اللّسانيات المعاصرة، ترجمة، المنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984، ص ص17-18.

[38]- **جون سارفوني**، الملفوطية، ترجمة، مقداد القاسم، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق سوريا 1998، ص04.

يضع اللّساني القوانين الكلية المراد تعميمها على سائر اللّغات الإنسانية قصد تحقيق مبدإ الشمولية في الطرح وهو مبدأ علمي تسعى إلى تجسيده في كل فروع المعرفة العلمية.

هذا الطرح العلمي الذي تبناه "دي سوسير" لم يكن وليد اللَحظة بل تقدمته مجموعة من الأفكار التي تصب في الموضوع نفسه، إنها الأفكار والنظريات التي تأثر بها "دي سوسير" كونها لا تنفصل عن مشروعه العلمي، وأبرزها وأكثرها حضورا في فكره ووعيه العلمي النظرية الاجتماعية التي وضعها "دوركايم" (***Durkheim***)، والتي قامت على فكرة أساسية أثرت في اللسانيات في العصر الحديث، إنها فكرة تقدم المجتمع على الفرد « وفسر هذا المفكر مفهوم التصور الجماعي بأنه شيء زائد على مجموع الأفراد، بل شيء خارج عن صفات الفرد ومكتسباته الخاصة به، فهو إذن، كل صفة غير فيزيولوجية ولا عضوية يشترك فيها جميع الأشخاص بسبب اجتماعهم وتعايشهم»"[39]".

تأثُر "دي سوسير" بجوهر هذه الفكرة جليٌّ جداً من خلال عزله اللّغة عن الظروف الاجتماعية، وبخاصة عن الإنسان المتكلم الفعلي، وأعطاها مفهوماً صورياً شكلياً كما فعل "دوركايم" مع مفهوم التصور الجماعي أو الوعي الجمعي الذي يفرض سلطته على الحياة الاجتماعية العادية لدى الأفراد، فاللّغة عند" دي سوسير" شبيهة إلى حدٍّ ما بالوعي الجمعي، فهي تمارس ضغطاً على النشاطات الكلامية الفعلية، وبذلك تكون اللغة متبوعة لا تابعة للأفراد. وعليه تكون اللغة في وجودها أسبق على الوجود الفعلي للمجتمع اللغوي وهو عينُ ما قال به" دوركايم" من أسبقية الوعي الجمعي على الفرد وانفصاله عنه، فضلا عن بقائه بعد الوجود الفردي"[40]".

بناءً على هذه المفاهيم التي جاء بها "دي سوسير" اعتبر مؤرخو اللّسانيات، على غرار آن إينو (***Anne Hénault***) أن تلك المفاهيم التي تضمنها مؤلفه "دروس في اللسانيات العامة" هي البداية الأولى نحو التفرد اللساني، ونحو دراسة البنية الداخلية للغة الإنسانية"[41]".

---

[39]- **عبد الرحمن الحاج صالح**، بحوث ودراسات في علوم اللّسان، ص146.

[40]- ينظر، المرجع السابق، ص147. وينظر أيضا، **كلاوس هيشن**، القضايا الأساسية في علم اللغة، ص25.

[41]- ينظر، **آن اينو**، تاريخ السيميائية، خاصة الفصل الثالث:"التفرد اللساني" ص43.

إن البراديغم اللّساني الذي أسّس عليه "دي سوسير" فكره اللّساني، وهو النظرة النسقية إلى اللّغة، يُعَدُّ مرحلة فاصلة بحق بين اللّسانيات التي كانت منذ القرن الثامن عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر، واللّسانيات البنوية التي دشنها، أو بمعنى آخر؛ إنَّ البراديغم الجديد الذي وضعه "دي سوسير" تمكن من الإطاحة بالبراديغم اللّساني التاريخي والمقارن، واستطاع أن يُحدثَ تحولاً خطيراً في مسار الدّراسات اللّسانية على المستويين المعرفي والمنهجي، كما نجح في القضاء على الأزمة اللّسانية التي شهدها القرن التاسع عشر، هذا المنعرج الحاسم الذي أحدثه "دي سوسير" هو الذي جعل بعضا من الدارسين في الحقل اللّساني يُقْرِنُ اسمه باسم العلماء الكبار الذين غيّروا مسارات العلوم بإحداثهم ثورات علمية هائلة تَبَدّلَتْ على إثرها كلّ المنظومات الفكرية على غرار "كوبرنيكوس" (***Copernicus***) في علم الفلك"[42]" إلى جانب "غاليلو" (***Galileo***) في الفلك والفيزياء الكلاسيكية""[43]"أو هو بمثابة "أمبير (***Ampère***)، أو"نيوتن" (***Newton***) أو هو "آينشتاين" (***Einstein***) علوم اللّغة"[44]"على حدّ تعبير آن إينو.

وخلاصة القول هي: أنّ حدوث المنعرجات في العلم عموماً، مبني أيضاً على رؤية مغايرة لمفهوم العَالَمَ والعلم بحدِّ ذاته، والمنعرج الذي حدث في اللّسانيات كان نتيجة لرؤية مغايرة للواقع اللّساني وللعلم كذلك، ولولا هذه الرؤية لما كان بمقدور اللّسانيين إحداث التغييرات في المناهج والنظريات، ولما استطاعوا التخلص من الأزمات التي علقت فيها اللّسانيات في أواخر القرن التاسع عشر. فما يمكن قوله هو أن لسانيات "دي سوسير"- والبنوية بشكل عام- بهذا المعنى تقدم أنموذجاً علمياً قابلاً للتطوير والتوسع"[45]"، وهو ما تجسد فعلا في النظريات اللّسانية التي عقبت نظرية "دي سوسير" وأهمها: المدرسة الوظيفية ببراغ، والغلوسماتيك بكوبنهاغن، والتوليدية التحويلية في الولايات المتحدة الأمريكية. هذه النّظريات

---

[42]- ينظر، **سالم يفوت**، إبستمولوجيا العلم الحديث، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2008/02، ص09 وص ص20-21.

[43]- ينظر، المرجع نفسه، ص ص25-26 وص31..

[44]- **آن إينو**، تاريخ السيميائية، ص43.

[45]- ينظر، **حافظ إسماعيلي علوي وأحمد الملاخ**، قضايا إبستمولوجية في اللّسانيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط2009/01، ص79.

كلها تنطلق من النواة الأولى التي وضعها "دي سوسير" في دراسة اللغة الإنسانية وهي: دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها.

الفصل الأول

الابستمولوجيا، الأسس والمبادئ

1-التحديد اللغوي والاصطلاحي للإبستمولوجيا.
2-موقع الإبستمولوجيا من الحقول العلمية.
3-الإبستمولوجيا اللسانية عموما.
4-مجال الممارسة الإبستمولوجية اللسانية.

يعد تاريخ الفلسفة في مساره التطوري تاريخا للأنساق الفكرية بشكل عام،كما يُعد في جانب آخر تاريخا قائما على الممارسة النقدية المتبادلة بين العلوم والنظريات العلمية، وقد مثلت الفلسفة اليونانية القديمة بدءا هذه العملية النقدية العلمية، فأفلاطون صاحب النظرية المثالية

ينتقده أرسطو صاحب النظرية الطبيعية، وفي هذا عمل إبستمولوجي وإن أخذ صورة مغايرة لما هي عليه الإستمولوجيا بمفهومها المعاصر، والذي ينحصر في نقد المبادئ والتصورات العلمية فضلا عن النتائج المتوصل إليها؛ لأن كلا من الفلسفة والإبستمولوجيا يسعى إلى البحث عن القيمة المنطقية والعلمية التي تبنى عليها العلوم والنظريات في مختلف التخصصات.

ولا يقتصر العمل النقدي للعلوم على الحقبة اليونانية وحدها؛ بل إننا نجد «كل الفلاسفة الكبار الذين كرسوا حياتهم للمعرفة وقفوا حيال من سبقهم من الفلاسفة موقف الناقد والمناقش والمعلق، وفي الموقف دراسة وبحث إبستمولوجي جدير بالاعتبار...وسواء كان مرتبطا بالمنهج أو بالمضمون فالموقف كان واحدا، وهو البحث عن المعايير التي تتحقق بها المعرفة العلمية»"46".

وقد شهدت الحضارة العربية والإسلامية كثيرا من هذه الأعمال العلمية النقدية بين العلماء والفرق الإسلامية، وأوضح مثال في هذا الموضوع هو ما قام به أبو حامد الغزالي(**450 - 505**هـ) في نقده للفلسفة وعلم الكلام"47"، وكذلك رد ابن رشد (ت **595**هـ) عليه وعلى الفارابي(ت**339**هـ) وابن سينا (ت**428**هـ) في كثير من القضايا العلمية والفلسفية"48"، وهو العمل النقدي نفسه الذي اشتهر به ابن تيمية (ت**768**هـ) بخاصة في نقده ونقضه للمنطق الأرسطي والنظريات الفلسفية اليونانية والإسلامية"49"، وبهذا يتبين أن تاريخ الفلسفة والعلم تعرض للكثير من الانتقادات والتعديلات العلمية، وظلت تلك الانتقادات والتعديلات مواكبة لمراحل نمو العلم إلى أن وصلت إلى العصر الحديث الذي ستأخذ فيه العلوم مسلكا واضحا في الجانب النقدي.

وهو ما تجسد في مفهوم الإبستمولوجيا أو نظرية العلم الحديثة، التي تجلت في صورة واضحة جدا مع أهم الكتابات الإبستمولوجية الأولى التي عرفها القرنان الثامن عشر والتاسع

46- **أحمد ملاح**،المختصر في تاريخ الإبستمولوجيا، ص01.

47_ تكفي الإشارة إلى **أبي حامد الغزالي**؛ تهافت الفلاسفة، والمنقذ من الضلال.

48_ تكفي الإشارة إلى:**ابن رشد**؛ تهافت التهافت، وفصل المقال، والكشف عن مناهج الأدلة.

49_ ينظر على سبيل المثال لا الحصر: **ابن تيمية** نقض المنطق والصفدية.

عشر، وبذلك لم تكن المؤلفات التي وضعها الفلاسفة قبل القرنين المذكورين على غرار بيكون ***Bacon***في كتابيه الأرغانون الجديد، والتجديد الكبير للعلوم، وديكارت ***Descartes*** في مقالة الطريق، ولا إصلاح الفهم لباروخ سبينوزا ***B.Spinoza*** الممثل الحقيقي والفعلي لمفهوم الإبستمولوجيا"[50]".

إن البداية الرسمية للإبستمولوجيا بوصفها دراسة نقدية للعلوم هي في نظر روبير بلانشي ***R.Blanché*** مرتبطة بكتابين رئيسيين هما: "نظرية العلم" لبرنار بولزانو"***Bernard Balzano***"، و"فلسفة العلوم الاستقرائية" "لوليام هويول "***William Whewel*** ""[51]".

بيْد أن رأيا آخر يرجع الانطلاقة الفعلية للإبستمولوجيا بمعناها الحديث إلى الفيلسوف الألماني إمانويل كانط "***E. Kant***" ثم تتابع من بعده الفلاسفة والعلماء يتممون ما بدأه كانط"[52]" من دراسة نقدية واسعة النطاق شملت الفلسفة التي كانت سائدة في عصره، ناهيك عن العلوم مثل الرياضيات، والمنطق، والفيزياء والقانون، وبهذا يكون كانط قد مارس عملا علميا نقديا عبَّر عنه بالمشروع النقدي أو الفلسفة النقدية التي تضمنتها كتبه الشهيرة على غرار نقد العقل الخالص، ونقد العقل العملي، وأسس ميتافيزيقا الأخلاق، وكذلك مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة"[53]".

بالمقابل إذا اعتبرنا الإبستمولوجيا علما يقوم في أساسه على نقد العلوم الأخرى، وتصحيح مسارها، فإنه يحق القول بأن الإبستمولوجيا برزت بوصفها علما له مقوماته، مصاحبة للحركة النقدية التي بدأها العلماء، أو بعبارة أخرى، تزامن ظهورها مع بداية مراجعـــة الأسس التي قام عليها العـــلم التقليدي، وبلغة الأرقام كانت حوالي سنة **1900** عندما

---

[50]- ينظر: **روبير بلانشي**، الإبستومولوجيا، ترجمة: محمود اليعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2004، ص11.

[51]- ينظر: المرجع نفسه ص11.

[52] - *Voir* **: Didier Julia**. *Dictionnaire de la philosophie. Classiques abrégés, imprimé en France, 2007 p78.*

[53]- ينظر في المشروع **الكانطي** النقدي على سبيل المثال كتابيه: أسس ميتافيزيقا الأخلاق ومتقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما، منشورات أنيس موفم، الجزائر 1991.

اتسعت حركة نقد العلوم والتي مست طبيعة قوانين ونظريات العلوم مثل الفيزياء والرياضيات خاصة"[54].

وبذلك يكون الدافع القوي الكامن وراء ظهور الإبستمولوجيا الحديثة هو الوعي العلمي المتزايد الذي حصل لدى العلماء والفلاسفة بضرورة تغيير مبادئ وتصورات العلوم عن طريق نقدها والجدّ في بناء أسس علمية جديدة تتلاءم مع متطلبات العصر واحتياجات الإنسان. وبذلك تكون الإبستمولوجيا بادرة جديدة نحو المزيد من التقدم العلمي بخاصة في مجال تنظيم العلوم وتنقيحها وضبطها منهجيا ومنطقيا.

1- التحديد اللغوي والاصطلاحي للإبستمولوجيا:

مصطلح الإبستمولوجيا ***L'épistémologie*** مصطلح كثير التداول في مجال الفلسفة والمنطق، وفلسفة العلوم، فتارة يستعمل بمعنى نظرية العلم، وتارة أخرى يراد به معنى نظرية المعرفة، وأفضل طريقة يضبط بها هذا المصطلح هي العودة به إلى التحديدات اللغوية والاصطلاحية.

فالإبستمولوجيا من حيث أصلها اللغوي هي كلمة مركبة من إبستيمة "***Epistemé***" والتي تعني العلم، ولوغوس "***Logos***" ومن معانيها: علم، ونقد، ونظرة، ودراسة"[55]. فكلمة إبستيمي تدل على علم نظري يحصل عن طريق التأمل والتجريد في مواضيع مختلفة طبيعية وميتافيزيقية محضة"[56].

بناءً على ذلك تكون الإبستمولوجيا في بُعدها اللغوي علم العلوم أو الدراسة النقدية للعلوم"[57] إلا أن ذلك لا يعني أن الدلالة الحرفية هي المعمول بها لدى العلماء والفلاسفة، لأنّ

---

[54]- ينظر **روبير بلانشي** الإبستمولوجيا. ص ص15- 16.

[55]- ينظر **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط07، 2011 ص18. وينظر أيضا:

Yannis Delmas : Introduction à l'épistémologie. www.delmas-rigoutsos .nom.fr. et centre national des ressources textuelle et lexicales.www.cnrtl.fr/ définition (Epistémologie).

[56]- ينظر: **ملاح أحمد**. المختصر في تاريخ الإبستمولوجيا، ص11.

[57]- ينظر: **محمد عابد الجابري**: مدخل إلى فلسفة العلوم ص18. **وإسماعيلي علوي، وأحمد الملاّخ**، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص21. وينظر أيضا: **روبير بلانشي**، الإبستمولوجيا، ص09. و *Dictionnaire Hachette, 2010. p 552*.

المعنى الاصطلاحي الذي أعطي للإبستمولوجيا جعلها أكثر تخصيصا من المعنى الحرفي؛ وذلك راجع في أساسه إلى اختلاف أنظار الدارسين للعلوم وتاريخها- فضلا عن فلسفتها- في تعيين المقصود من الإبستمولوجيا، وقد مثل هذا الاختلاف مدرستان أوروبيتان، الأولى هي المدرسة الفرنسية، والثانية هي المدرسة الأنجلوساكسونية، وسيكون مفهوم الإبستمولوجيا خاضعا لهذين التوجهين.

تتفق المدرستان على عد الإبستمولوجيا فرعا من فروع الفلسفة ولكنهما تختلفان في تعيين جوهرها، فالمدرسة الأولى تعرّف الإبستمولوجيا على أنها « دراسة نقدية لمبادئ العلوم المختلفة، وفروضها ونتائجها وتهدف إلى تحديد أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية»"[58]"أو هي عبارة عن «حركة نقدية واعية تتناول بالفحص والتدقيق مبادئ وأسس أيّ نسق علمي وعلاقتها بالنظريات والنتائج المشتقة منها، بالإضافة إلى فحص وتحليل بعض المفاهيم التي يستند إليها العلماء في دعم استدلالاتهم»"[59]". ومن ناحية أخرى تتميز الإبستمولوجيا الفرنسية بكونها دراسة نقدية للنظريات العلمية بمعزل عن محيطها الخارجي باعتبار أن للنظريات تاريخها الخاص في تكونها وتطورها وترابطها"[60]". وهذا ما يجعل الإبستمولوجيا بالمفهوم الفرنسي تعني "نظرية العلم" وتختلف عن مفهوم "نظرية المعرفة" التي تركز على ثنائية الذات والموضوع في صناعة المعرفة عموما، وهو المعنى الذي أخذت به المدرسة الإنجليزية.

تأسيسا على ما قدمناه، تكون الإبستمولوجيا في التقليد الانجليزي هي أحد الفروع الفلسفية «الذي يبحث في أصل المعرفة وتكوينها ومناهجها وصحتها»"[61]" أو بعبارة أخرى،

---

[58]- **المعجم الفلسفي**، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1403-1983، ص01. وينظر أيضا: **محمود يعقوبي**، معجم الفلسفة، دار الكتاب الحديث، مصر، 2008، ص08. و *www. apsq.org/ santquantique trésors.html.*

[59]- **محمد محمد قاسم**، المدخل إلى فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط/2003، صص43- 44.

[60]- ينظر: الثبت التعريفي **لمحمد بن ساسي**، ملحق بكتاب، **جورج كانغيلام**. دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ص621.

[61]- **المعجم الفلسفي**، مجمع اللغة العربية، ص01، وينظر أيضا: ***Simard et Rimauski**, Epistémologie. sautquantique/ trésors.html.www.apsq.org/*

تركز الإبستمولوجيا بالمفهوم الإنجليزي على طبيعة وأصل وإطار المعرفة، فهي تفحص العناصر المحددة للمعرفة، ومصادرها، وحدودها، فهي دراسة لطبيعة المعرفة وآليات تبريرها"[62]".

إن الإبستمولوجيا بهذا المعنى تدل على غلبة الأسلوب الفلسفي أكثر من الأسلوب العلمي، أي إن الإبستمولوجيا باعتبارها نظرية للمعرفة تتقاطع- إن لم نقل تتطابق- مع المعالجة الفلسفية للمعرفة العلمية، وذلك واضح جدا من خلال السؤال الذي تطرحه الإبستمولوجيا بهذا المعنى وهو: ما هي المعرفة؟ وكيف يتم اكتساب المعرفة؟ وأيضا لماذا يعرف الناس؟

انطلاقا من هذه الأسئلة التي يتحدد بها مجال نظرية المعرفة، تكون الإبستمولوجيا في التقليد الإنجليزي عموما موافقة إلى حدّ ما للنظريات الفلسفية التي بحثت ظاهرة المعرفة، كما هو شأن الفلسفة النقدية عند كانط"[63]"، أو المنهج العقلاني عند ديكارت، أو هيغل، وغيرهم كثير، ولا يعني هذا أن الطريقة الإنجليزية بعيدة عن المجال العلمي، وإنما الفارق الجوهري بينها وبين التقليد الفرنسي، هو أن الأول يتجه صوب دراسة ونقد المعرفة عموما، أما التوجه الفرنسي فإنه ينصب على دراسة ونقد المعرفة العلمية خاصة. وعليه يكون مجال التوجه الإنجليزي منحصرا في الإجابة على أسئلة محددة من قبيل: كيف لنا أن نعرف؟ أو ما مصادر المعرفة الأساسية؟ هل هي العقل وحده أم الحواس أم الحدس أم كل هذه الأشياء؟ كما تحاول الإجابة عن سؤال القيود التي تحدّ آفاق ما يمكن الوصول إليه منها"[64]".

إذا يمكن القول إنها « النظر النقدي في طبيعة المعرفة البشرية وفي مبادئها ومداها، وذلك باعتبار أثر الذات في موضوع المعرفة»"[65]" وتبعا لذلك يكون مصطلح الإبستمولوجيا ***L'épistémologie*** معادلا لمصطلح نظرية المعرفة ***La gnoséologie ou la théorie de la connaissance*** في التقليد الانجليزي بشكل خاص، وهو خلاف ما عليه التقليد الفرنسي الذي يأخذ بالمعنى الأكثر خصوصية للإبستمولوجيا وهو نقد المعرفة العلمية أو نظرية العلم.

2- موقع الإبستمولوجيا من الحقول العلمية:

---

[62]- ينظر، **إسماعيلي علوي وأمحمد الملاخ**، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص22.

[63] - *voir :* ***Didier Julia*** *: Dictionnaire de la philosophie. pp 78,79 et p 104.*

[64]- ينظر: **نبيل علي**، العقل العربي ومجتمع المعرفة، ص104.

[65]- **محمود يعقوبي**: معجم الفلسفة، ص103.

على الرغم من التحديدات اللغوية والاصطلاحية التي قدمت في بيان مفهوم الإبستمولوجيا، إلا أن غموضا يبقى يخيم عليها بعض الشيء خاصة من ناحية علاقتها بميادين معرفية قريبة منها جدا، ومتداخلة معها في كثير من المباحث المشتركة، وهذا ما صعب مهمة رسم المجال الخاص بالإبستمولوجيا بغرض تمييزها عن حقول معرفية مثل نظرية المعرفة، وفلسفة العلوم، وعلم المناهج وكذلك المنطق، وتاريخ العلم والعلوم الإنسانية.

ولكي نتمكن من عرض صورة واضحة حول طبيعة هذا التداخل يتوجب علينا أن نعين أولا الحدود الفاصلة بينها، وبين تلك الحقول المعرفية المذكورة أعلاه، مركزين أكثر على موضوع كل فرع من الفروع العلمية التي ذكرناها بهدف تحديد الإطار الذي يشتغل فيه كل علم أو كل حقل معرفي. فأول ما نبدأ به هو:

2- 1- علاقة الإبستمولوجيا بنظرية المعرفة:

تتجلى علاقة الإبستمولوجيا أو نظرية العلم، بنظرية المعرفة، في كونها جزءا منها، أي: إن نسبة الإبستمولوجيا إلى نظرية المعرفة، هي نسبة النوع إلى الجنس على أساس أنّ الإبستمولوجيا تنحصر في تلك الصورة الوحيدة من صور المعرفة المتعددة والتي هي المعرفة العلمية خاصة"[66]".

فالقول بأنّ الإبستمولوجيا هي جزء من نظرية المعرفة العامة، يعني من طريق آخر صعوبة الفصل بينهما، أي: هما متداخلان ومتشابكان، وهذا يتعارض مع الرأي القائل والقاضي بأنهما شيئان منفصلان،- وهو ما ذهب إليه رواد حلقة فيينا أو الوضعية المنطقية- بناء على أن الإبستمولوجيا تشتغل على نوع خاص من المعرفة وهي العلمية دون سواها، في حين تعكف نظرية المعرفة على دراسة كل أنواع المعرفة البشرية الممكنة، العلمية وغير العلمية منها، ومن هذا يتبيّن أن نظرية المعرفة شيء غير الإبستمولوجيا، لأنها « بحث نظري شامل يحتوي على تحليل دقيق وواضح لموضوع من الموضوعات لغرض تقديم صورة علمية حول أجزائه ومركباته

---

[66]- ينظر، **روبير بلانشي**، الإبستمولوجيا، ص17. وينظر أيضا **عبد السلام بنعبد العالي وسالم يفوت**، درس الإبستمولوجيا، دار توبقال، المغرب، ط03، 2001، ص07.

والميكانيزمات الداخلية التي تحركه... لأن نظرية المعرفة في الأصل بحث شامل وعام يتناول القضايا بطريقة إجمالية ولا يدخل في تفاصيل جزئياتها»"[67]".

إنّ الشيء الذي يزيد من التأكيد على الفصل الجلي بين نظرية المعرفة والإبستمولوجيا هو الإشكال الرئيس الذي تسعى إلى الإجابة عنه نظرية المعرفة والمتمثل في: ما هي المعرفة عموما؟ لهذا لا نجد واضع النظرية في المعرفة يتساءل عن مستوى معيّن أو محدّد من المعارف، أو عن شروط تاريخية معينة أو عن علم خاص، فالذي يعنى به الباحث في هذا المجال العلمي والفكري هو البحث في المعرفة من طريق كلي و إجمالي، وعن الشروط الممكنة للمعرفة عموما.

وهكذا فإن الفيلسوف وهو يضع نظريته في المعرفة يرى ويعتقد بأن ما يقوم به هو تأسيس فلسفي شامل لكل العلوم والمعارف الإنسانية"[68]". قد أدى هذا المنحنى ببعضهم إلى القول بأنه لا يمكن أن تكون هي نفسها نظرية للعلم أو الإبستمولوجيا، مادامت منحصرة في البحث في المشكلات الفلسفية الناتجة عن العلاقة الموجودة بين الذات والموضوع أو بين العارف والمعروف"[69]"، كما تقدّمه الفلسفات القديمة الميتافيزيقية وغيرها منذ العصر اليوناني القديم وحتى في أواخر القرن التاسع عشر؛ لأن هذا ليس مما تشتغل عليه الإبستمولوجيا بالمعنى الذي أشرنا إليه سابقا. يقول "محمد وقيدي" في هذا الشأن ما يلي: « ولذلك فإنّ الخروج من الطابع الميتافيزيقي الذي اتسمت به النظريات الفلسفية في المعرفة، والسير بعد ذلك في الاتجاه الذي يقود نحو الإبستمولوجيا بوصفها دراسة علمية للمعرفة العلمية أمران يقتضيان ترك السؤال حول المعرفة في صيغته العامة»"[70]"، هذا في جانب، وفي جانب آخر ينبئ عن الاختلاف الواضح بين نظرية المعرفة التي تستند إلى الفلسفة، والإبستمولوجيا التي تستند إلى العلم.

هذا وقد أكدّ على الانفصال والتمايز بينهما كثير من الباحثين من أمثال "محمد عابد الجابري"، فقد كتب قائلا: « هناك... اتصال وانفصال بين نظرية المعرفة بمعناها الفلسفي العام، وبين الإبستمولوجيا بمعناها الدقيق الخاص... إن الواقع التاريخي، واقع تطور العلوم، قد فرض

---

[67]- **محمد ملاح** ، المختصر في تاريخ الإبستمولوجيا، ص12.

[68]- ينظر: **محمد وقيدي**، الإبستمولوجيا التكوينية عند جان بياجي، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2007، ص172.

[69]- ينظر: **أحمد شطوطي**، المدخل إلى الفلسفة العامة، دار طليطلة، الجزائر، ط2009، ص55.

[70]- المرجع السابق، ص172.

نوعا من الانفصال بينهما، نوعا من القطيعة الإبستمولوجية»"[71]"، والتي كان من أهم نتائجها البارزة أن صارت الإبستمولوجيا من شأن العلماء واختصاصهم، بخلاف نظرية المعرفة التي بقيت مهتمة بالمشاكل الفلسفية التقليدية ومن ثمّ فهي من شأن الفلاسفة"[72]" وحدهم.

إن حرص بعض الباحثين والمفكرين على اعتبار الإبستمولوجيا علما مستقلا بنفسه ومتميزا عن نظرية المعرفة، قابله حرص آخر معاكس تبنّاه نفر غير قليل من علماء وباحثين يرون أن الإبستمولوجيا وإن كانت تبدو في ظاهرها كذلك فإنها من جهة أخرى نجدها متداخلة تداخلا كبيرا بنظرية المعرفة، وأن ما يظهر من كونهما منفصلين فهو لا يعدو أن يكون فصلا وتمييزا نظريين فقط، وقد عبَّر "روبير بلانشي" عن ذلك بقوله: « وإذا ما قبلنا الفصل النظري بين نظرية العلم ونظرية المعرفة، فإنه ينبغي أن نعترف بأنّ التمييز بينهما ليس مراعى دائما»"[73]".

بناء على ما تقدّم، يتضح بأن الإبستمولوجيا تلتقي مع نظرية المعرفة بمعناها الفلسفي العام، وذلك من حيث اعتناؤها بدراسة طرائق اكتساب المعرفة وكذلك بطبيعتها وبحدودها إلا أنّها تتحاشى المنهج الفلسفي التأملي الذي اعتمدت عليه بشكل كلي ومباشر نظرية المعرفة"[74]". فهما بهذا المعنى مشتركان، بل ومتقاطعان في العديد من القضايا والمسائل المعرفية والعلمية، إذًا، الاتصال والتداخل بينهما يمثل المظهر الرئيس على صعيد التحليل تحديدا مما يدل على وجود وشائج متينة من القربى بين الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة"[75]".

لقد بيّن روبير بلانشي ***R.Blanché*** هذا التداخل بين الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة بعبارات واضحة، قائلا: « نضيف أن التوحيد التام بين نظرية العلم ونظرية المعرفة إذا لم يعد اليوم موافقا لما يجري به العمل، فإنه ما يزال شائعا لدى كثير من المؤلفين الذي يقبلونه دون مناقشة، باعتباره أمرا طبيعيا»"[76]". ثم يقدم نماذج على ذلك بقوله:« وهكذا فإنّ المقالة المطولة

---

[71]- **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم، ص22.

[72]- ينظر، المرجع السابق.ص22.

[73]- **روبير بلانشي**، الإبستمولوجيا، ص20.

[74]- ينظر، **إسماعيلي علوي**، و**أمحمد الملاخ**، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص24. وينظر أيضا: **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم، ص48.

[75]- ينظر، **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم، ص21.

[76]- **روبير بلانشي**، الإبستمولوجيا، ص20. الهامش رقم(1).

التي خصصتها ***Encyclopédia of philosophy***"**(1967)** للإبستمولوجيا قد عرفتها... هكذا: "الإبستمولوجيا أو نظرية المعرفة، هي ذلك الفرع من الفلسفة الذي يهتم بطبيعة وأثر المعرفة، وبافتراضاتها، وأصولها وبمدى الثقة فيها"، و***Encyclopedia Britanica*** عرفت الإبستمولوجيا بنفس العبارات تقريبا... وأما ***Encyclopedia Italiane*** فهي تكتفي في كلمة ***Epistémologie*** بالإحالة إلى كلمة ***Gnoséologie***»"[77]".

ومحاولة منا في استجلاء هذا الغموض أو التداخل الواقع بين الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة، يمكن القول بأنّ لكلٍّ مجاله الذي يتحرك فيه، وذلك بالنظر إلى طبيعة المواضيع والقضايا المعالجة في كلّ من الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة، فإذا نحن أخذنا هذا الجانب بعين الاعتبار حكمنا على أنّ الإبستمولوجيا لا يمكن أن تكون هي نفسها نظرية المعرفة بالمعنى الفلسفي العام؛ لأنّ نوعية المسائل العلمية، ومواصفات الإشكاليات الفكرية التي تهتم بها الإبستمولوجيا نابعة من العلم المحض المتجرد والمترفع على كل التصورات والشوائب الفلسفية القديمة والحديثة، كما أنّ القضايا التي تُطرح على العالم الإبستمولوجي هي قضايا علمية لا تخرج عن إطار اختصاصه العلمي"[78]".

ثم إن الأدوات التي توظفها الإبستمولوجيبا في ممارستها النقدية للعلوم وتحليلها لها، ليست هي من قبيل الآليات والأدوات المنهجية التي تستخدمها نظرية المعرفة عندما يحاول الفيلسوف أن يجيب على الأسئلة والمشاكل المعرفية المتنوعة والعالقة، وعليه تكون الإبستمولوجيا في هذا الجانب علما نقديا مستقلا قائما بذاته، له خصوصياته، وآلياته المنهجية، علما متميزا عن نظرية المعرفة القريبة إلى التأمل الفلسفي منها إلى العلم الخالص.

لكننا إذا اعتبرنا النقاط المشتركة بينهما بغض النظر عن طبيعة المنهجية الموظفة في كلا الحقلين، فإنه يتحتم علينا أن نقضي بأنهما (الإبستمولوجيا، ونظرية المعرفة) غير منفصلين، ذلك لأنهما يشتركان في البحث عن الأصول الأولى للمعرفة الإنسانية عموما، والمعارف العلمية خصوصا"[79]"، أي: إنّ الشغل الشاغل الجامع بين الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة هو البحث عن

---

[77]-المرجع السابق، ص20. الهامش(1).

[78]- ينظر، **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم ، ص22.

[79] *Voir : Dictionnaire Encyclopédique de psychologie, sous la direction de Norbert sillamy-Ed : Bordas Paris 1980, T1. p441.*

الطريقة والكيفية التي بها يتم الكشف عن الأسس العلمية، وكذلك البحث المتواصل من أجل النجاح في إرساء قواعد علمية تضبط بها المعرفة الصادرة عن الإنسان، دون الالتفات إلى كونها معرفة علمية محضة، أو معرفة فلسفية تأملية خالصة. فهما بهذا الاعتبار يعدّان شيئا واحدا نظرا لتداخلهما الشديد، وللعلاقة المتبادلة بينهما في كثير من القضايا العلمية المشتركة، وعلى العموم « فإن العلاقة بين نظرية المعرفة، والإبستمولوجيا هي كعلاقة المفهوم بالمصادق»"[80]"، وظاهر جدّا أن ما بين هذين المفهومين (المفهوم والمصادق) من العلاقة الجامعة والمتبادلة بينهما ما لا يسمح باستحضار أحدهما دون استحضار الآخر؛ لأنّهما أمران متلازمان، وهذا هو شأن الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة العامة، وقد أشار "جورج كانغيلام" (***Georges Canguilhem***) إلى هذا الترابط والاتصال بينهما بقوله: « إن الإبستمولوجيا تعني اليوم تركة ذلك الفرع التقليدي من الفلسفة الذي كان يسمى نظرية المعرفة، حتى لا نقول آثاره الباقية... »"[81]"، فقد دلّ هذا القول دلالة واضحة جدّا على درجة الارتباط بينهما، وقوته ومتانته، فهو يوحي من طريق آخر إلى أن نظرية المعرفة أصل، والإبستمولوجيا فرع متولد عنها، وإن بدت القطائع بينهما كما تمت الإشارة إليه سابقا.

2- 2- علاقة الإبستمولوجيا بفلسفة العلوم:

تشكل علاقة الإبستمولوجيا بفلسفة العلوم صعوبة أخرى تضاف إلى الصعوبة الأولى التي رأيناها بين الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة، إلاّ أن هذا لا يمنع من وجود محاولات في دراستها وتعيين حدودها، وحتى لا ينفلت منا البحث ويخرج عن مقاصده، لا بأس أن نحصر الخطوات الكبرى التي يتحرك فيها مبحث علاقة الإبستمولوجيا بفلسفة العلوم على النحو الآتي:

أولا: الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم حقلان معرفيان متمايزان عن بعضهما.

ثانيا: الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم حقلان معرفيان متحدان ولا فصل بينهما.

ثالثا: الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم حقلان معرفيان متقاطعان وليسا منفصلين أو متحدّين.

---

[80]- **محمد ملاح**، المختصر في تاريخ الإبستمولوجيا.ص ص12-13.

[81]- **جورج كانغيلام**، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ترجمة محمد بن ساسي، ص ص616-617.

من هذه المحاور الثلاثة الكبرى يمكن رصد وتعيين مواصفات العلاقة الجامعة بين ذينك الحقلين المعرفيين، ولكن قبل التطرق إلى ذلك، يحسن بنا أن نقف بعض الشيء عند مطلب هام وضروري من مطالب هذا المبحث، ونعني به: ما هو المقصود تحديدا بفلسفة العلوم؟.

لقد عرّفها بعضهم بقوله: « إنها دراسة واعية لطبيعة العلم، تتوقف بوجه خاص عند مناهجه وتصوراته، ومبادئه، كما تحاول أن تحدّد مكانة العلم في الصورة التي تجمعه إلى بقية النظم العقلية»"[82]". وقد عرّفها "الجابري" بعد أن أشار إلى صعوبة مهمة وضع حدّ مانع جامـــع لها بقوله: «فلسفة العلوم مصطلح غامض عائم، فكلّ تفكير في العلم أو في أيّ جانب من جوانبه، في مبادئه، أو فروضه، أو قوانينه، في نتائجه الفلسفية، أو قيمته المنطقية والأخلاقية، هو بشكل أو بآخر فلسفة للعلم»"[83]".

وهي عند "توماس كون: ***S.T.KUHN***"، الفلسفة التي بها تحلّل البنية المنطقية للمقدار الكامل من المعرفة العلمية"[84]"، كما أنّنا نجد باحثا آخر حاول أن يقدّم تعريفا دقيقا لها عبر وضعه لمصطلح آخر القصد منه تمييز فلسفة العلوم عن الإبستمولوجيا، وهذا المصطلح هو "الميتامعرفية" كتب موضحا ذلك: « إنّ الميتامعرفية تبحث عن أوجه التشابه بين النُظم المعقدة بغض النظر عن مجالها الموضوعي، فهي ترتكز على عمومية السلوك المشترك لهذه النظم، وعمومية تناول المشكلات تمثيلا وتحليلا وحلاّ ولا نجد مثالا لـــ: "الميتامعرفية" في مقامنا الحالي خيرا من فلسفة العلم ذاتها»"[85]"، هذا وقد حصر "بانج ***Bunge***" مفهوم فلسفة العلوم في عبارة موجزة بقوله: «... فلسفة العلم هي ذلك الفرع من الفلسفة الذي يدرس البحث العلمي. ونتائجها المعرفة العلمية»"[86]".

---

[82]- **محمد محمد قاسم**، المدخل إلى فلسفة العلوم،ص ص43-44.و ينظر أيضا **عبد السلام بنعبد العالي وسالم يفوت**، درس الإبستمولوجيا ص45.

[83]- **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم، ص24. وينظر، **إسماعيلي علوي والمحمد الملاخ**، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص23.

[84]- ينظر، **توماس كون**، بنية الثورات العلمية، ص240.

[85]- **علي نبيل**، العقل العربي ومجتمع المعرفة، ص 249.

[86] - ***Simard et Rimouski****. L'epistémologie.www.apsq.org/ saut quantique/ trésors.html.*

إنّ هذه التعريفات، وأخرى لم يتسع المجال لذكرها، هي صورة واضحة على أنّ المفكرين والباحثين في هذا الاختصاص العلمي، تعسّر عليهم فعلا وضع تعريف شامل وجامع مانع لفلسفة العلوم، فهذه التعريفات لا تشير إلى اتفاق بينهم، وهو ما انعكس، بل أثّر في تعيين العلاقة الموجودة بين الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم، وزاد أيضا من شدّة تعقّدها وعدم وضوحها بالشكل المرغوب فيه لدى العلماء والمهتمين بالقضايا العلمية إبستمولوجيًا وفلسفيًا معا؛ إلاّ أنّه من اللاّزم علينا أن نسلّط الضوء على طبيعة العلاقة القائمة بين الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم.

تتميز فلسفة العلوم عن باقي الفروع العلمية القريبة منها بالمجال الذي تشتغل فيه، وهو مجال تضبطه جملة من الأسئلة التي تعدّ المعالم الكبرى التي يتحرك داخلها المتخصص في فلسفة العلوم، ويمكن حصر هذه المعالم في الإشكاليات العلمية والفلسفية الآتية:

1- ما طبيعة العلاقة التي تجمع بين المعرفة العلمية والواقع؟ وهل يصف العلماء حقيقة الأشياء من حيث هي هي، أم يكتفون بمجرد وصف ظواهرها؟.

2- بأي كيفية يتطور العلم ويواصل نموه؟ وكيف يتم تصحيح مسار العلم في رحلته الطويلة؟.

3- ما هو موقف الإنسان مما يفترضه العلم من موجودات عندما يتعذر الرصد المباشر عن طريق الملاحظة والتجريب؟"[87]".

هذه الأسئلة العميقة هي ما يميز فلسفة العلوم عن الإبستمولوجيا، ذلك أن فلسفة العلوم تنطلق في دراستها للعلوم على اختلافها من منطلق أن وظيفة العلم الأساسية هي حلّ المشكلات العلمية، لا من منطلق المشكلات بحدّ ذاتها"[88]"، وهذه ميزة لها تجعلها منفردة عن الإبستمولوجيا إذ إن الإبستمولوجيا تنظر إلى العلم على أنّه موضوع للدّراسة النقدية، في حين تنظر فلسفة العلوم إلى العلم على أنّه ظاهرة إنسانية معقدة جدا، لابّد من إيجاد حلول مناسبة لفكّ صفة التعقد عن العلم.

وبهذا الاعتبار لا يمكن عدّ الإبستمولوجيا هي نفسها فلسفة العلوم- وإن كان تجاوز نقاط الالتقاء بينهما أمرا متعذرا- لأن فلسفة العلوم، على حدّ تعبير "جوليا كريستيفا: ***J-***

---

[87]- ينظر، **علي نبيل**، العقل العربي ومجتمع المعرفة، ص105، وص ص113- 114.

[88]- ينظر، المرجع نفسه.ص 249.

Kristeva **"** « هي ما يهدف إلى تقديم نتيجة واضحة وعامة للتفسير العلمي العقلاني للمبادئ العلمية، والرّبط بين تلك المبادئ والخبرة»"[89]"، أو التجربة الحسية.

بالإضافة إلى ذلك يوجد جانب آخر تتميز به فلسفة العلوم عن الإبستمولوجيا، كما يدّل أيضا على أنّ الإبستمولوجيا هي في الأصل جزء من أجزاء رئيسة في فلسفة العلوم، أو بعبارة أخرى إن الإبستمولوجيا محتواة في فلسفة العلوم، وهذا الجانب مهم جدا في التفريق والتمييز بين الحقلين المذكورين، ونعني بذلك ما تهتم به فلسفة العلوم وتتخذه ركيزة ترتكز عليها في دراستها للعلوم فلسفيا، بناء على ما تقدم يكون من المفيد تلخيص اهتمامات فلسفة العلوم في العناصر الآتية:

إن أول ما ترتكز عليه فلسفة العلوم في نشاطها العلمي هو تاريخ العلوم؛ الذي يعدّ عرضا للعلم في نشأته، وهذه إحدى الوظائف التي نيط بها الفيلسوف.

كما ترتكز فلسفة العلوم – ثانيا- على مناهج البحث العلمي، أو الميتودولوجيا، التي تحتاجها سائر العلوم على تنوعها واختلافها.

ومن اهتماماتها وركائزها- أيضا- الإبستمولوجيا التي هي في الأساس نقد للمعرفة العلمية خاصة.

وأخيرا تجعل نظرية المعرفة من جملة اهتماماتها الأساسية"[90]"في التفكير العلمي عموما، ومن جانب فلسفي خصوصا.

إن تحديد مكانة الإبستمولوجيا ضمن الحيّز الذي تهتم به فلسفة العلوم، وجعلها جزءا منها، لهو دليل واضح على أنّ الإبستمولوجيا متميزة عن فلسفة العلوم، غير أنّ هذا الموقف يتضمن في طيّاته رأيا آخر له وجاهته والمتمثل في الاعتراف بأنّ بين الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم علاقات ترابط وتقاطع لا يمكن بأيّ حال أن نغض الطرف عنها أو أن نتغافل عن إبرازها، إذ إنّهما ليسا منفصلين عن بعضهما انفصالا تاما. وكذلك يتضمن أن الإبستمولوجيا هي إحدى الكيفيات الأساسية التي يتّم عبرها التفلسف حول العلم إلى جانب كيفيات أخرى.

---

[89] ***-J. Krestiva*** *: les épistémologies de la linguistique in langages,6eme année, N°24,1971, p03.*

[90]- ينظر، **الأخضر شريط**، المنطق الرياضي، ص60.

إذا، من هذا المنطلق يكون من الصعب التمييز بينهما بشكل واضح ونهائي؛ لأنّ التأكيد على أنّهما منفصلان لا يؤدي – في حقيقة الأمر- إلاّ إلى احتمالين، إمّا أن يكون الفرق بينهما نابعا من كون الإبستمولوجيا جزءا من فلسفة العلم، وقد بان ذلك بأنه رأي يتضمن القول بتقاطعهما، وإمّا أن يكون الفرق بينهما في كون الإبستمولوجيا تحتل مكانة وسطى بين العلم والفلسفة، وهذا يعني أنهما تربطهما علاقات قوية ومتينة"[91]".

إنّ تعذر الحصول على تمييز دقيق بين الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم، يعود إلى كون مصطلح فلسفة العلوم- على حدّ تعبير "روبير بلانشي"- يتصف بمطاطية كبيرة، ليس من السّهل القطع بالرأي فيها، مستشهدا في ذلك بما كتبه أحد الفلاسفة في العلم؛ إذ قام بالتمييز بين أربع كيفيات مختلفة في التفلسف حول العلم؛

الأولى: دراسة علاقة العلم بالعالم والمجتمع.

الثانية: الاجتهاد لبيان موقع العلم ضمن سلّم القيّم الإنسانية.

الثالثة: التأملات التي تعمّم انطلاقا من نتائج العلم لكي تصل إلى ما يسمى بحقّ فلسفة طبيعية.

الرابعة: التحليل المنطقي للغة العلمية"[92]".

وواضح جدا من هذه الكيفيات المختلفة هو أن فلسفة العلوم لا تنحصر في جزء واحد من أجزاء العلم دون غيرها، كأن تكتفي فلسفة العلوم مثلا بدراسة علاقة العلم بالعالم والمجتمع، وإنما المساحة التي تتحدّد بها الممارسة الفلسفية للعلوم مرهونة بتلك الكيفيات الأربع المذكورة، هذا في جانب، وفي جانب ثانٍ يتضح من هذه الكيفيات أنّ الإبستمولوجيا جزء هام من الأجزاء المكوّنة لحقل فلسفة العلوم، وأنّها أحد الفروع التابعة لفلسفة العلوم والمتضمنة فيها، وهذا جليّ من الكيفية الرابعة، والتي عبّر عنها بالتحليل المنطقي للغة العلمية؛ لأنّ من المهام الرئيسية التي تضطلع بها الممارسة الإبستمولوجية هي تحليل اللغة العلمية منطقيا، بخاصة إذا

---

[91]- ينظر، **بلانشي روبير**، الإبستمولوجيا، ص25.

[92]- ينظر، المرجع السابق، ص21.

نظرنا إلى هذا من منظور الوضعية المنطقية؛ لذا نجد "روبير بلانشي" يقرر بأنّ الكيفية الرابعة هي التي تتفق مع ما تدل عليه الإبستمولوجيا"[93]".

وبذلك تكون فلسفة العلوم غير مستغنية عن الإبستمولوجيا، كما أنّ الإبستمولوجيا لا يمكن أن تستغني عن فلسفة العلوم، طالما هي جزء منها، ومحتواة فيها، وهكذا تكون العلاقة بينهما علاقة لزومية، ناهيك عن تداخلها بينهما، وهو ما يعزّز القول بأنّهما متقاطعان لا منفصلان.

وعلى الرّغم من هذا كلّه، إلاّ أنّنا نجد من الباحثين من ينظر إلى الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم على أنّهما شيء واحد، أو بمعنى آخر: هما اسمان لشيء واحد. وعلى هذا الأساس لا يعدّان منفصلين ولا متقاطعين، بل هما مترادفان.

لقد أُكدّ هذا التوجه في القاموس الموسوعي لعلم النفس، بأنّ « عبارة: فلسفة العلوم- هي ببساطة- تستعمل كمرادف للإبستمولوجيا»"[94]"، والأمر نفسه نجده عند "ماريو بانج ***Bunge***" بحيث اعتبر الإبستمولوجيا هي نفسها فلسفة العلوم، وذلك في سياق حديثه عن ضرورة تحليل المنهج العلمي بحدّ ذاته، بحيث وظف العبارة الآتية: « وما يمكن القيام به فعلا عندما نتعلّم المنهج... هو تحليله، وهذا يعتبر فصلا مهما في فلسفة العلوم (الإبستمولوجيا)»"[95]". فقد رادف بين الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم كما هو ظاهر.

وفي سياق آخر ليس ببعيد عن الأول، لا يميّز "بانج" بين الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم، ويعدّهما شيئا واحدا، بناء على خلفية أنهما مترادفان، وليسا متمايزين أو متقاطعين، يقول في تعريفه للإبستمولوجيا ما يلي: « الإبستمولوجيا أو فلسفة العلوم هي ذلك الفرع من الفلسفة الذي يدرس البحث العلمي. ونتاجها المعرفة العلمية»"[96]"، يتبيّن من هذا التعريف الوجيز أنّه لا يقيم تمييزا بين الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم، لأننا نجده يستعمل الحرف "أو" "*ou*" وفي هذا إشارة كافية لأن يكونا شيئا واحد، أو هما اسمان لمسمّى واحد.

---

[93]- ينظر، المرجع نفسه. ص21.

[94] -*Dictionnaire Encyclopédique de psychologie p.441.*

[95]- **ماريو بانج**،المنهج العلمي وتوظيفاته، ترجمة: عبد الكريم بزّاز، مجلة دراسات عربية، بيروت، لبنان، ع10، السنة 24 أب: أغسطس 1988، ص72.

[96]-***Simard et Rimouski****. L'Epistémologie.www.apsq.org.et voir aussi : Yannis Delmas, Introduction à l'epistémologie .(www.delmas-rigoutsas.nom.fr)*

بناءً على ما تقدّم ستكون العلاقة بين الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم من هذا المنظور هي علاقة تطابق تام، وتبعا لذلك يمكن تبرير مشروعية عدم التمييز بينهما- كما يقول الجابري- لكونهما متداخلين، ومتشابكين إلى الحدّ الذي يصعب معه تقرير ما إذا كانت قضية ما من القضايا العلمية والمعرفية تخص الواحدة منهما دون الأخرى"[97]".

والحقّ إنّ الآراء الثلاثة التي أتينا على ذكرها لكلّ منها له ما يدعمه ويبرّره؛ إذ ليس من المتاح لنا أن نجزم بأنّ الإبستمولوجيا علم متجرّد عن كل العلوم القريبة منه، وفلسفة العلوم أحد هذه العلوم القريبة، كما لا يمكننا أن نخضع قهرا الإبستمولوجيا ونضعها ضمن المساحة التي تتحرك فيها فلسفة العلوم، ومن ثمّ نقول بأنّهما متطابقان تماما، وعليه فالذي يبدو مناسبا هو أن نعتبر الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم علمين متقاطعين ومتداخلين.

2- 3- علاقة الإبستمولوجيا بعلم المناهج والمنطق:

ما ينبغي أن نشير إليه في مستهلّ هذا المبحث، هو أنّ العلاقة بين الإبستمولوجيا وعلم المناهج(أو الميتودولوجيا) من جهة، وبين الإبستمولوجيا والمنطق من جهة أخرى أخذت طابعا آخر مغايرا لما تناولناه في المبحثين السّابقين (علاقة الإبستمولوجيا بنظرية المعرفة، وبفلسفة العلوم)؛ لأنّها علاقة لم تخرج عن مفهوم التقاطع الجلي تارة، والخفي تارة أخرى إلى أنّ هذه العلاقة لا تتضح بالشكل المطلوب ما لم نقدّم تعريفا وجيزا لكلّ من علم المناهج، والمنطق.

أمّا المنطق، فهو في أبسط معانيه « النّظر في العمليات التي يجريها الفكر، فهو يحلّل استدلالاتها العادية كما ترد في عباراتها اللّفظية، وذلك لاستخلاص القواعد التي تضمن صحتها»"[98]".

ويعرّفه "جول تريكو" "***J-Tricot***" قائلا: « إنّ المنطق الصوري يحدّ بصفته ناجما فقط من طبيعة الفكر عامة، ومنتجا بمقتضى الصورة بقطع النظر عن المضمون، فهو يدرس (قوانين الفكر

---

[97]- ينظر، **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم.ص20. وينظر: **محمد محمد قاسم** المدخل إلى فلسفة العلوم.ص ص43-44.

[98]- **روبير بلانشي**، المدخل إلى المنطق المعاصر، ترجمة محمود اليعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط02/2009، ص24.

الضرورية) أي: القواعد التي يجب على الفكر أن لا يتملّص منها، وإلاّ كوّن تصورات متناقضة، وأحكاما أو استدلالات غير جائزة... »"[99]".

يكون المنطق بهذا المعنى وفي هذا المستوى دراسة دقيقة لشروط بلوغ الحقيقة، تلك الشروط الكامنة في علاقة الذات والموضوعات، وعليه كان المنطق منذ بدايته الأولى وحتى الآن علما يتكفل بدراسة الشروط الصورية للحقيقة؛ لذا صنّف ضمن العلوم المعيارية لأنّ الحقيقة في المنطق تصبح مجرد مسألة استنباطية؛ إذ إنّ صدقها يكون مستقلا عن كل تجربة أو ملاحظة"[100]"، أو بعبارة أخرى لا يلتفت المنطق في بحثه عن الحقيقة إلى الوقائع الجزئية، بل يتجاوزها إلى ما هو أعم وأكثر صورية.

بالمقابل نجد الميتودولوجيا أو علم المناهج بمعناه الواسع فرعا علميا منبثقا عن المنطق، هذا هو المعنى العام الذي كان سائدا وإن صار اليوم لا ينظر إلى الميتودولوجيا على أنّها فرع عن المنطق.

وبغض النّظر عن ذلك، نرى من الباحثين من يعتمد أطروحة التفريق بين المنطق والميتودولوجيا كما هو الشأن عند "جول تريكو" "***Tricot***" الذي عرّف الميتودولوجيا كالآتي: « واليوم يميّز الناس بصفة عامة، بين المنطق الصوري وعلم المناهج، فعلم المناهج هو علم مطابقة الفكر لموضوعاته، وهو يشمل مجموع المناهج والطرق التي يمكن تطبيقها على العلوم الخاصة، سواء أكانت عقلية أو تجريبية»"[101]"، ولكن ما تجب الإشارة إليه هنا، هو أن الميتودولوجيا سواء كانت فرعا عن المنطق أو لا، هي علم له أصوله وقوانينه كما له أهميته وأثره في العلوم كلّها؛ لأنّه علم يبحث في المناهج القائمة التي توظفها سائر العلوم على تنوعها واختلافها من أجل الوصول إلى تحقيق مطالبها التي هي القوانين المصاغة في شكل قضايا كلية"[102]". والحاصل هو أنّ الميتودولوجيا أو علم المناهج عموما عبارة عن دراسة المبادئ التقنية ومناهج البحث في

---

[99]- **جول تريكو**، المنطق الصوري، ترجمة محمود اليعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1992، ص24.

[100]- ينظر، **محمد وقيدي**، الإبستمولوجيا التكوينية،ص ص211-212.

[101]- **جول تريكو**، المنطق الصوري،ص ص23- 24.

[102]- ينظر، **محمود يعقوبي**، معجم الفلسفة، ص170.

أيّ علم من العلوم المتحققة فعلا"[103]". أي: هو علم يتناول بالدراسة والفحص والنقد الطرق والمناهج المعتمدة في العلوم قصد الكشف عن نقائصها"[104]" والخلل الذي يصيبها.

سبقت لنا الإشارة إلى أنّ العلاقة القائمة بين الإبستمولوجيا والمنطق في ناحية، وبينها وبين الميتودولوجيا في ناحية أخرى لم تخرج عن علاقة التقاطع؛لذا- ولمزيد من الإيضاح- نقول: إنّها كذلك حتى عند من قال بأنّ الإبستمولوجيا والميتودولوجيا والمنطق، هي علوم مستقلة عن بعضها؛ لأننا عند التحقيق والتدقيق نجد خلف هذا التمايز بين هذه العلوم تقاطعا وتداخلا كبيرين وواضحين، للالتقاء الحتمي بين هذه العلوم الثلاثة في نقاط بحث كثيرة ومشتركة، وهو ما يؤكد على صحة التقاطع بينها جميعا، ولكن دون الحكم بالتطابق التام فيما بينها، كما هو الأمر في التقليد الفرنســـي خاصة عند "أوغست كونت" "وغاستون باشلار" و"جورج كينغيلام"؛ إذ هؤلاء لا يقيمون تمييزا- على حدّ تعبير جوليا كريستيفا- واضحا بين الإبستمولوجيا والميتودولوجيا تحديدا، والحال نفسها نجدها عند بعض الكتّاب والفلاسفة الأنجلوساكسونيين من أمثال "باب ***Pap***"، "وكابلان ***Kaplan***""[105]".

هذا وتستند الإبستمولوجيا إلى الميتودولوجيا بشكل واضح في مسألة البحث عن القيمة العلمية والموضوعية للعلوم، وكذا في البحث عن طبيعة المبادئ التي أُسست عليها، وهنا بالضبط يتقاطع العلمان؛ لأنّ الدّراسة النقدية التي تقوم بها الإبستمولوجيا قصد الوصول إلى الموضوعية والدّقة العلمية، لا يمكن لها أن تقوم كما هو مطلوب لدى علماء الإبستمولوجيا دون البحث والتساؤل في الوقت نفسه عن طبيعة وحقيقة الطرق والمناهج التي تنبني بها وعليها العلوم المختلفة، وهذه هي المهمة الرئيسية للميتودولوجيا"[106]".

وبهذا المعنى تكون الإبستمولوجيا مرتبطة بالميتودولوجيا من ناحية دراستها لمناهج العلوم، ليس من الزاوية الوصفية التحليلية فقط، بل أيضا من زاوية نقدية وتركيبية خاصة"[107]"، وعليه يرى بعض المهتمين بالعلوم إبستمولوجياً ومنهجياً أن توضع الميتودولوجيا داخل

---

[103] -*Voir :* ***J.Kristeva****. Les Epistémologies de la linguistique. P03.* ***Et Didier Julia*** *: Dictionnaire de la philosophie. P173.*

[104]- ينظر، **أحمد ملاّح**، المختصر في تاريخ الإبستمولوجيا، ص ص16-17.

[105] - *Voir* ***: J.Krestiva****. Les Epistémologies de la linguistique. P.03.*

[106]- ينظر، **روبير بلانشي**، الإبستمولوجيا، ص27.

[107]- ينظر، **إسماعيلي علوي، أمحمد الملاّخ**، قضايا إبستمولوجية في اللّسانيات،ص ص 24-25.

الإبستمولوجيا"[108]"أيّ: إنّها محتواة في الإبستمولوجيا وجزء منها، يقول أحمد ملاّح موضحا حقيقة هذه العلاقة المتداخلة بينهما ما يلي: «والحقيقة أنه يصعب على الباحث في الإبستمولوجيا أن ينتقد النتائج والفرضيات دون أن ينتقد ويبحث في الطرق والأساليب التي اعتمدتها العلوم في إنجاز النتائج وتقريرها الحقائق، لذلك للمنهج أهمية بالغة في تقرير النتائج... »"[109]"، خاصة إذا علمنا أنّ المشاكل التي تقع فيها العلوم، أو تلك التي تواجهها، تنبع أكثر من النقائص والفجوات الفكرية والمنهجية التي تصيب المناهج العلمية عموما، ودليل ذلك هذا الكمّ الهائل من الطرق البحثية المتنوعة، والتي هي دائما خاضعة للدّراسة الفاحصة وللاختبار النّقدي بغرض تعديلها، وتطويرها، وتجاوز نقائصها المربكة للنّشاط العلمي ومسيرته التقدمّية؛ وهو ما يفسّر التصاق الميتودولوجيا بالإبستمولوجيا في جانب، وكونها حلقة وصل أساسية تربط الإبستمولوجيا بعلوم أخرى مثل المنطق في جانب آخر، كما سيأتي.

وهكذا، فإن ما يمكن استخلاصه هو أن الإبستمولوجيا إذا كانت جزءا من نظرية المعرفة فهي- في نظر الجابري مثلا- أعمّ من الميتودولوجيا وأعمق منها بكثير؛ لأنّ الميتودولوجيا عملها ينحصر في الدّراسة الوصفية التحليلية للمناهج العلمية، في حين أن الإبستمولوجيا تكون أعمّ من ذلك لأنّها علم طامح لأن يكون في مستوى أعلى من النقد العلمي"[110]".

أمّا فيما يتعلق **بعلم المنطق**، فإنّ علاقة الإبستمولوجيا به يمكن أن تطرح من جانبين بارزين: **أوّلهما**: جانب الفواصل أو الفوارق التي تميّز المنطق عن الإبستمولوجيا، **وثانيهما** جانب التقاطع والتداخل القائم بينهما.

ففي الجانب الأول يكون الفارق جليّاً جدّاً بين المنطق والإبستمولوجيا؛ لأنّ الأمر يرتبط بنوعية وطبيعة الموضوعات التي يهتم بها المنطق في جهة والإبستمولوجيا في جهة أخرى؛ إذ إنّ الموضوع الرئيس للمنطق هو البحث في صلاحية المعارف من الناحية الصورية المجردة، وهو ما جعل المنطق علما قادرا على أن يرسم له حدودا خاصة به تعيّن مجال اشتغاله، ولهذه الحدود

---

[108]- ينظر، **المرجع نفسه**، ص28.

[109]- **أحمد ملاّح**، المختصر في تاريخ الإبستمولوجيا،ص ص16-17.

[110]- ينظر، **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم،ص ص22-23.

جذور تاريخية ضاربة في القدم، تعود إلى عهد أرسطو باعتباره الواضع الحقيقي والأول لعلم المنطق"[111]".

بناءً على ذلك لا يمكن اعتبار الإبستمولوجيا تابعة لعلم المنطق، كما لا يمكن عدّ المنطق تابعا للإبستمولوجيا، يقول في ذلك محمد وقيدي ما يلي: « لا يمكن... إرجاع الإبستمولوجيا إلى المنطق أو العكس؛ إذ من غير المقبول... اختزال شروط المعرفة العلمية في الشروط الصورية التي يدرسها المنطق»"[112]"؛ لأنّ شروط المعرفة العلمية التي تسعى إلى تحقيقها الإبستمولوجيا تشمل الشروط المنطقية والمنهجية، وكذلك الشروط التاريخية والاجتماعية والنفسية، وعليه فالشروط الصورية التي يبحث فيها المنطق لا تمثل شروط المعرفة العلمية كلّها، ومن هنا يظهر التمايز الواضح بين المنطق والإبستمولوجيا ويظهر- بمقابل ذلك- عدم قدرة الإبستمولوجيا على تحقيق أهدافها دون الاستناد على علوم أخرى، والتي لها أهميتها، كتلك التي أشرنا إليها.

ولكنّ هذا لا يعني أنّ الممارسة الإبستمولوجية تلغي الجانب الصوري من ميدانها البحثي؛ بل مما لا يمكن الشك فيه هو أنّها تعنى أيضا بدراسة البنيات الصورية التي هي من اهتمام المنطق، وفي هذا دليل قاطع على أن المنطق والإبستمولوجيا يتقاطعان، وبينهما نقاط بحث مشتركة، وعليه، فالبنيات الصورية تشكّل موضوعاً مشتركاً وجامعاً بينهما"[113]"، وهذا هو الجانب الثاني المتمثل في تقاطع الإبستمولوجيا مع علم المنطق.

هنا بالضبط تبرز حقيقة الارتباط بينهما، فالإبستمولوجيا ترتبط بالمنطق من حيث هي مثله تهتم أيضا بدراسة شروط المعرفة الصحيحة بغض النظر عن كونها صورية أو غير ذلك، ولكنّها في ناحية أخرى تختلف عنه لكون المنطق يتجه في بحثه صوب صورة المعرفة فقط، أما الإبستمولوجيا فإنها من جهتها تتجه نحو بحث ودراسة المعرفة العلمية شكلا ومضموناً أو مادةً وصورة"[114]"؛ لأنّ العمل على تحقيق قدر كبير من الموضوعية العلمية والصرامة المنطقية في الممارسة الإبستمولوجية يتطلب الاعتماد على مشاركة واسعة من جهة العلوم المتقاطعة معها،

---

[111]- ينظر، **محمد وقيدي**، الإبستمولوجيا التكوينية،ص ص209-210.

[112]- المرجع نفسه، ص210.

[113]- ينظر، المرجع السابق، ص213. وينظر أيضا*Dictionnaire Encyclopédique de psychologie- T1. p441*

[114]- ينظر، **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم.ص48.

وكذلك ضرورة استثمار الإبستمولوجيا للنتائج المتحصّل عليها في تلك العلوم وتفعيلها، والمنطق بمقدوره القيام بهذه المساهمة في تحقيق ما تطمح إليه الإبستمولوجيا ويدفع بها قدما نحو المزيد من التقدّم والتطور على الصعيدين المنهجي والمعرفي.

إنّ الالتفات إلى العلوم المجاورة للإبستمولوجيا وتمتين العلاقة بينها وبين تلك العلوم يعدّ مساهمة فعّالة وقويّة في بناء المعرفة العلمية وتقويتها، ومادام الأمر كذلك فللمنطق دور بارز وحضور قوي في دعم الإبستمولوجيا من ناحية الشروط الصورية للمعرفة العلمية"[115]"؛ لأن الأمر لا يكتمل من غير وجود المنطق، والنتائج التي تحققت فيه، مع وجوب الاعتقاد بأنّ ما يقدّمه المنطق لا يعدو أن يكون جزءا أو بعضا ممّا تحتاجه الإبستمولوجيا، وهذا بدوره يدلّل على عدم النّظر إلى المنطق والإبستومولوجيا على أنهما علم واحد أو أنّ المنطق تابع للإبستمولوجيا أو هي تابعة للمنطق، كما تقدّم.

انطلاقا ممّا سبق يمكن القول بأنّ بين الإبستمولوجيا والمنطق جوانب مشتركة، وأكثر ما تكون جلية في الموضوع المشترك بينهما، وهو المعرفة العلمية عموما، فهذا ما يجعلهما متكاملين، يقول محمد وقيدي في ذلك: « إنّ الجوانب المشتركة بين موضوعيهما تجعلهما متكاملين داخل المنهج،... الذي تتبعه الإبستمولوجيا العلمية... فالأمر... يتعلق بعلمين...متقاطعين يتبادلان الفوائد رغم تمايزهما... فهما بمثابة دائرتين متقاطعتين تشكّل صلاحية المعارف مساحة التقاطع بينهما، ودراسة التقاطع بينهما تعني دراسة التفاعل بينهما ضمن»"[116]" الحيز المشترك بينهما.

والخلاصة العامة التي نخرج بها هي أن الإبستمولوجيا والمنطق، والميتودولوجيا علوم متقاطعة،وبينها روابط ونقاط مشتركة، وهي أيضا علوم متكاملة مع بعضها، فالإبستمولوجيا بحاجة إلى الميتودولوجيا والمنطق، والمنطق من جهته بحاجة إلى الإبستمولوجيا، كما أنّ الميتودولوجيا هي الأخرى محتاجة إلى الإبستمولوجيا، فهذه العلوم الثلاثة تدخل في علاقة وطيدة فيما بينها؛ لأنّ الشروط المنهجية أمر ضروري بالنسبة للإبستمولوجيا، كما أن الشروط المنطقية أيضا

---

[115]- ينظر، **محمد وقيدي**، الإبستمولوجيا التكوينية،ص ص210-211 وص213.

[116]- المرجع نفسه، ص ص216-217.

ضرورية لها، فهذه العلوم الثلاثة تشكّل معاً « ميادين متداخلة في دراسة المعرفة»"[117]" العلمية بشكل عام.

2-4- علاقة الإبستمولوجيا بتاريخ العلوم:

من الأمور التي لا مجال للشك فيها هي أن العلم على الرّغم ممّا وصل إليه من تطور وازدهار كبيرين في شتى الميادين المعرفية، إلاّ أنّ هذا التطور والازدهار لا يمكن الوقوف على فهم دقيق لحقيقتهما دون الكشف عن الأسباب الكامنة وراء ذلك، وهذه الأسباب بدورها لا مجال لمعرفتهما بشكل واضح ما لم يتمّ تسليط الضوء على أهم السياقات التاريخية المحيطة بذلك كلّه، وكيف أثّرت في تغيير المفاهيم العلمية وتنميتها، وهكذا يتحقق تقدّمها، وهذا أمر مرهون بدرجة حضور الجانب التاريخي للعلم بوصفه ركناً لا غنى عنه في الممارسة العلمية التي تروم حصر كلّ ما يتعلق بالعـــلم أو ما يتصل به، وهنا تبرز أهمية تاريخ العلم بالنسبة للعلم عموماً، ولنقده إبستمولوجياً خصوصاً، باعتبار أنّ العمل النّقدي الإبستمولوجي هو عمل لا ينفك يفيد ممّا يقدّمه تاريخ العلم من نتائج علمية.

بَيْد أنّنا قبل الشروع في الحديث عن أهمية تاريخ العلم وعن علاقته بالإبستمولوجيا، يتوجب علينا أن نشير أولا إلى ما المقصود من مصطلح تاريخ العلوم، يقول الجابري في ذلك: « إنّه التاريخ الذي يساعد على تبيّن أسس الفكر العلمي، والذي يعتمد المنهج التاريخي النقدي، ويهدف إلى دراسة التيارات الكبرى للفكر العلمي،... هذا النوع من تاريخ العلم يدخل كما يقول بوترو فيما يمكن أن نطلق عليه "التاريخ الفلسفي للعلم"، التاريخ الذي يربط الاكتشافات أو التيارات العلمية لا بمختلف الفلسفات الميتافيزيقية التي استندت عليها، بل بالفكر العلمي، وبتطور العلم ذاته»"[118]"، ويواصل الجابري نقله عن بوترو قائلا: « فهو المقدمة الطبيعية لفلسفة العلوم»"[119]".أو هو ذلك التاريخ الذي يدرس تكوّن الفرضيات والمفاهيم العلمية، وتحوُّلها، وتدافعها عبر الزمن من جهة، ويدرس كذلك أشكال التنافس بين الفاعلين من جهة

---

[117]- المرجع السابق، ص209.

[118]- **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم، ص42.

[119]- المرجع نفسه، ص42.

أخرى"[120]". ولكي نعطي المسألة حقّها يحسن بنا أن نقدّم تعريفاً آخر ينظر إلى تاريخ العلم من زاوية علاقته بالمجتمع الإنساني، فهو عبارة عن « عملية ديناميكية كنشاط اجتماعي مطرد التطور في الزمان... إنّه إنجاز اجتماعي مادي تقاني، وإنجاز فكري متطور، ويخلق إطارا ثقافيا اجتماعيا متجدّدا، ويتجلى هذا على مدى تاريخ البشرية من حيث إنّه إنجاز تفرّد به البشر في صورة حركة جدلية بين النشاط العلمي والمعرفي، وبين الوعي الاجتماعي»"[121]".

وحرصا على ألاّ ننساق وراء سرد التعريفات والتحديدات الكثيرة والمتنوعة المشارب لمعنى تاريخ العلوم، يمكننا أن نحمل ما سبق ذكره بما قدّمه جورج كانغيلام حول معنى تاريخ العلوم كونه أحد الأقطاب البارزين الذين اعتنوا بدراسة القضايا العلمية تاريخيا، وبيان تأثير التاريخ في ذلك، يقول في سياق حديثه عن معنى تاريخ العلم ما يلي: « ويستطيع تاريخ العلوم بلا ريب أن يميّز وأن يتقبّل مستويات عديدة من المواضيع في المجال النّظري المخصوص الذي يكوّنه؛ وثائق يبوّبها، أدوات وتقنيات يصفها، مناهج ومسائل يؤولها، مفاهيم يحلّلها وينقدها. وإنّ هذه المهمة الأخيرة وحدها هي التي تسبغ على المهام التي قبلها أهلية تاريخ العلوم... »"[122]"، والخلاصة التي يخرج بها كانغيلام هي أنّ تاريخ العلوم ليس هو « تاريخ الأدوات أو الأكاديميات... إلاّ إذا وضعناها في استعمالاتها ومصائرها في علاقة بالنّظريات»"[123]".

وعلى كلّ حال، فالذي يُهمنا ليس هو التعريفات الخاصة بتاريخ العلوم بحدّ ذاتها، بقدر ما يهمنا الموقع الذي تتخذه الإبستمولوجيا من تاريخ العلوم، فهل من علاقة موجودة بينهما أم إنّ الأمر بخلاف ذلك؟ وعلى فرض وجودها، فما هي طبيعة هذه العلاقة الجامعة بين تاريخ العلوم والإبستمولوجيا؟.

يمكننا أن نبادر بالقول بأنّ بين الإبستمولوجيا وتاريخ العلوم علاقة قوية ومتينة أيضا، ويتضح ذلك من أهمية كلّ علم بالنسبة للآخر، أي: إنّ للإبستمولوجيا دورا بارزا في تنشيط

---

[120]- ينظر، **بناصر البعزاتي**، خصوبة المفاهيم في بناء المعرفة، دار الأمان الرباط، المغرب.ط01/2007،ص ص20-21.

[121]- **جون غريبن**، تاريخ العلم (1543-2001) تر: شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، 2012، ج10/ص07 (مقدمة المترجم).

[122]- **جورج كانغيلام**، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها.ص51.

[123]- المرجع نفسه.ص51.

وتفعيل تاريخ العلوم، كما أنّ لتاريخ العلوم دوره البارز والأساسي في الرّفع من مستوى البحوث الإبستمولوجية نحو مزيد من اليقين والدّقة في الطرح، والممارسة النقدية؛ « لأنّ المشكلة العلمية تتطور ضمن بعدٍ تاريخي غير مرسوم سلفا، تتطور على مستوى الطرح، والتحليل، وعلى مستوى الحلّ من خلال الفشل والمحاولة المتكررة، والمنعرجات غير المتوقعة...أي: تتطور عبر جدلية تاريخية أساسية لابّد من أن تمدّ آثارها إلى التفكير الإبستمولوجي ذاته، الذي ينظر في المشكلات العلمية وفي تاريخيتها»"124".

إنّ الأمر هنا يتعلق بالتعاون المتبادل بين الحقلين؛ إذ إنّ تاريخ العلم يقوم بتسجيل مسيرة التطور العلمي مراعيا في ذلك كلّه الثورات والانقلابات والنقلات العلمية التي عرفتها تلك المسيرة، في حين نجد الإبستمولوجيا من جهتها تتكفل بدراسة ما تمّ جمعه، كونه صار شيئا قائماً"125" وثابتاً، وقابلا للنقد والتوجيه والتمحيص؛ ففي هذا الإطار تحديدا تتجلى جهود كلٍّ من المؤرخ والإبستمولوجي.

فالفائدة التي تجنيها الإبستمولوجيا- بناء على هذا الأساس- هي أن تتمكن من العودة بالأفكار والنظريات والمفاهيم والفرضيات العلمية إلى لحظاتها الأولى التي أوجدت فيها، فتحديد المنبت الأول، أو السياق التاريخي الأول الذي تكوّنت فيه العلوم هو عمل ليس بمقدور الإبستمولوجيا أن تقف عليه من دون اللّجوء إلى تاريخ العلوم الذي يمدّها بذلك؛ لأنّ المهمة الرئيسية التي نيط بها تاريخ العلوم تبدأ من اللحظة الأولى التي برز فيها هذا المفهوم العلمي أو ذاك، وهذه النظرية أو تلك في أيّ مجال من مجالات المعرفة البشرية.

وعليه، « فإنّ ما يهمّ الإبستمولوجيا من تاريخ العلوم هو تطور المفاهيم، وطرق التفكير العلمية، وما ينشأ عن ذلك من قيام نظريات معرفية جديدة»"126". فالإبستمولوجيا من هذا المنطلق تكون مرتبطة بتاريخ العلوم، ولكنّها لا تدرس تاريخ العلوم لذاته ومن أجل ذاته؛ بل من زاوية كونه مسلسلا لنمو الفاعلية البشرية الفكرية بوجه خاص، والتي هي عبارة عن تحقيق

---

[124]- **محمد هشام**، تكوين مفهوم الممارسة الإبستمولوجية عند باشلار، دار أفريقيا الشرق، المغرب، ط2006، ص193.

[125]- ينظر، **نبيل علي**، العقل العربي ومجتمع المعرفة، ص ص 304.303.

[126]- **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم.ص42.

إمكانيات الذات في فهم العالم وتغييره"[127]"، وينتج عن هذا أنّ تاريخ العلوم المقصود هنا، ليس هو التاريخ الذي نعهده، بل هو في الأساس تاريخ فلسفي محض؛ لأنّ الأمر في هذا السياق يختص بالطريقة التي بها نتصوّر المفاهيم العلمية وكذلك طرق التفكير العلمي والكيفية التي بها تطورت، أو بعبارة أخرى؛ ضرورة معرفة طبيعة هذا التطور الذي يصيب المفاهيم والنّظريات العلمية وتشخيصه، من حيث هو تطور متصل أم تطور منفصل أو منقطع"[128]"، فالأفضلية التي يحظى بها تاريخ العلوم هي كونه يبرز لنا «الترابط القوي بين تطور العلوم في مجموعها ويجعلنا ندخل عامل التأثير المتبادل بين العلوم»"[129]" باعتباره عاملا مؤثرا في تشكل المفاهيم وتكوّنها.

فدراسة هذه الكيفية هي إحدى المباحث الرئيسة التي تشترك فيها الإبستمولوجيا وتاريخ العلوم وبها أيضا يتضح التكامل والترابط بينهما، يوضح الجابري ذلك بقوله: « إنّ المهم ليس هو هذه الإرهاصات أو الملاحظات المعزولة اليتيمة؛ بل المهم-بالنسبة إلى البحث الإبستمولوجي- هو معرفـــة كيف أصبحت هذه الملاحظة أو ذاك الاكتشاف جزءا من بنية فكرية أو عضوا أساسيا من عناصرها. فليس المهم هو ظهور الاكتشافات المنهجية أو العلمية ظهور البرق هنا أو هناك، بل المهم هو التيارات الجديدة التي تنشأ عنها...إذن... المهم هو النظر إلى التطورات العلمية في سياقها التاريخي بقطع النظر عن الأشخاص والأوطان»"[130]"التي ظهرت فيها.

لذلك فالعودة إلى مراجعة السياق الذي وجدت فيه العلوم ومفاهيمها أمر هام ومطلب ضروري جدا، إذ به يتمكن العالم الإبستمولوجي أن يضيء الكثير من المحطات المظلمة والغامضة في المسيرة التقدّمية التي قطعها العلم عموما، بناء على ذلك يكون من الصعب- على حدّ قول روبير بلانشي- أن نقيم فصلا تاما بين الإبستمولوجيا وتاريخ العلوم"[131]"، أي: إنّنا

---

[127]- ينظر، **إسماعيلي علوي، وأمحمد الملاخ**، قضايا إبستمولوجية في اللّسانيات ص24.

[128]- ينظر، **روبير بلانشي**، الإبستمولوجيا، ص ص44-45. **ومحمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم، ص42.

[129]- **محمد وقيدي**، الإبستمولوجيا التكوينية، ص179.

[130]- **محمد عابد الجابري**،مدخل إلى فلسفة العلوم، ص ص41-42.

[131]- ينظر، **روبير بلانشي**، الإبستمولوجيا، صص43، 44، 45. وينظر أيضا:

Dictionnaire Encyclopédique de psychologie. T1, p441

لا يمكننا أن نعدّهما علمين مستقلين عن بعضهما، ولا تجمع بينهما علاقات؛ بل الواقع العلمي يشهد بأنّهما علمان متداخلان ومتقاطعان، وهذا التداخل والتقاطع لا يفسران إلاّ بتفسير واحد هو أنّهما متكاملان، يتمّم أحـــدهما الآخر كما أنّ هذا التكامل لا ينبغي أن يفّهم منه أن الإبستمولوجيا هي تاريخ العلوم، وأنّ تاريخ العلوم هو الإبستمولوجيا؛ لأنّ التكامل والتقاطع لا يدّلان على التطابق التام بينهما.

إنّ الإبستمولوجيا وتاريخ العلوم يتبادلان الفوائد؛ لأنّ كلاّ منهما « يدرس تطور المفاهيم العلمية، ويبحث في عوامل تشكلّها من نقطة انطلاق متماثلة ومتوازية، ولكنّها غير متطابقة»"[132]" هذا في جانب، وهناك جانب آخر وهو أنّهما يتراجعان، إلى الخلف بحثا عن جذور أولى للعلوم متماثلة متوازية ولكنّها أيضا غير متطابقة"[133]"تماما، لذلك فالعلاقة التي تجمع بين تاريخ العلوم والإبستمولوجيا هي علاقة متداخلة جدا ومتشابكة أيضا يتعذر فيها فرز أحد العلمين عن الآخر.

2- 5- علاقة الإبستمولوجيا بعلمي الاجتماع والنّفس:

إنّ الموضوع الرئيس الذي تشتغل عليه العلوم الإنسانية هو دراسة الإنسان وما يصدر عنه من تصرفات وسلوكات فردية تقتصر على كل فرد مع نفسه، أو ما يصدر من سلوكات جماعية نابعة من بيئة معينة لها خصوصياتها الاجتماعية والثقافية، فالمستوى الأول هو ما يهتم به علم النّفس، أما المستوى الثاني فهو من اختصاص علم الاجتماع.

ليس غرضنا في هذا السياق البحث في طبيعة العلوم الإنسانية وتحديدا علمي النفس والاجتماع، ولا البحث في نوعية المناهج المتبعة فيهما، ولكنّ المغزى هنا ينحصر في تعيين والكشف عن العلاقة التي تربط الإبستمولوجيا بالعلوم الإنسانية عموما، ولعل الصورة الأكثر وضوحا وجلاء في ذلك هي علاقة الإبستمولوجيا بعلمي النفس والاجتماع؛ لذا سنركّز نظرنا تجاه هذين العلمين الهامين دون التطرق إلى فروع أخرى من علوم الإنسان مثل الثقافة والاقتصاد، والتاريخ وغيرها؛ لأنه بات من المسلّم به أن علم النفس وعلم الاجتماع لا يخلوان

---

[132]- **محمد وقيدي**، الإبستمولوجيا التكوينية، ص ص188-189.

[133]- المرجع نفسه، ص ص188-189.

من روابط وتقاطعات بين المنطلقات الفكرية والعلمية التي بنيا عليها، والممارسة النقدية المستمرة لتلك المنطلقات، والتي هي ذاتها الممارسة الإبستمولوجية.

بناءً على ما تقدم ستكون الصلة التي تجمع بين الإبستمولوجيا - باعتبارها دراسة نقدية لمبادئ العلوم- والعلوم الإنسانية لا تختلف في جوهرها عن العلاقة التي تجمعها بالعلوم الدقيقة والطبيعية"[134]"، مثل الرياضيات والفيزياء والبيولوجيا وغيرها، ذلك أن العلوم الإنسانية تقدّم للإبستمولوجيا مادة خصبة صالحة للنقد؛ لأن العلوم الإنسانية بطبيعتها مؤسسة على شروط تاريخية وثقافية اجتماعية، ونفسية، ودينية وإيديولوجية ولغوية أيضا، وهذه كلّها تجعلها مادة غنية بالكثير من الآراء والفرضيات والمبادئ والتصورات القابلة للفحص العلمي الدقيق، ودليل ذلك هو هذا الكم المعتبر من النظريات المختلفة والمتنوعة، التي تزخر بها العلوم الإنسانية بشكل عام، فهي إذا بهذا المعنى عنصر هام وأساسي في تنشيط الممارسة الإبستمولوجية النقدية، وتفعيلها بخاصة في علمي النّفس والاجتماع، وهو ما سنتطرق إليه بشيء من التفصيل:

أما **علم النّفس** ففروعه متعدّدة وأكثر ما تندرج الإبستمولوجيا وتتقاطع مع هذا العلم في الفرع الذي اصطلح عليه بعلم النفس التكويني؛ لأنه يعتمد في تحليل النفس الإنسانية على دراسة مراحل تكوّن الفكر، وبالتالي فهو منهج علمي يسمح لنا بالكشف عن نشأة التفكير خلال مرحلة التكوين العقلي عند الفرد"[135]"، وخاصة عند الطفل كما يؤكد على ذلك "بياجي ***Piaget***" باعتباره أحد أكبر المؤسسين البارزين لهذا العلم الذي أنشأ له إبستمولوجيا خاصة به، أطلق عليها اسم: الإبستمولوجيا التكوينية.

وإذا ما عدنا إلى النقطة المبدئية التي تنطلق منها الممارسة الإبستمولوجية في عملية نقدها للعلوم المختلفة، فإننا نجدها تتخذ لها مسارا تطوريا في كثير من الأحيان؛ لأنّ موضوعها الجوهري والمباشر هو دراسة المعرفة العلمية عبر مراحلها التطورية، أي: من زاوية سيرورتها وانتقالها من حالة أدنى إلى حالة أسمى منها، وهذا هو المنهج ذاته الذي اتخذه علم النفس التكويني في تتبعه لنمو المعرفة لدى الإنسان، فهو منهج يبحث عن الجذور الأولى للمعرفة

---

[134]- ينظر، **روبير بلانشي**، الإبستمولوجيا، ص28.

[135]- ينظر، **ملاح أحمد**، المختصر في تاريخ الإبستمولوجيا، ص[96].

الإنسانية"[136]"، وعليه ستكون الروابط والصلات قوية جدا بين الإبستمولوجيا وعلم النفس عامة، والتكويني بخاصة.

وها هنا جانب آخر تبرز فيه العلاقة بينهما، وهو أن الإبستمولوجيا تسعى جاهدة للبحث عن العوامل المختلفة المسهمة في تشكيل المعرفة الإنسانية، وكذلك في الكيفية التي بها تنتقل من وضع إلى آخر"[137]"، ولا يخفى أنّ للعوامل النفسية حضورها القوي والفاعل في ذلك، بل هي من ضمن العوامل المساعدة في تشكيل وتكوين المعرفة العلمية، فحاجة الإبستمولوجيا إلى علم النفس بشكل عام أمر ضروري وواضح جدا؛ لأنّ هدف الإبستمولوجيا في سياق نقدها للمنطلقات الأولية للعلوم هو الوقوف على المنابت الأولى البسيطة التي منها تكوّنت العلوم وأخذت هيئتها التي هي عليها. فالواجب على العالم الإبستمولوجي أن يراعي أهمية تدخل هذه الإسهامات المتأتية ليس من علم النفس وحسب، بل منه ومن علم الاجتماع والتاريخ وغيرها؛ لأنّها تعد آليات مساعدة على إنجاح ما تصبو إليه الإبستمولوجيا من دقة وموضوعية وشمولية، ناهيك عن الاستقلالية، باعتبارها علم العلوم قاطبة.

وبيّن ممّا تقدم أن الإبستمولوجيا لا يكفيها أن تعتمد على العلوم الدقيقة وحدها في تشييد صرحها العلمي المتين، بل للعلوم الإنسانية الدّور البارز والفعّال والمشاركة القوية في ذلك، وفي مقدمتها علم النّفس؛ لأنّ المعرفة العلمية لا يمكن أن تتجاهل فيها شروطها النّفسية والاجتماعية والتاريخية التي تؤثر في تكوينها، إذا ما أريد للإبستمولوجيا فعلا أن تصير علما مستقلا له حدوده ومجاله، « وقائما على الملاحظة والفرضيات القابلة للمراقبة المتبادلة بين العلماء»"[138]"كباقي العلوم الأخرى.

فالعلاقة بهذا الاعتبار بين الإبستمولوجيا وعلم النفس هي علاقة طبيعية، وبيّن أيضا من هذه العلاقة أنّ العلمين يتكاملان"[139]"؛ إذ لا الإبستمولوجيا بمقدورها الاستغناء عمّا يقدّمه

---

[136]- ينظر، **محمد وقيدي**، الإبستمولوجيا التكوينية، ص[222].

[137]- ينظر، المرجع نفسه، ص ص222-223.

[138]- المرجع السابق،ص221.

[139]- ينظر،المرجع السابق نفسه، ص222. وص258، وينظر أيضا:

علم النفس من مادة بحثية، كما أن علم النّفس ليس بمقدوره أن يطوّر بحوثه ومناهجه دون العودة إلى الممارسة النقدية التي تتفرد بها الإبستمولوجيا، والتي بها يحصل للعلوم التوجيه الصائب والموضوعي، الخالي من الخلفيات الذاتية المثبطة للمسيرة التقدمية للعلوم المختلفة.

بقدر ما كانت الشروط النفسية ضرورية وأساسية في تكوين المعرفة العلمية، فإنّنا نجد – بمقابل ذلك- للشروط الاجتماعية أيضا دورها البارز والجوهري في تشكيل المعرفة العلمية ونمائها، ذلك أن لعلم الاجتماع قسط كبير في دعم الإبستمولوجيا الباحثة عن المنطلقات الأولى التي منها تكوّنت العلوم، باعتباره علما أساسيا ويحظى بقيمة كبيرة في منظومة العلوم الإنسانية، فهو لا يقل أهمية عن علم النفس؛ لذا فالإبستمولوجيا تحتاج إلى دعم من علم الاجتماع؛ لأن تحليل العلوم إبستمولوجيا يتطلب مراعاة العوامل الاجتماعية كما هو الحال في مراعاة العوامل النفسية والتاريخية والثقافية؛ لأنّ الاستعانة بنوع خاص من التفكير العلمي لا يفي بالغرض لعدم كفاية ذلك، فكانت العودة إلى العلوم الإنسانية وعلم الاجتماع أحدها، أمرا محتما على الإبستمولوجيا وهي تحلل العلوم التحليل العلمي المؤسس على مبدإ النقد.

وليس يخفى أن لعلم النفس علاقة قوية ومتداخلة جدا **بعلم الاجتماع**؛ لأنّ الحديث عن علم النفس هو بمعنى أو بآخر حديث عن ذات إنسانية تمارس نشاطا معرفيا، وهو ما يعني من جانب ثان أن هذه الذات الإنسانية لم تكن يوما بمعزل عن العلاقات الاجتماعية التي تتحرك فيها، وتمارس نشاطها المعرفي في خضمّها، وبالتالي فالذات جزء مهم ومندمج في وسط اجتماعي محيط بها، وهنا بالتحديد يتجلى البعد الاجتماعي للمعرفة عموما، وهنا أيضا تتشكّل العوامل الاجتماعية وتأخذ صورتها وموقعها، وهكذا تتعين قيمتها وأهمية إسهامها في تطوير المعرفة العلمية؛ لأنّ « كلّ هذا يجعل العوامل المجتمعية تنفذ إلى تكوين المعارف، وهذا ما يجعل الإبستمولوجي أمام ضرورة تجاوز المعايير الصورية للمعرفة؛ للاعتماد على ...أثر العوامل المجتمعية في تكوّن المعارف والتواصل بها... »"[140]".

إذا، واضح ممّا سبق، أنّ فهم تأثير العوامل الاجتماعية في تشكيل المعرفة العلمية يكون مشروطا بضرورة التأكيد عليها وعدم التغاضي عن إدماجها في بناء المعرفة"[141]"، أو تجاهل قوة

---

[140]- **محمد وقيدي**، الإبستمولوجيا التكوينية،ص ص260-261.

[141]- ينظر، المرجع نفسه ص ص192-193.

حضورها ودرجة فاعليتها في ضمان سيرورة المعرفة الإنسانية عموما والعلمية خصوصا؛ لأنّ هذا ممّا لا يمكن أن يتصوّر؛ لأنّ العنصر الأساسي الذي تقوم عليه المعرفة هو الذات الإنسانية والتي- كما سبق وأن قلنا- هي ذات لا يمكن أن توجد بعيدة عن المجتمع باعتباره الجامع للذوات الإنسانية ضمن إطار من العلاقات المنظمة والمنسقة.

فالعمل التحليلي والنقدي الذي تتبناه الإبستمولوجيا مرهون بالعوامل الاجتماعية كما هو مرهون كذلك بالعوامل النفسية والمنطقية الصورية، والتاريخية، والبيولوجية، والفلسفية واللغوية وهذا أمر طبيعي إذا نظرنا إلى الإبستمولوجيا على أنّها تسعى إلى أن تتبوأ قمّة العلوم منهجيا ومعرفيا، وذلك بإدراجها تحتها العلوم كلها، كي تصير بحقّ علم العلوم.

وكلّ ما في الأمر هو أن الإبستمولوجيا لا يمكن أن تبقى في تحليلها للعلوم حبيسة لغة العلم كما دعت إلى ذلك الوضعية المنطقية، الممثلة في حلقة فيينا، لأنّه لا يكفي للإبستمولوجيا أن تحقق مزيدا من التقدّم والصرامة والدقة العلمية وهي تنظر تجاه لغة العلم دون الاهتمام بالعلوم التي « تتعلق بالبناء التدريجي للعلم ونشأة تطور الروح العلمية، وهي أبحاث من الضروري اللّجوء فيها إلى علوم الإنسان»"[142]"، التي تربطها علاقة وطيدة بالإبستمولوجيا، بل هي عند التأمل نجدها علاقة متداخلة جدا، ومع علمي النّفس والاجتماع أكثر.

3- الإبستمولوجيا اللسانية عموما:

اتضح مما تقدم أن الإبستمولوجيا تأخذ لها موقعا متميزا داخل المنظومة المعرفية علميا وفلسفيا لارتباطها بها، ولتقاطعاتها معها، باعتبارها الدراسة النقدية التي تطال المعرفة العلمية والفلسفية، ولكن لهذا البحث النقدي الإبستمولوجي حدودا تضبطه، أو بالأحرى حدود البحث الإبستمولوجي من حيث موضوعه تضيق وتتسع بحسب طبيعة الموضوع المراد دراسته مما سيرتب عليه وجود اتجاهين بارزين في تعيين حدود البحث الإبستمولوجي، ومن ثم تعيين نوعي الممارسة الإبستمولوجية، وهما: الإبستمولوجيا الخاصة (أو الجهوية أو الداخلية) والأخرى الإبستمولوجيا العامة (أو المتفتحة أو الموسعة).

---

[142]- **روبير بلانشي**، الإبستمولوجيا، ص33. وينظر أيضا، **محمد محمد قاسم**، المدخل إلى فلسفة العلوم،ص ص58، 59، 60.

تتعلق الإبستمولوجيا الخاصة بنوع معين من العلم مثل الفيزياء أو الرياضيات، أو اللسانيات في سياقنا هذا، وفحوى هذا الاتجاه هو أن نظرية العلم الداخلية أو الإبستمولوجيا الخاصة تحل مشاكلها العلمية والمنهجية بوسائل خاصة بها، ونابعة منها، دون اللجوء إلى الوسائل العامة أو المشتركة، لهذا ستكون الإبستمولوجيا الخاصة على حد تعبير بلانشي ***R.Blanche*** « هي التي يمكن أن نصفها بأنها داخلية أو جهوية، إنها داخلية، لأنها مهيأة من الداخل من قبل علماء يهمهم أمرها، وهي جهوية لأن كل واحدة منها تنبني لتلبية حاجات علم معين، وهكذا عند بداية القرن العشرين فإن الرياضيين لا الفلاسفة هم الذين انهمكوا في إزالة النقائض وفي حل أزمة الأسس»"[143]".

فالإبستمولوجيا الخاصة بهذا المعنى ينشؤها أصحاب التخصص العلمي المعين، بناء على معرفتهم المعمقة بهذا التخصص العلمي أو ذاك، فاللسانيون مثلا هم أهل اختصاص في اللسانيات، والمشاكل التي تواجههم فيها توجب عليهم إيجاد حلول لها من دون الاستعانة بوسائل خارجة عن وسائل وآليات اللسانيات النابعة من داخل اللسانيات ذاتها، وعليه تكون إبستمولوجيا اللسانيات في هذا التوجه هي الدراسة النقدية للمبادئ والأسس والفرضيات والتصورات اللسانية، واللسانيون هم الذين يمارسون هذا العمل الإبستمولوجي النقدي المتخصص دون سواهم، وهذا كله مؤسس على «أن القضايا والمشاكل المبدئية أو المنهجية التي تخص علما من العلوم قد لا تخص بالضرورة علما آخر، بل إن العكس في نظرهم هو الصحيح... إن محاولة الجمع بين قضايا العلوم المختلفة في إطار أو نسق الإبستمولوجي واحد هو في نظرهم عمل فلسفي قد لا يستفيد منه العلماء كثيرا في حل مشاكلهم الدقيقة الخاصة... »"[144]" فاللسانيون من هذه الزاوية مطالبون بأن ينظروا إلى اللسانيات على أنها علم خالص دقيق مجهز من الداخل، وله أدواته الإبستمولوجية النقدية التي توظف في فك الأزمات المعرفية والمنهجية التي تعصف باللسانيات أو بإحدى النظريات اللسانية.

---

[143]- **روبير بلانشي**، الإبستمولوجيا، ص22.

[144]- **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم، ص46.

بالمقابل، لا تتعلق الإبستمولوجيا العامة بنوع معين من العلوم، بل تدعو إلى دراسة إبستمولوجية نقدية مشتركة تنطبق على سائر العلوم من دون استثناء. فهي إبستمولوجيا موسعة ومنفتحة، ومبنية على نظرية عامة تنضوي تحتها العلوم كلها المراد دراستها إبستمولوجياً، لذا فهي مقترنة بشكل واضح بالفلسفة، أو على الأقل توحي بها، بخلاف ما عليه النوع الأول_الإبستمولوجيا الخاصة-التي ترفض أن تكون للفلسفة أية صلة بالممارسة الإبستمولوجية، ولكن الإبستمولوجية العامة، أو الموسعة، هي نظرية فوق الإبستمولوجيا الخاصة، لأنها تعالج مشاكل علمية وفلسفية تتجاوز تخصص العلماء"[145]"، لذا كان من المفروض أن تعالج تلك المشاكل العامة بوسائل وآليات الإبستمولوجية عامة، ولا يكفي في ذلك أن يتقيد الإبستمولوجي بما يمليه عليه تخصصه الضيق، بل هو مطالب بأن يوسع أفق الممارسة الإبستمولوجية ليخرج من مجال تخصصه إلى مجال أكثر رحابة وثراء، خاصة إذا علمنا بأن الأزمة العلمية في ذلك التخصص قد تفوق المتخصص ذاته، وتجبره على توسيع حدود البحث الإبستمولوجي، لأن « المشاكل التي تعترض علما من العلوم كثيرا ما تكون هي نفسها التي تعترض علما آخر، علاوة على أن العلوم نفسها متداخلة متشابكة تقوم بينها علاقة لا يمكن تجاهلها... »"[146]".

إن أوضح مثال على هذا التداخل هو العلوم الإنسانية، فاللسانيات متعالقة بعلم الاجتماع وعلم النفس مثلا، وهو ما انجر عنه تخصص علمي يدمج العلمين معا، نعني بذلك: اللسانيات الاجتماعية، وعلم النفس اللساني، بل قد تجاوز هذا التداخل العلوم الإنسانية، إلى تداخل اللسانيات مع الرياضيات والبيولوجيا وهو ما بات يعرف اليوم باللسانيات الرياضية، واللسانيات البيولوجية، وما كان يحدث هذا الاقتران من دون وجود مشاكل عامة ومشتركة بين الرياضيين واللسانيين أو بين اللسانيين والبيولوجيين وكذلك بين اللسانيين وعلماء النفس والاجتماع، فيلزم عن هذا التقاطع ابتكار آليات وأدوات إبستمولوجية موحدة تعالج بها مختلف المشاكل المستعصية خاصة فيما له علاقة بالأسس أو المبادئ الأولية لأي علم.

---

[145]- ينظر، **روبير بلانشي**، الإبستمولوجيا، ص23.

[146]- المرجع نفسه، ص46 .

وههنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو وجود هذين النوعين من الممارسة الإبستمولوجية له ما يرتكز عليه، ذلك أن الذين يميلون إلى جعل حدود البحث الإبستمولوجي منحصرة في التخصص العلمي المعين ولا يمكن تخطيه، ينطلقون من موقف معين هو ضرورة أن تكون الممارسة الإبستمولوجية علما خالصا، أي أن تكون بعيدة عن كل أشكال التفلسف وهذا بدوره ينبئ بالتوجه الوضعي في العلم وكذا نقده، كما هو شأن حلقة فيينا الوضعية المنطقية، ولهذا التوجه أتباع وأنصار في حقل الدراسات اللسانية الحديثة والمعاصرة، من أمثال "رودولف بوطا" ***R.Botha*** "[147]"، في حين نجد دعاة التوجه الموسِع لحدود البحث الإبستمولوجي يرتكزون على منطق له حضوره القوي في أدبيات العلم وفلسفته وهو مبدأ "وحدة العلوم" وهو ما يجعلها تتوافر على درجة من التعميم"[148]" أكثر مما هي عليه الإبستمولوجيا الخاصة.

تأسيسا على هذا التمييز بين نوعي الإبستمولوجيا من حيث حدود البحث، يتبين بأن العلم ذاته ليس هو الإبستمولوجيا التي تختبره وتنقده، ذلك أن العالِم إذا وجه نظره صوب موضوع العلم الذي يتخصص فيه مثل اللساني الذي يركز على موضوع تخصصه الذي هو اللغة، فإنه في هذه الحالة لا يعد إبستمولوجيًا بل هو لساني محض، أما إذا وجه نظره تجاه المفاهيم والمنطلقات الأولى التي تأسس عليها ذلك العلم وهو هنا اللسانيات فإنه يتحول إلى إبستمولوجي خالص، وهكذا تكون دراسة الطرائق والفرضيات التي يضعها اللسانيون هي من اختصاص الإبستمولوجي الذي يكون على دراية كبيرة بسياق وضعها أول الأمر.

فاللساني بهذا الاعتبار إذا يطرح نوعين من الأسئلة العلمية، أسئلة حول طبيعة الموضوع الذي يراد دراسته مبدئيا وهو اللغة، وأسئلة أخرى متعلقة بطبيعة الوسائل والطرائق والأهداف والمفاهيم"[149]" التي بنيت عليها النظرية اللسانية، ففي الأولى يكون لسانيا أما في الثانية فإنه يكون إبستمولوجيًا.

---

[147] - *voir ;* ***Rudolf Botha, le*** *statut méthodologique de la preuve linguistique externes en grammaire générative, in langages N° 24. 6 année/1971, p67-92, et,* ***J.Kristeva****, les épistémologies de la linguistique, p04.*

[148]- ينظر، **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم، ص46.

[149]- ينظر، **محمد الأوراغي**، الوسائط اللغوية،دار الأمان الرباط، المغرب ،ط1/ 2001 ج1/ ص ص35-36.

وعليه تتعين حدود البحث الإبستمولوجي الخاص باللسانيات في النوع الثاني من الأسئلة التي يطرحها اللساني، ولكن هذا لا يعني أن اللساني لا يمكن أن يكون إبستمولوجيا متخصصا في اللسانيات، كما لا يعني أن الإبستمولوجي الأصل فيه أنه كذلك، بل هو لساني يتحول إلى إبستمولوجي لساني متخصص"[150]"بمجرد أن يعكف على دراسة المنطلقات والمفاهيم الأولية والمبادئ الأساسية وكذلك المناهج المطبقة التي تكونت على إثرها النظريات اللسانية.

إذًا فإبستمولوجيا اللسانيات عموما هي تلك المقاربة التي « تهتم بصورة المعرفة اللسانية بغية تقويمها من جهة أسسها ومبادئها المصرح بها أو المسكوت عنها»"[151]"، ولكن هذا الأمر لم يكن متاحا إلا بعد أن صارت المعرفة اللسانية متراكمة على الأقل منذ زمن حدوث المنعرج اللساني الحديث على يد "دي سوسير ***De Saussure***" حتى وقتنا هذا، مما أفرز الكثير من النظريات والتصورات اللسانية التي أجبرت العلماء المتخصصين على ضرورة إعادة قراءة المنجز اللساني قراءات أخرى، وأهمها القراءة الإبستمولوجية الخالصة، التي تسعى إلى اختبار وفحص هذه المعرفة اللسانية من حيث أسسها ومبادؤها فضلا عن المناهج الموظفة.

إن هذا التطور الذي شهدته اللسانيات يدل دلالة واضحة على أنها لم تكن بمعزل عن التحولات الكبرى التي حدثت في العلوم المتقاطعة معها سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشر، لأن ما نتج عن العمل الإبستمولوجي الخاص بالمعرفة اللسانية يكشف عن اشتراك اللسانيات مع العلوم المعاصرة لها « من جهة آليات البناء النظري والمفهومي، ومن ثم لا يمكن فهم الظاهرة العلمية إلا بطرحها كسيرورات ظرفية ومؤقتة، فالخطاب النظري بناء عقلي لا يأخذ دلالة إلا في إطار الخطاب المتبنى... »"[152]".

بناء على ذلك تكشف الإبستمولوجيا اللسانية عن التداخلات الحاصلة بين اللسانيات والعلوم الأخرى وعلى رأسها العلوم الطبيعية والدقيقة، فهي إبستمولوجيا تنقد المعرفة اللسانية كما تنقضها أيضا من أساسها المتمثل في مقدماتها الأولى التي تنص على أن اللغة -كما يلح

---

[150]- ينظر،المرجع نفسه، ج1/ ص36.

[151]- **إسماعيلي علوي، محمد الملاخ**، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص26.

[152]- المرجع السابق، ص87.

على ذلك البنويون مثلا- نسق من العلامات، أو هي شكل وليست مادة كما هو الأمر عند هلمسلف"***Hjelmslev***" ومن تابعه، أو كالمقدمة الأساس التي بُنيت عليها لسانيات تشومسكي "***Chomsky***" والتي تنص على أن اللغة هي في الأصل « عبارة عن نسق من المبادئ المرقونة خلقة في خلايا ذهنية»"[153]"وليس يقتصر هذا العمل الإبستمولوجي النقدي على المكونات الداخلية للنظرية اللسانية، بل يتوجه أيضا إلى الجوانب الخارجية"[154]"عن طريق امتحان واختبار نتائجها المترتبة على هذه النظرية اللسانية أو تلك قصد تحديد كفاياتها الوصفية، والتفسيرية والأنطولوجية.

4 - مجال الممارسة الإبستمولوجية اللسانية:

يختبر الإبستمولوجي كفاية النظريات اللسانية من مستويين بارزين: مستوى الاختبار الداخلي، ومستوى الاختبار الخارجي، وعنهما تتفرع مجموعة من الخطوات المنهجية التي يتبعها الإبستمولوجي في مسيرة نقده للمنتج من النظريات اللسانية.

4-1- يتوقف **الاختبار الداخلي** للنظرية اللسانية على مراعاة مبدأين رئيسيين يشكلان النظرية وهما: مبدأ الانسجام للنسق النظري، ومبدأ عدم التناقض اللازم عن الأول.

إن المقصود بالانسجام الداخلي للنظرية هو أن تكون العناصر الأساسية المكونة للنظرية غير متناقضة، ولا يوجد بينها أدنى تعارض حتى تحافظ النظرية على السلامة المنطقية داخليا، وكذا تحقق إقبال العلماء المشتغلين في هذا الحقل العلمي عليها، وتضمن أكبر قدر ممكن من التعميم، فلازم أن يتحقق أولا الانسجام الداخلي بأن يتطابق النسق النظري مع ذاته عن طريق اختبار طبيعة المواد الأساسية المكونة للنظرية اللسانية وهي:

1- مقدمة الانطلاق التي تتخذها النظرية اللسانية أو ما يعرف أيضا بفرضية العمل الأساسية.

2- الموضوع الذي تصفه النظرية وهو هنا اللغة.

3- طبيعة المنهجية التي تتخذها في ذلك.

---

[153]- **محمد الأوراغي**، الوسائط اللغوية، ج1/ ص12.وينظر:

Massimo Palmarini *Théories du langage théorie de l'apprentissage Ed de seuil, Paris,1979,p34 ,134,135.*

[154]- ينظر، **محمد الأوراغي**، الوسائط اللغوية، ج1/ ص12.

4- الهدف الذي ترمي إلى تحقيقه النظرية اللسانية. ينضاف إلى هذا كله مبدأ البساطة"[155]" وربما أضافوا مبدأ آخر وهو أن تكون النظرية اللسانية على قدر كبير من الأناقة"[156]"كما هو الحال مع تشومسكي « ***Chomsky*** » .

4-1- 2- **أما مقدمة الانطلاق** أو ما يعرف بفرضية العمل الأساسية فهي المبدأ الأول الذي تتفرع عنه باقي مواد النظرية، لأنها تشتق منها بواسطة قواعد برهانية محددة سلفا"[157]"، وهذا بدوره يضمن للنسق النظري صلابة وانسجاما منطقيين ويؤهلها لأن تكون نظرية مفضلة لدى العلماء، على نظريات أخرى من جنسها سبقتها وجودا أو هي منافسة لها.

إن الذي يشترطه الإبستمولوجيون في فرضية العمل الأولية هو أن تكون متصفة بالاعتباطية، ومعنى ذلك أنها لا ترتبط بالواقع، كما ينبغي التسليم بها من دون حاجة بنا إلى البرهنة على صدقهـــا، يقول محمد الأوراغي في ذلك ما هذا نصه « يجب أن تتنوع"[158]"باعتبار العلاقة القائمة بين محتواها وبين موضوع اللسانيات إلى فرضية اعتباطية، وهي قضية تختص بسمات منها: أن محتواها وضعي لا يرتبط بواقع حقيقي كان لغويا أو غير لغوي، وأنها لا تقبل الإثبات فتسند إليها القيمة "صادقة" مع التسليم الاعتباطي بهذه القيمة، وأنها لا تخضع للفحص المراسي، وبالتالي لا تقبل النقض وكذلك شأن ما يؤسس عليها»"[159]". وبهذا ستكون مقدمة الانطلاق في اللسانيات المعاصرة شبيهة بتلك التي نجدها في العلوم الدقيقة مثل الرياضيات خاصة، مادام يشترط في محتواها أن يكون وضعيا أي: من وضع المنظر ذاته من غير الالتفات إلى الواقع الفعلي، فهي موضوعة بلا وجود مسوغ على وضعها لذا قيل فيها بأنها اعتباطية لخلوها من المحتوى الحدسي الذي يحيل على العالم الحقيقي.

---

[155] - *voir :* ***Robert Martin****, comprend la linguistique, 2eme. éd, puf, paris,2004 p68-69.*

[156] - *voir :* ***Jacques Moeschler et Antoine Auchlin****, introduction, à la linguistique contemporaine, 2eme Ed, Armand colin paris, P76-77.*

[157]- ينظر،**محمد الأوراغي**، نظرية اللسانيات النسبية، منشورات الاختلاف الجزائر، والدار العربية للعلوم، لبنان، ط1/2010، ص ص179-180.

[158]- أي: فرضية العمل الأساسية.

[159]- **محمد الأوراغي**، الوسائط اللغوية، ج1/ ص43 .

تبرز هذه المواصفات بشكل واضح في اللسانيات السوسيرية بحيث اختار لها مقدمة أولية انطلق منها في بناء نسقه النظري، تتلخص فرضية العمل عنده في أن اللغة شكل وليست مادة وأن اللسان نسق مجرد مودع في أذهان الناس"[160]"، لقد سخر دي سوسير « كل جهوده للبرهنة على نسقية اللسان، واستعراض مظاهر هذه النسقية حتى إن ذلك قد شكل الأكسيومة المركزية في لسانياته وتبعه في ذلك بعض التابعين»"[161]"وعلى رأس هؤلاء ل.هلمسلف" ***L.Hjelmslev*** " الذي تبنى أفكار دي سوسير وأهمها فرضية العمل المذكورة آنفا وقد صرح بذلك في غير ما موضع من كتابه الهام المقدمات ***Les prolégomènes*** كما سيأتي بيانه لاحقا، والشيء نفسه نجده واضحا عند تشومسكي في انطلاقه من فرضية عمل اعتباطية مفادها أن اللغة أمر فطري في الإنسان تولد معه كباقي أعضائه الجسمية الأخرى.

بالمقابل وفي الواقع الفعلي للغات لا يمكن أن نجدها على المواصفات التي قدمها دي سوسير ومن سار في نهجه ولا هي كما قدمها تشومسكي، لأن اللغة في حقيقة الأمر نابعة من بيئة اجتماعية حقيقية يتكلمها أفراد فعليون لا مفترضون كما ينتج عن فرضية العمل اللسانية السابقة، أي إن اللغة ليست نسقا مجردا معزولا عن العالم الحقيقي الذي هي موجودة فيه مما يعني أيضا أنها ليست فرضية اعتباطية مسلما بها كما مر، لأن النتيجة التي توصل إليها اللسانيون من أن اللغة نسق مجرد أو هي ملكة فطرية أساسها أصل الأوليات التي انطلقوا منها، لأنها أوليات ليست مأخوذة من الواقع الفعلي للغات البشرية، وإنما هي موضوعات يضعها اللساني المنظِّر اختراعا مع التأكيد على أن تكون مفرغة من كل محتوى دلالي يربطها بالواقع اللغوي الفعلي.

إذًا يتعين عمل الإبستمولوجي في هذا المستوى في البحث عن الدوافع والمنطلقات التي جعلت هذا اللساني يختار لنسقه النظري هذه المقدمة الأولية أو تلك، وما هي أهم النتائج التي ستنعكس من جراء اعتماد نوع من أنواع المقدمات الأولية (أو فرضية العمل الأساسية) وأكثر من ذلك، فالإبستمولوجي مطالب أيضا بالنظر في العلاقة القائمة بين المقدمة الأولية وموضوع

---

[160] -*voir* ***: F, De Saussure****, cours de linguistique générale, p38*

[161]- **محمد محمد العمري**، الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1/2012، ص66.

النظرية وهو اللغة أو بعبارة أخرى، هل النظرية اللسانية وفقت في رصد موضوعها وحصره أم إنها بخلاف ذلك؟

4- 1- 3- إن هذا السؤال يجرنا إلى الحديث عن العنصر الثاني وهو **موضوع النظرية اللسانية**، وكيف يتم تعينه؟ إلا أنه يتوجب علينا في البدء أن نحدد ما الوظيفة الرئيسية التي تناط بها النظرية؟

تنحصر وظيفة النظرية عموما في « تحديد موضوع البحث وإنشاء نموذج يمثل للموضوع ويخضع للوازم الصورية والتجريبية على التمثيل»"[162]"فلا بد من أن تحقق النظرية العلمية بشكل عام والنظرية اللسانية بشكل خاص درجة كبيرة من التطابق مع موضوعها الذي تصفه، فهي تؤدي وظيفة وصف دقيق للموضوع المبحوث فيه مثل اللغة بالنسبة للنظرية اللسانية.

بناء على ما تقدم سيكون موضوع النظرية اللسانية لا يخرج عن أحد احتمالين:

الأول: موضوع لغوي لكنه من وضع اللساني المنظر كي يتحقق التلاؤم والتطابق التام بين النسق النظري اللساني والموضوع. **الثاني:** موضوع لغوي لا يتدخل في صنعـــه اللسانيون المنظـــرون لكونه موضوعا نابعا من الواقع اللغوي الفعلي، لذا ليس بالضرورة أن يكون متطابقا مع النسق النظري اللساني.

إن الذي يعنينا في هذا الصدد هو النوع الأول من الموضوعات اللسانية، وهو أن يبتكر اللساني موضوعا وهميا غير مقتبس من الواقع ويجعله محلا لوصف النظرية، أي إن النظرية هي التي تصنع لها موضوعا ثم تصفه، وهو عند التحقيق لا وجود له في العالم الحقيقي لأن الموضوع هنا يكون مرتبطا بالبناء الداخلي للنظرية، بحيث يكون منسجما انسجاما لا يدع مجالا لإحداث أي خرق منهجي أو معرفي في هيكل النظرية اللسانية كما في نواتها الصلبة، مما يعني أن وظيفة النظرية اللسانية تتجلى في «تحديد خصائص عالم من الموضوعات الاصطناعية، والتطابق في هذه الحالة مضمون مادامت الموضوعات الخارجية فاقدة لبنيتها الداخلية ومتشكلة بنسق

---

[162]- **إسماعيلي علوي، وأمحمد الملاخ** ،قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص80.

النظرية»"[163]"وبهذا يكون موضوع النظرية اللسانية مع هذا التوجه داخليا، ومن خصائصه أنه متعال على الواقع الفعلي لأنه مفترض وأنه موضوع صوري ومجرد لأنه من النظرية مستنبط مما يسمح بصورنته وصياغته صياغة رمزية تتماشى مع الطرح العلمي المعاصر والمتمثل تحديدا في طريقة بناء الأنساق الرياضية والمنطقية.

سيترتب على هذا التصور العلمي المعاصر- في اختيار الموضوعات العلمية ومن ثم دراستها بواحد من التوجهين اللذين ذكرناهما آنفا- مشكلة إبستمولوجية عويصة، والمقصود بها قضية التأثير الذي تحدثه النظرية العلمية واللسانية منها في الموضوع الذي تصفه، فهي لا تخرج عن وجهين بارزين:

الأول: إن النظرية اللسانية تؤثر في الموضوع الموصوف ولا تنعكس القضية، وهذا ما يعبر عنه الإبستمولوجيون بأحادية التأثير، ومعناه أن للنظرية القدرة الكافية في إحداث تغييرات وتعديلات في موضوعها الذي تصفه في حالة ما إذا تعارضت الوقائع الفعلية مع البناء النظري المجرد، فتسند للنظرية في هذه المرحلة مهمة إعادة صياغة الواقع حتى يتلاءم معها: بحيث لا يشكل لها قوادح تهدد الانسجام الداخلي فيها، وكذلك تماسكها المنطقي.

الثاني: ويتحدد في التأثير المتبادل بين النظرية وموضوعها الواقعي بمعنى، إن النظرية اللسانية تقبل إحداث تغييرات فيها وإدخال تعديلات عليها، إذا لم تنجح في تحقيق تطابق مع موضوعها الذي تصفه، كما تملك الكفاية في تغيير الموضوع كي يتلاءم مع بعض من منطلقاتها القاعدية فلا يضرها إن تعدلت بعض مرتكزاتها الأساسية"[164]"كمقدمة الانطلاق أو فرضية العمل، ولكن هذا لا يتحقق إلا إذا كان موضوع النظرية اللسانية أو غير اللسانية من جنس موضوع التوجه الثاني الذي يجعل موضوع النظرية اللسانية شيئا مستقلا عنها، باعتباره واقعا لغويا فعليا، فاتجاه التأثير هنا يكون من النظرية نحو الموضوع الواقعي، وتنعكس القضية من الموضوع الواقعي تجاه النظرية اللسانية، فهو تأثير متبادل وليس أحاديا.

---

[163]- **محمد الأوراغي**، نظرية اللسانيات النسبية، ص ص18-19.

[164]- ينظر، المرجع نفسه، ص ص19-20. وينظر أيضا:

***Mortéza Mahmoudian**, Adéquation externe des théories linguistiques, in Ecole pratique des hautes études, 4eme section, sciences historiques et philosophiques, Annuaire 1977-1978, p965-966.*

4-1- 4- إن من أهم ما يترتب على تعيين النظرية اللسانية لموضوعها هو قضية **المنهج المتبع** من قبل اللسانيين في رصدهم للظاهرة اللغوية، فأي منهج يتبعه اللساني في دراسة اللغة الإنسانية ؟ وما طبيعة الأساس المنهجي الذي ينطلق منه اللساني وهو يفحص الظاهرة اللغوية ؟

مبدئيا لا يخرج أي عمل لساني عن أحد المنطلقين المنهجيين البارزين الأول منهما: المنهج الاستقرائي، والثاني: المنهج الاستنباطي، إلا أن الغرض في هذا الموضع ليس التوسع في الحديث عن الاستقراء والاستنباط ولكنه بيان صلة اللسانيات بهذين المنهجين اللذين تراوحت بينهما مثلما هو شأن باقي العلوم الإنسانية والدقيقة والطبيعية.

أولا: إن **الاستقراء** في مفهومه العام ومن دون الولوج في ذكر أقسامه هو « الانتقال من الحكم بثبوت صفة لعدد من الأشياء إلى الحكم بثبوت الصفة لجميعها»"[165]"، أو هو عبارة عن استدلال يجعلنا ننتقل من الخاص إلى العام"[166]". فهو بهذا الاعتبار منهج ينطلق فيه أصحابه من الملاحظة بمعزل عن كل حكم مسبق، يقول "آلان شالمرز" ***A. Chalmers***": « فالمنطوقات المتعلقة بحالة العالم أو بجزء من أجزائه ينبغي أن يتم تبريرها أو إثبات صدقها بكيفية مباشرة... هذه المنطوقات التي يتم إنتاجها بهذه الكيفية... ستكون الأساس التي تنشأ عنه القوانين والنظريات التي تشكل المعرفة العلمية»"[167]" فالاستقراء إذًا هو عملية ذهنية تمر عبر مراحل أولها وهي الأبسط الملاحظات العادية ثم تتحول الملاحظات في تراتبية تصاعدية إلى قانون كلي يجمعها كلها، وهكذا تنشأ النظريات العلمية انطلاقا من الملاحظات البسيطة.

تلك هي الطريقة التي آثرها اللسانيات الحديثة والبنوية على وجه التخصيص من دي سوسير وحتى زمن ظهور اللسانيات التوليدية على يد تشومسكي. يؤكد تاريخ العلم بأن هذه النزعة الاستقرائية تحكمها خلفية علمية دعا إليها كثيرا الفيلسوف فرانسيس بيكون" ***Francis Bacon***" باعتباره مشيدا للتصور التجريبي في المعرفة العلمية، وهو ما صار يعرف بالنزعة

---

[165]- **محمود يعقوبي**، معجم الفلسفة،ص ص132-133.

[166] -*voir :* ***Didier Julia****, Dictionnaire de la philosophie, p133-134.*

[167]- **آلان شالمرز**، نظريات العلم، ترجمة الحسين سبحان و فؤاد الصفا,دار توبقال،الدار البيضاء المغرب ط1/ 1997 ص17، ينظر أيضا،**رودولف كارناب**، الأسس الفلسفية للفيزياء، ترجمة السيد نفادي، دار التنوير، لبنان، ط1/1993، ص ص34-54.

الباكونية التي تأثرت بها اللسانيات البنوية تحديدا، إنها نزعة « تتصور الممارسة العلمية نشاطا تجريبيا استقرائيا استكشافيا وتنتمي إليها التيارات البنيوية بصفة عامة حيث يتم العمل في إطار استعباد التأملات الفلسفية ذات الرؤى الميتافيزيقية»"[168]". وفي هذا ما يدل على أنها تنحو منحنى وضعيا خالصا في العلم كما في اللسانيات البنوية.

لقد جسدت هذا التوجه بالفعل وبقوة حلقة فيينا ذات التوجه الوضعي المنطقي الرافض لكل تأمل فلسفي ميتافيزيقي في العلم"[169]"، وقبلها "أغست كونت ***A. Conte***" الذي دعا هو الآخر إلى ضرورة كون العلم وضعيا وطرح المرحلة الميتافيزيقية للعلم نهائيا، وفي الجانب اللساني يظهر هذا التوجه بصورة جلية في لسانيات دي سوسير، إذ نجده قد لخصه في المنهج الآني الذي يتعامل مع اللغة بوصفها ظاهرة تدرس في ذاتها ومن أجل ذاتها، فتحت هذه المقولة السوسيرية أبعـــاد وضعية تجريبية في مقدمتها التغاضي عن كل تأمل فلسفي ميتافيزيقي، وكذلك هلمسلف الذي عمق هذا التوجه برفضه لكل معرفة مصدرها الميتافيزيقا مقتفيا في ذلك أثر حلقة فيينا، وبالمقابل ألح في غير ما موضع من كتابه المقدمات على الدراسة الآنية المحايثة للغة"[170]".

إن الفرضية الأساسية التي تقوم عليها النزعة الاستقرائية هي أن العلم يبدأ أولا من الملاحظة، ومنها يمر إلى وضع تعميمات أو قوانين وكذا نظريات علمية تساعد العلماء على بلوغ أهداف وتنبوءات علمية معينة، على أن يكون هذا كله مؤسسا على الملاحظات التي جمعها ورصدها العلماء"[171]"، ثم إن لهذا التعميم الاستقرائي شروطا قد بسطها آلان شالمرز قائلا:

---

[168]- **محمد محمد العمري**، الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية، ص28.

[169]- ينظر، البيان التأسيسي الذي قدمه أعضاء حلقة فيينا حول الفهم العلمي للعالم، ملحق بكتاب، **وداد الحاج حسن**، رودولف كارناب، نهاية الوضعية المنطقية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط2001/1، صص261-262- ص ص268-269.

[170] -- *voir : **L.Hjelmslev**, prolégomènes à une théorie du langage, traduite du danois par, Una Canger, les Editions de minuit paris 1971, p10-12.*

[171]- ينظر، **دونالد جيليز**، فلسفة العلم في القرن العشرين، ترجمة حسين علي، دار التنوير، لبنان، ط2009/1، ص97.

«**1-** ينبغي أن يكون عدد منطوقات الملاحظات التي تكون أساس التعميم عددا مرتفعا.

2- على الملاحظات أن تتكرر داخل شروط كبيرة التنوع.

3- لا يمكن لأي منطوق ملاحظة أن يعرف صراعا مع القانون الكلي الذي اشتق منه ذلك المنطوق»"[172]".

ما يفهم من هذا القول باعتباره جامعا لشروط العلم الاستقرائي أن المنهج الاستقرائي يعتمد أساسا على أكبر عدد ممكن من الملاحظات التي يتم جمعها حول حادثة معينة، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل ينبغي أن تكون تلك الملاحظات المجموعة متكررة داخل ظروف وسياقات متنوعة وليست قارة، وأخيرا لا يجب أن يكون ما جمع ورصد من ملاحظات متناقضا ومتعارضا مع القانون الكلي الذي يتم صوغه، لأن شرط صياغة قانون كلي في العلم الاستقرائي هو أن تكون المقدمات مشتقة منه، بمعنى آخر، أن تكون الملاحظات الأولية نابعة من القانون أو النظرية العلمية الكلية.

من هذا المنطلق المنهجي نلفي اللسانيات والبنوية منها خاصة تتبع هذا المنهج في دراستها للغة الإنسانية، إذ إن أول ما يقوم به العالم اللساني ذو النزعة الاستقرائية هو المعاينة والوصف، يوضح روبير مارتان "***R.Martin***"ذلك قائلا: « أول أعمال اللساني المعاينة والوصف، ولما كان ما يدرســـه شيئا من أشياء الكون يوجد قبل التصدي لفحصه، فإن هذا الشيء قابل بمقتضى طبيعته لمعالجة اختبارية، لذا سنتساءل عن كيفية الوصف؟... يجب ليكون الوصف وصفا متماسكا أن يخضع لمنطق يُهيكلُه، ومجمل القول: إن ثلاثة جوانب تعرض على تفكيرنا:

- ما هي الأشياء التي نجمعها ؟
- ما هي إجراءات وصفها ؟
- ما هي الهياكل الكفيلة بتنظيم وصفها ؟»"[173]".

---

[172]- **آلان شالمرز**، نظريات العلم، ص19.

[173]- **روبير مارتان**، مدخل لفهم اللسانيات، ص27. وينظر أيضا، النسخة الأصلية،

***R.Martin**, comprendre la linguistique, p19.*

بناءً على ذلك ستكون عملية رصد الوقائع اللغوية المحطة الأولى التي ينطلق منها عمل اللساني كي يصل في النهاية إلى صياغة قانون لساني كلي أو وضع نظرية لسانية تتصف بصفة العلمية، وأن تكون لها القدرة اللازمة لحصر موضوعها ووصفه وصفا دقيقا، فالاعتناء بالمنهج الاستقرائي من قبل اللسانيين ذوي التوجه البنوي خاصة جاء مرتبطا بوضع علمي كان سائدا في بداية القرن العشرين، وهو سيطرة المنهج التجريبي في العلم، مما أسفر عن حركة علمية نشطة استطاعت أن تكشف اللثام عن الفواصل القائمة بين الاستقراء والاستنباط، وأن تضع لكل منهما حدودا دقيقة، كما أنها تمسكت بالمنهج الاستقرائي حينها لكونه يمثل ارتباطا عضويا بين الملاحظة، أو التجربة والنظرية، فالاستقراء يشكل حلقة وصل بين النظرية والملاحظة، لأنه يربط بين الأحكام الجزئية والقوانين الكلية، وبذلك يعد آلية حيوية جدا بالنسبة للتجربانية ولا بديل عنها"[174]"سواء في حقل اللسانيات أم في حقل العلوم الطبيعية، وهكذا تصبح القوانين الكلية في العلم الاستقرائي بمثابة بديهيات لا تقبل النقاش أو البرهان في هذا العلم أو ذاك، وهو عين ما سعت إلى بلوغه اللسانيات البنوية.

إجمالاً، تتبنى اللسانيات البنوية الأسلوب الباكوني في دراسة اللغة الإنسانية، وهو أسلوب يقوم أساسا على المنهج الاستقرائي الذي بدوره يستمد علميته من الملاحظة أو التجربة التي تقدم في نهـــاية المطاف معرفة لسانية علمية متينة الأساس ومصاغة في شكل قوانين كلية أو نظريات لسانية منسجمة ودقيقة يمكن تعميمها.

2- بالمقابل، توجد توجهات لسانية أخرى ترفض الأسلوب الباكوني في معالجة قضايا لغوية، لاعتبارات إبستمولوجية ومنهجية ومعرفية"[175]"، وتنتهج أسلوبا علميا آخر يعاكس الأول، إنه الأسلوب الغاليلي"[176]"- نسبة إلى "غاليليو غاليلي"- في التنظير للغة وهو طرح تشربته لسانيات تشومسكي خاصة.

---

[174]- ينظر، **بناصر البعزاتي**، الاستدلال والبناء، بحث في خصائص العقلية العلمية، دار الأمان، المغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1/1999، ص ص195-196.

[175]-ينظر فيما يتعلق بالانتقادات الموجهة ضد العلم الاستقرائي عموما: **كارل بوبر**، منطق البحث العلمي، الفصل الأول، ص63، و**آلان شالمرز**، نظريات العلم، ص ص37-38.

[176] - *voir : **J.Claude Milner**, Introduction à une science du langage, Ed, du seuil 1995 paris, p97-98*

ركيزة هذا الأسلوب العلمي هي أنه منهج يعتمد على آلية الفرض والاستنباط بدل الملاحظة أو التجربة من منطلق أن العلم الاستقرائي غير كاف في تحقيق معرفة علمية يقينية، لذا اتخذت لسانيات ما بعد البنوية وتحديدا التوليدية التحويلية عند تشومسكي المنهج الاستنباطي الذي يمكن تلخيصه في الانتقال من العام إلى الخاص فهو بخلاف الاستقراء، بأسلوب مغاير، هو استدلال دقيق يكون فيه الانتقال من المقدمات الكلية إلى الوقائع الجزئية"[177]"، وذلك بوضع فرضيات أولية منها تشتق القوانين العلمية التي بدورها تقبل الفحص والاختبار.

إن من سمات هذا الأسلوب الغاليلي في العلم عموما وفي اللسانيات خصوصا أنه لا يلتفت كثيرا إلى المعطيات التجريبية لغوية كانت أم غير لغوية، لكونه منهجا تفسيريا وليس وصفيا، لأنه يفسر « الظواهر عن طريق بناء أجهزة استنتاجية تقوم على الافتراض والاستنباط، أو على نظام أكسيومي، يخضع لمبدأ النسبية والاحتمال»"[178]"، كما أنه منهج يقدم النظرية على التجربة، فالنظرية في هذا التوجه هي من يخلق التجربة وليس العكس كما يعتقد أصحاب التوجه الاستقرائي"[179]"، لذا فهو منهج يرفض أن تكون التجربة هي الأساس في صياغة القوانين العلمية، بل للاستنباط الرياضي والاستدلال العقلي الدور الأبرز في ذلك كله.

إن لهذا المنهج خصيصة أخرى هي أنه منهج صوري محض، ومنغلق على ذاته، ولا يتصل بالواقع الفعلي إلا في النادر من الأحيان، وهذا في جانب آخر جعل اللسانيين المعتنقين للنزعة الاستنباطية يتعاملون مع لغة اصطناعية صورية ومجردة بدل اللغة الإنسانية الطبيعية، طالما صارت الوقائع اللغوية الفعلية مطروحة، وتم عزلها عن سياقاتها لغرض بلوغ ضرب من الأمثلة

وينظر أيضا، **جون غريبين**، تاريخ العلم، من 1543-2001.، ترجمة شوقي جلال، الفصل الثالث ج1/ ص ص101-144، وقد ألف في هذا الشأن "رودولف بوطا كتابا بحث فيه استعمال تشومسكي للأسلوب الغاليلي في اللسانيات التوليدية والتحويلية.

***R.Botha**, on the Galilean style of linguistics, inquiry, stellenbosch papers in linguistics, number7, 1981.*

[177] *-- voir : **Didier Julia**, Dictionnaire de la philosophie, p56, et aussi : **E.B. Maarouf**, Introduction à l'Epistémologie des sciences, Ed El Joussour, Sarl, Maroc, 2010, p140.*

[178]- **محمد محمد العمري**، الأسس الإبستمولوجية للنطرية اللسانية ص237.

[179]- ينظر، **إسماعيلي علوي** و **امحمد الملاخ**، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص149.

التي أدت فيما بعد إلى إغراق في التجريد"[180]"آل في نهاية الأمر إلى دراسة لغة مفترضة لا صلة تربطها باللغة الطبيعية إلا ما ندر.

لقد مثلت اللسانيات التوليدية والتحويلية التي جاء بها تشومسكي هذا التوجه العلمي غاية التمثيل، وذلك باعتناء تشومسكي بوضع الفروض الأولية في صناعة النظرية اللسانية التي أسند لها مهمة تفسير اللغة بدل وصفها، ولعل أهم هذه الفروض اللسانية ما اصطلح على تسميته بالملكة اللغوية، وأن اللغة نسق نحوي صوري ومجرد، وأن المتكلم والمستمع مثاليان وافتراض نحو واحد كلي"[181]"تندرج تحته باقي الأنحاء اللغوية العالمية، سينجر عن هذا المنحنى اللساني رفض التوليديين للتوجه المراسي الذي ينطلق من التجربة والملاحظة في دراسة اللغة، كما يحتم عليهم من جهة أخرى « إقامة نظرية لسانية تستجيب ببنائها المنطقي لشروط النسق الرياضي، وبذينكم النسقين تؤول التجربة ويتأتى إسقاط بناء عقلي على وقائع العالم ومعطيات اللغة»"[182]"في هذا المستوى العقلاني الذي اتخذته اللسانيات التي تبنت الفروض والاستنباط سيكون للنظرية اللسانية الأحقية والشرعية المطلقة في تغيير الواقع اللغوي وإعادة صياغته من جديد وفق ما يتلاءم ونسقها المنطقي والرياضي الأكسيومي المتعالي.

إن النظريات اللسانية من هذا المنظور العلمي تكون متعالية على الواقع اللغوي، وأبرز صورة لهذا التعالي أنها تصنع بعيدا عن كل معطى تجريبي ولا تتنزل أبـــدا، وإذا ما تعارضت معها المعطيـــات اللغوية الفعلية، فالواجب على صاحب النزعة الاستنباطية في هذه الحالة إعادة صياغة الواقع عن طريق الاستعانة بآليات الصورنة والأمثلة والتجريد، وليست النظرية هي التي يعاد صياغتها بما يتناسب مع الواقع الفعلي.

إن هذا التوجه العلمي يريد الوصول إلى وضع معرفة لسانية يقينية يقين المعرفة الرياضية، موظفا في ذلك الصياغة الرياضية الأكسيوماتيكية الصورية، ولا يعنيه إن كان الواقع مغايرا لتلك المعرفة اللسانية اليقينية أم لا؛ فلا معرفة إذا خارج النسق النظري المجرد، وإنما هي في

---

[180]- ينظر، **محمد علي يونس**، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1/2004، ص52.

[181] - *voir* **: *Jeam.Elie Boitanski***, *la révolution chomskyenne et le langage, Ed l'Harmattan, 2002, paris, p117, et aussi,* ***Jacques Moeschler et A. Auchlin,*** *Introduction à la linguistique contemporaine, p76-77.*

[182]- **محمد الأوراغي**، نظرة اللسانيات النسبية، ص ص178-179.

الاستنباط المنطقي الذي ينطلق من مقدمات اصطلاحية تستند إلى بديهيات. فالوجود الحقيقي للأشياء ليس هو ما تقدمه التجارب والحواس، وإنما هو ما يتوصل إليه عبر المنهج الرياضي"[183]"الصارم، فالاستنباطي عموما بما في ذلك اللساني هو الذي يصنع عالمه الخاص بواسطة بناء أنساق نظرية متسقة منطقيا، ومتطابقة مع ذاتها وشديدة الصورية ومتعالية على المعطيات التجريبية، والغاية منها تقديم تفسيرات علمية وتتنبأ بقضايا لسانية مستقبلية، وعليه فالنظرية اللسانية بهذا الاعتبار لها قدرة تفسيرية لا وصفية، وإن كانت القدرة الوصفية مرحلة ضرورية يجتازها المنظر اللساني ذو التوجه الفرضي الاستنباطي لبلوغ أقصى مراتب التفسير العلمي الذي هو التجريد.

وعلى العموم يمكن القول: بأن البحوث اللسانية عرفت هذا التحول و الانقلاب على المستوى المنهجي كما المعرفي من الاستقراء إلى الاستنباط ومن التجربة والملاحظة إلى الفرضيات ومن الوصف إلى التفسير بفضل التيار العلمي الذي يسميه الرياضيون بالأكسيوماتيك "***Axiomatique***" أو منهج المصادريات؛ لكونه أحرز تقدما علميا باهرا تمثل على حد تعبير روبير بلانشي"[184]"في الفصل الواضح والتام بين ما هو حدسي وما هو منطقي صوري، فالأمور والقضايا المنطقية الصورية هي وحدها موضوع هذا العلم وليست الوقائع الجزئية الحدسية.

I- أما فيما يتعلق بالهدف الذي تروم النظرية اللسانية تحقيقه، فإنه عند الفحص نجده لا يخرج عن أحد هذين الاحتمالين: إما أن يكون هدف النظريات اللسانية داخليا، وإما أن يكون هدفا خارجيا، ومعنى كونه داخليا أن تعالج نظرية لسانية قضايا لغوية صرف، بغرض الوصول إلى البنية الكامنة في اللغة ذاتها، كأن تصبو إلى دراسة المكونات الأساسية للنظام اللغوي من صوتية، وصرفية وتركيبية ودلالية، ولا تطلب شيئا آخر زائدا على النظام اللغوي، وإنما تسعى إلى بلوغ أسرار النظام اللغوي المعين، وعلى هذا تكون النظرية اللسانية في هذه الحالة تهدف إلى تحقيق غايات لسانية ولا تربطها علاقة بأهداف أخرى ليست لسانية خالصة"[185]"، كما هو الأمر في

---

[183]- ينظر، **محمد محمد العمري**، الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية، ص239.

[184]- ينظر، **روبير بلاتشي**، المصادريات (الأكسيوماتيك)، ص ص98-99.

[185]- ينظر، محمد الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج01/ص45.

لسانيات دي سوسير التي حاول عبرها أن يقطع الصلة بكل علم ليس لغويا والاكتفاء بدراسته لنسق اللغة ذاتها ومن أجل ذاتها بعيدا عن كل السياقات والظروف الحافة باللغة من تاريخية ونفسية وثقافية وغيرها.

والشيء نفسه ينطبق على دعوى المحايثة التي حشد لها هلمسلف كل قواه التنظيرية والفكرية لأجل تحقيق هدف لساني محض نابع من النظام اللساني عينه، فليس لسانيات دي سوسير وغلوسماتيك هلمسلف اللتين انتهجتا هذا السمت، بل إننا نلفي نظريات لسانية رسمت لها خطة عمل منهجية بخاصة تلك التي اتخذت الجانب المراسي قاعدة أساسية في صياغة القوانين اللسانية، كما هو واضح في بعض أعمال اللسانيين العرب مثل عبد الرحمن الحاج صالح وأحمد العلوي، ومحمد الأوراغي"[186]" وهي أعمال لا تقل في قيمتها المعرفية والإبستمولوجية والمنهجية عن أعمال كبار اللسانيين في الغرب.

ففي هذا التوجه اللساني لا يخرج الهدف عن حدود الموضوع الذي عينته النظرية اللسانية فلهذا « يمكن القول إن لهذا الصنف من اللسانيات هدفا داخليا لأن مطلبه يتحقق باكتشاف الموضوع وإنشائه»"[187]" أيضا. تأسيسا على هذا سيكون أهم شيء في هذا التوجه اللساني ذي الهدف الداخلي هو الحصول على معرفة علمية لسانية خالصة لكونها نابعة من اللغة ذاتها، وهادفة إلى تحقيق نتائج لغوية، لذا فالرابطة متينة وقوية جدا بين موضوع النظرية اللسانية وهدفها.

بالمقابل قد تحدد النظرية اللسانية لها هدفا خارجا عن نسق اللغة كأن يكون هدفا فلسفيا أو بيولوجيا أو نفسيا، وربما أهداف أخرى قد لا ترتبط بالجانب اللغوي مطلقا، وقد

---

[186]- ينظر على سبيل التمثيل لا الحصر، **عبد الرحمن الحاج صالح** فيما أطلق عليه النظرية الخليلية الحديثة، ضمن كتاب بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، الجزائر 2007، و**أحمد العلوي** في مشروعه اللساني ضمن الطبيعة والتمثال الشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط 1988، و *Epistémologie de la linguistique Arabe Ed, Okad, Maroc 1998.*، و**محمد الأوراغي** خاصة كتاب الوسائط اللغوية جزآن، دار الأمان، الرباط، ط2002/1، وكتاب نظرية اللسانيات النسبية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2010/1، وكتاب اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2010/1.

[187]- **محمد الأوراغي**، الوسائط اللغوية، ج1/ ص49.

برزت هذه الأهداف خاصة البيولوجي والنفسي بصورة جلية جدا في اللسانيات التوليدية كما جاء على لسان منشئها تشومسكي « ***Chomsky*** » حيث قال: « تنظر اللسانيات الإحيائية إلى الملكة اللغوية بوصفها "عضوا من أعضاء الجسد" على شاكلة أعضاء معرفية أخرى، وبتبنيها هذا التصور نتوقع أن نجد ثلاثة عوامل تتفاعل في تحديد اللغات الداخلية التي يتم الوصول إليها: التجهيز الوراثي (موضوع النحو الكلي) والتجربة والمبادئ المستقلة عن اللغة أو الجهاز العضوي»"[188]. وقال أيضا: « دراسة اللغة جزء من مشروع عام وهو الوصف المفصل لبنية الدماغ" وأيضا: "عند الحديث عن أنحاء ممكنة نهتم طبعا بإمكانات بيولوجية لا منطقية". ويضيف قائلا: النظرية اللسانية أي نظرية النحو الكلي... هي خاصية طبيعية للذهن البشري، مبدئيا يجب أن نكون قادرين على صياغتها بمصطلحات بيولوجية»"[189].

إن أول شيء يتبادر إلى الفهم هو أن الهدف إذا كان شيئا ليس متطابقا مع موضوع النظرية اللسانية، فإنه يقتضي أن تكون النتيجة أمرا حتميا ولا مناص منها، مفادها أن اللغة في هذا التوجه اللساني لم تكن هي الغاية من صياغة النظرية اللسانية، بل هي واسطة أو وسيلة بها يتوسل اللساني إلى أهداف ليست لسانية، وهو أمر شاع كثيرا في لسانيات القرنين الثامن والتاسع عشر، وتم إحياؤه في لسانيات تشومسكي، فأن يكون هدف اللسانيات هو بلوغ أقصى نقطة في بنية الدماغ البشري عوض العمل على بلوغ بنية النسق اللغوي، فإنه يـــدل دلالة قاطعة على أن المعـــرفة المتحصل عليها ليست معرفة لسانية، وإن كان خالطها شيء من المعرفة اللسانية الجزئية بحكم المنطلقات اللغوية ليس إلا.

وبالجملة، فإن النظريات اللسانية وإن كانت كلها تسعى لبلوغ أهداف بغض النظر عن كونها داخلية أو خارجية، فإنها كلها تشترك في خاصية تعيين هدف ما ينبغي إدراكه، إلا أن هذا لا يدل بأي حال من الأحوال على أن النظريات اللسانية هدفها هو واحد، بل لكل هدف تنشده، بحسب ما تمليه فرضية العمل الأساسية، وطبيعة المنهج المتبع في دراستها للغة، ووفقا لهذا

---

[188]- **نعوم تشومسكي**، ثلاثة عوامل في تصميم اللغة، (ضمن كتاب اللغة وتصميمها) ترجمة محمد غاليم، ومحمد الرحالي وعبد المجيد جحفة، دار توبقال، المغرب ط2007/1، ص41.

[189]- ينظر، أقوال تشومسكي هذه في **محمد الأوراغي**، نظرية اللسانيات النسبية ص145.

الطرح سيكون هدف النظريات اللسانية مرتبطا بالعناصر الأساسية أو الجوهرية المشكلة لنسق النظريات بحد ذاتها، فهو لا يخرج عما رسمته النظرية ابتداء وانتهاء.

بقي من متطلبات الفحص والاختبار الإبستمولوجيين للنظرية اللسانية النظر في انسجامها الخارجي، ومن غير الدخول في تفاصيل هذا المستوى من الاختبار، ودرءاً لتكرار بعض العناصر المشار إليها سابقا، يكون الانسجام الخارجي للنظرية اللسانية مرتبطا بنتائجها المتحصل عليها وتحديدا من حيث"[190]": التنبؤات التي تقدمها النظرية اللسانية، واستعانتها بالفرضيات المساعدة أو البرامترات على تجاوز الاختبار من عدم ذلك، وأخيرا اختبارها من جهة قابليتها للتعميم ومن ثم إمكانية تطبيقها على أنساق لغوية أخرى أم لا ؟

تقريبا هذه هي المحطات الكبرى والمراحل الأساسية التي تمر عليها النظرية اللسانية خاصة وهي في سياق الفحص والاختبار الإبستمولوجيين، علما بأن النظرية عموما في أدبيات العلم المعاصر لها شروط ضرورية ينبغي توافرها فيها حتى تحظى بقبول جمهور العلماء المتخصصين، ومن أبرز هذه الشروط"[191]"أن تكون النظرية مستجيبة للآتي:

- أن تقدم تنبؤات قابلة للإبطال والدحض عن طريق الاختبار والفحص الداخلي والخارجي معا.
- كما تتوخى بناء تفسيرات علمية جديدة لم تكن معروفة في نظريات معاصرة لها أو سابقة عليها.

يقتضي التنبؤ العلمي الذي يجب أن تقدمه النظرية اللسانية أن تكون محكمة البناء ومتماسكة داخليا، فبقدر ما تتمكن النظرية اللسانية من الحفاظ على انسجامها الداخلي وعلى عدم تناقضها تكون توقعاتها العلمية غير متعارضة مع الواقع الفعلي للغات الإنسانية، وقد تفشل في تقديم تنبؤات بحيث تصطدم نتائجها مع الواقع الفعلي فحينذاك يكون من اللازم على المنظرين أن يبتكروا عوامل مساعدة تحمي النواة الصلبة للنظرية، وذلك عن طريق وضع ما يعرف بالفرضيات المساعدة أو البرامترات وهي في أصلها فرضيات يؤتي بها من علم مجاور

---

[190]- ينظر تفاصيل هذه الخطوات الاختبارية في **محمد الأوراغي**، الوسائط اللغوية ج01/ ص14-15-16.

[191]- ينظر، **إسماعيلي علوي**، و**أمحمد الملاخ**، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص64.

والغرض منها حماية النظرية اللسانية من القوادح التي تصيبها جراء معارضة الواقع اللغوي لها وعدم تلاؤمهما"[192]"، مما يدخل النظرية في أزمة خانقة قد تقضي عليها نهائيا، وتكون سببا مباشرا في ضرب النواة الصلبة التي بنيت عليها النظرية اللسانية كلها، وهذا ما يجعلها مهددة وقابلة للانهيار تماما.فيأنف عن الإقبال عليها العلماء من إبستمولوجيين ولسانيين.

من هذا المنظور تكون الفرضيات المساعدة عاملا قويا في سدِّ ثغرات أو فجوات النسق النظري، وفك الأزمة التي دخلت فيها النظرية وذلك عبر اختبار الفرضيات المساعدة وليس عبر اختبار النواة الصلبة للنظرية، هذا في جانب، وتكون في جانب آخر، أداة صالحة لإتمام مهمة النظرية والتي حددت في إعادة صياغة الواقع اللغوي"[193]"وجعله يتوافق مع النسق النظري وليس العكس.

كما تخضع نتائج النظرية اللسانية إلى اختبار من جهة تطبيقاتها على اللغات الأخرى، بمعنى آخر، هل وفقت النظرية اللسانية لأن تكون عامة وشاملة يمكن تعميمها على سائر اللغات الإنسانية؟ هي في هذه الحال تكون أمام أمرين: إما أن تعمم وإما لا، وهذا الاختبار يعود إلى طبيعـــة المقدمات الأولية التي تشيد عليها النظرية اللسانية من جهة أن للمقدمات الأولية روابط قوية ومباشرة بالنتائج التي تصل إليها النظرية وبقدرتها على التنبؤ العلمي وكذا توقعاتها المستقبلية.

بعد هذه المراحل كلها التي يمر عبرها الاختبار الإبستمولوجي للنظريات، تأتي مرحلة إصدار الحكم في حقها، وهو ما يعرف لدى الإبستمولوجيين بالمفاضلة بين النظريات، فمقياس المفاضلة يكون مؤسسا على الاختبار السابق"[194]" لبنية النظريات، وعليه تكون النظريات

---

[192]- ينظر،**محمد الأوراغي**، الوسائط اللغوية، ج1/14-15-16، وينظر أيضا فيما يخص الفرضيات المساعدة ودورها في حماية النواة الصلبة وهو ما أسماه إيمري لا كاتوس بالحزام الوقائي **يسرى وجيه السعيد**، إبستمولوجية إيمري لا كاتوس، المنهجية في برامج البحث، ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ودار الروافد الثقافية، بيروت، لبنان، ط1/2012، ص ص43-44.

[193]- ينظر، **محمد الأوراغي**، الوسائط اللغوية، ج1/16-17، وأيضا، **محمد الأوراغي** ،اللسانيات النسبية، ص ص18-19.

[194]- ينظر، **محمد الأوراغي**، الوسائط اللغوية، ج1/ص55-57-58.

اللسانية إما صادقة وإما كاذبة، فهذان الحكمان يرتبطان بذات النظرية، وهكذا تكون النظريات صادقة إذا كانت بنيتها كذلك منطقيا، وأيضا يجب أن تكون متميزة بقدر كبير من البساطة، بمعنى يمكن اختزال مكوناتها إلى بضع عناصر تترابط ببضع علاقات بحيث يمكن الإحاطة بها، والقدرة على استخدامها من أجل التفسير العلمي"[195]" لمجموع الظواهر المشاهدة

فبمعرفة ما تفضل به نظرية على أخرى يتبين من طريق الاستلزام المنطقي ما يمكن طرحه من نظريات وعدم الالتفات إليها من سائر أخواتها المنافسة لها أو المتقدمة عليها. وحتى وإن كانت النظرية اللسانية حظيت بقيمة "صادقة" وانتفى عنها وصف "كاذبة" فإن هذا لا يعني أنها بلغت مرتبة النجاح، بل قد تكون النظرية اللسانية، كما هو شأن النظريات في سائر العلوم صادقة ولكنها فاشلة بالنظر إلى المهمة التي تؤديها، كأن تكون توقعاتها غير واردة أصلا أو أن تكون النظرية ذاتها سببا في إلغاء ما تم الحكم عليه بأنه شيء تابع لموضوعها ومنتمي إليها، وبالمقابل يحكم على النظرية اللسانية بالنجاح إذا وصفت بعكس ما وصفت به النظرية الصادقة الفاشلة بحيث تكون توقعاتها موازية لموضوعها وغير متعارضة معه وألاّ تكون سببا في إقصاء ما ثبت أنه من أصل موضوعها"[196]"فلا يمكن أن يشذ عنه.

---

[195]- **محمد الأوراغي**، نظرية اللسانيات النسبية، ص18، ص238، وأيضا، **كارل بوبر** منطق البحث العلمي، ص165، ص429، **وروبر مارتان**، مدخل لفهم اللسانيات ص80، وكذا النسخة الأصلية ***R.Martin,*** *comprendre la linguistique, p69.*

[196]- ينظر تفصيل هذه الخطوات في **محمد الأوراغي**، الوسائط اللغوية،ج1/ص ص53-60.، وينظر أيضا، **ماريو بانج**، المنهج العلمي وتوظيفاته، ترجمة، عبد الكريم بزاز، ص ص61-62.

الفصل الثاني

المقاربة الإبستمولوجية للنظرية الغلوسيماتكية

1-إبستمولوجية هلمسلف اللسانية.
2-المنهج المتبع عند هلمسلف.
3-برنامج البحث العلمي عند هلمسلف.

اتضح مما سقناه في الفصل الأول أن الإبستمولوجيا اللسانية عموما هي الدراسة النقدية التي تعنى ببحث خصوصيات النظريات اللسانية، وذلك من حيث بنيتها النظرية ومنطلقاتها

الأولية، فضلا عن البحث في خصوصيات الفرضيات التي أسست عليها النظرية اللسانية بغض النظر عن كونها بنوية أو توليدية تحويلية أو غير ذلك.على هذا ستكون الإبستمولوجيا آلية كشفية تمنحنا إمكانية الوقوف على مكونات الأنساق النظرية اللسانية وتوجهاتها ومناهجها المختارة . من هذه الزاوية يمكن تحديد موقع الغلوسيماتيك باعتبارها نظرية لسانية تتضمن مباحث معرفية ومنهجية، لها قيمتها العلمية كما لها القابلية لأن تكون موضوعا صالحا للفحص الإبستمولوجي.

1- إبستمولوجية هلمسلف اللسانية:

تتميز الإبستمولوجيا اللسانية لهلمسلف ***L.Hjelmslev*** بسمات كثيرة، إلا أن الأهم فيها، وهو اللافت للنظر بشكل واضح في كتابه العمدة مقدمات في نظرية اللغة ***prolégomènes à une Théorie du langage*** أنها إبستمولوجية لسانية حاولت أن تحقق التميز بأخذها مما كان سائدا من نظريات وتصورات علمية، إبان تلك الفترة التي ظهرت فيها الغلوسماتيك ***la glossématique*** **(1930- 1943)** ولعل من أبرز التصورات العلمية التي كانت مشتهرة، وعليها ارتكز هلمسلف مباشرة هو انتشار التوجه الوضعي المنطقي الذي روج له كثيرا وفي محافل علمية متعددة روادُ حلقة فيينا ***vienne***"[197]"النمساوية، والتي كانت ترى من جملة ما ترى أن العلم لا يمكنه أن يحقق التقدم والاستمرارية في بناء صرحه بالموضوعية والدقة العلمية اللازمتين إلا بأمرين أساسين:

الأول: تجنب الميتافيزيقا وكل الفلسفات التأملية خاصة ذات التوجه المتعالي.

الثاني: ضرورة توظيف لغة علمية متطورة وصارمة بحيث تكون خالية من كل الأوهام الفلسفية وهي لغة المنطق الرياضي المجردة.

---

[197]- ينظر، **بريجيته بارتشت**، مناهج علم اللغة من هرمان باول إلى نعوم تشومسكي، ترجمة، حسن بحيري، مؤسسة المختار، مصر، ط2010/2، ص201.

إلى جانب النزعة الوضعية المنطقية، نجد هلمسلف متأثرا كثيرا بما قدمه دي سوسير ***De Saussure*** من أفكار لسانية ومنهجية خاصة فيما يتعلق بطبيعة اللغة التي جعلها دي سوسير شكلا وليست مادة، ناهيك عن المنهج الذي تبناه بقوة وهو الآنية، أو الدراسة النسقية للغة بعيدا عن كل سياق، فضلا عن ذلك كله تحديد دي سوسير موضوع اللسانيات الأساسي وهدفها وحصرهما في اللغة ذاتها، « ففي الواقع تعد العلاقات بين المفاهيم النظرية اللغوية لكلا اللغويين وثيقة للغاية فعند شرح الصعوبات في كتاب هلمسلف مداخل... أبرز بوجه خاص أن هذا الأخير قد تابع أفكار دي سوسير حتى النهاية بكل إصرار، وبخاصة فَهْمَ اللغة على أنها نظام من العلامات وتأكيد أهمية نظام للعلاقات والأفكار حول الشكل والمادة»"[198]".

وبالجملة، يمكن حصر ما تميزت به إبستومولوجيا هلمسلف اللسانية في محورين كبيرين:

أولهما محور فلسفي منطقي (وضعية فيينا وكارناب خاصة) ويضم الأفكار الفلسفية والمنطقية الآتية:

1- تجاوز الميتافيزيقا بكل أشكالها وتلويناتها.

2- الاعتماد على المنهج الوضعي التجريبي وهو إحدى نتائج المبالغة في رفض الميتافيزيقا المتعالية.

3- العمل على صياغة نظرية للعلم بلغة رياضية جبرية صارمة.

ثانيهما محور لساني بنوي (لسانيات دي سوسير تحديدا) ويضم أفكار دي سوسير اللسانية وأهمها اللغة نسق من العلامات مجرد، وتحليل اللغة تحليلا نسقيا مغلقا على ذاته، وهو ما سيترتب عليه عند هلمسلف القول بمبدأ المحايثة ***L' immanence*** وهو أحد الدعائم الأساسية في الغلوسيماتيك.

1-1-ففيما يتعلق بالمحور الأول: فإننا نلفي هلمسلف في غير ما موضع من كتابه المقدمات ***Les Prolégomènes*** يدعو إلى ضرورة التخلي، بل نبذ كل دراسة للغة من منطلقات الفلسفة المتعالية التأملية، مثلما كان الحال في الحقبة التي تقدمت ظهور اللسانيات الحديثة، وقد أوضح ذلك في سيـــاق حديثه عن هدف الدراسات اللسانية ذات التوجه الفلسفي المتعالي

---

[198]- المرجع نفسه، ص200.

Transcendantal بأنها لم تكن تنظر إلى اللغة ذاتها بل اتخذتها وسيلة لأهداف غير لسانية، وهكذا يقول هلمسلف: « **تعتبر اللغة معطلة عن كونها هدفا، وتتحول إلى وسيلة، وسيلة إلى معرفة موضوعها الرئيس يتموقع خارج اللغة ذاتها... إنها إذا وسيلة لمعرفة متعالية، بالمعنى الحقيقي التأثيلي للمصطلح، وليست هدفا لمعرفة محايثة**»"[199]"وهو ما كان يصبو إليه هلمسلف في كل بحوثه اللسانية.

وكذلك أوضح مدى ضعف وعدم صلاحية المناهج التاريخية والفيزيولوجية والفيزيائية والمنطقية في اللسانيات التقليدية باعتبارها مناهج غير لسانية خالصة وإن كانت درست اللغة؛ لأن مهمتها انحصرت في إنشاء روابط بين الشعوب عبر الحقب التاريخية وما قبل تاريخية على غرار اللسانيات المقارنة، فهي مناهج لم تزد على كونها فيزيولوجية أو فيزيائية أو أنطولوجية أو منطقية خالصة ،فهذا كله على حد تعبير هلمسلف، لا يخرجنا عن حقل الفيلولوجيا"[200]"التقليدية. وعليه فليست هذه المناهج المذكورة هي ما يمثل اللسانيات حقيقة، بل هي مجرد تراكمات لمواضيع غير لغوية.

فمن الواجب إذا إنشاء لسانيات مخالفة لتلك تماما، وهذه اللسانيات التي يدعو إليها هلمسلف لا ينبغي أن تكون « **علما بسيطا مساعدا ولا علما مشتقا، بل يجب أن تبحث في تناول اللغة لا باعتبارها تكدسا للمواضيع غير اللسانية (الفيزيائية، الفيزيولوجية، السيكولوجية، المنطقية، السوسيولوجية) ولكن باعتبارها كلاً يكتفي بذاته، إنها بنية، فليس يوجد إلا هذه الطريقة التي بها اللغة إذا ما أرادت أن تكون خاضعة للمعالجة العلمية...** »"[201]"، إن من أهم الأسباب التي دفعت هلمسلف إلى إنكاره البحوث اللسانية المتبنية للطرح الميتافيزيقي المتعالي هو انعدام الموضوعية فيها، لأنها كلها عنده لا تزيد على كونها تأملات ذاتية مما انجر عنها ضرورة أن تكون نتائجها ليست في صالح اللسانيات التي تحدد موضوعها في اللغة،

---

199 ***-L. Hjelmslev**, prolégomènes à une théorie du langage traduit du danois par una cange, Ed, Minuit, paris 1971, p10.*

200 *-Voir :Ibid, p10-12.*

201 *-Ibid, p12.*

بل هي عند التحقيق مجرد تراكمات لا تربطها أي علاقة بالدراسة العلمية للغة فضلا عن تعدد أهداف"[202]"الموضوع الواحد وهو اللغة بتعدد تلك العلوم.

وهذا جلي في تأثره بالفلسفة الوضعية المنطقية كما رسمت حدودها حلقةُ فيينا النابذة لكل فلسفة ميتافيزيقية بوصفها فلسفة خالية من المعنى، وقد جاءت هذه الفكرة الوضعية متضمنة « في مقال نشره كارناب ***Carnap*** عام **1932** بعنوان: استبعاد الميتافيزيقا من خلال التحليل المنطقي للغة... يؤكد فيه أن التحليل المنطقي للميتافيزيقا... قد أفضى إلى نتيجة سلبية مؤداها أن القضايا المزعومة في هذه المجالات تخلو تماما من أي معنى، ومن ثم لا بد من استبعاد الميتافيزيقا استبعادا تاما»"[203]"من البحوث العلمية بما في ذلك البحوث اللسانية، وهو ذات ما دعا إليه هلمسلف مرارا.

يرجع هذا التداخل في نظر هلمسلف إلى المسارات التي تقطعها العلوم قاطبة عبر الزمن، فَتَحْدُث فيها أشياء كثيرة إن زيادة أو نقصا، يقول هلمسلف مبينا ذلك: « **ككل الأنظمة العلمية الأخرى، عرفت دراسة اللغة عبر مر التاريخ محاولات فلسفية تبحث عن تبرير لمناهجها البحثية**»"[204]"، وعليه فما تعرضت له الدراسة اللغوية منذ القدم وحتى زمن هلمسلف لم يكن بدعا من الأمر، ولكن الأهم فيه أن التأملات الفلسفية لم تستطع أن تكون يوما ما هي الممثل الحقيقي للدراسات اللسانية لغلبة النزعة الذاتية على تلك التأملات الفلسفية في جهة، ولكونها متعالية جدا في جهة أخرى، يقول هلمسلف في ذلك: « **إن هذه التأملات هي في أغلب الأوقات ذاتية، وهي لأجل ذلك لم تحظ بعدد كبير من المدافعين عنها**»"[205]"، فأي مجهودات مبذولة في دراسة اللغة بهذه التأملات الفلسفية هي مجهودات لا طائل من ورائها على حد تعبيره"[206]".

---

[202] -*Ibid, p12.*

[203]- **دونالد جيليز**، فلسفة العلم في القرن العشرين، ص416.

[204]- ***L. Hjelmslev**, prolégomènes, p13.*

[205]- *Ibid, p13.*

[206]- *voir : Ibid, p13.*

بناء على ما تقدم، ومن طريق الاستلزام يتبن أن اللسانيات التي أسس لها هلمسلف هي لسانيات تتبنى أسلوبا إبستومولوجيا من نوع خاص، إنها بنوية خالصة لا تتعامل مع اللغة في سياقاتها المتنوعة، بل هي دراسة علمية محايثة لبنية اللغة، فهي بخلاف ما عرف من قبل من مناهج ودراسات لسانية؛ لذا ستكون نتائجها عاملا مساعدا على إعادة صياغة تلك المناهج اللسانية التقليدية بخاصة الفيلولوجية والموازنات الوراثية بين اللغات، صياغة عقلانية تتماشى مع الطرح الإبستمولوجي المعاصر

له، كتب قائلا: « **تسمح نتائج هذه اللسانيات الجديدة... بوضع قاعدة متجانسة لمقارنة اللغات، مما يجعلها تزيل الذاتية في إيجاد المفاهيم، التي هي العقبة الأساسية لدى الفيلولوجيين، إنها القاعدة الوحيدة التي من الممكن أن ترد لسانيات وراثية عقلانية**»"[207]".

من هذا المنطلق، سيكون العمل التنظيري في دراسة اللغة دراسة علمية عملا بنويا محايثا خالصا قادرا على « **إنشاء نظرية لغوية تكشف وتشكل لنا المقدمات الأولية، وتعين مناهجها وتثبت طرقها**»"[208]".

وعلى العموم، ما يمكن أن يستخلص من كلام هلمسلف هو أنه كان يتبنى فكرة نبذ كل الطرق والمسالك الفلسفية التأملية المتعالية في دراسة اللغة، وعمل على إنشاء نظرية لسانية ذات مواصفات علمية تسمح بمواجهة ما تم إنجازه منذ القدم على أنه بحوث لسانية علمية، كما تسمح من طريق آخر بدراسة اللغة بالمنهج العلمي السائد وقتئذ، وهو المنهج التجريبي ذو النزعة الوضعية المنطقية كما حددته حلقة فيينا.

1-1-2- الصورنة أو الصياغة التجريدية للقضايا اللسانية:

بقي مما له صلة بالمحور الأول الاستعانة بلغة رياضية رمزية في صياغة المقولات أو القضايا اللسانية، وهذه اللغة الرمزية المجردة هي ما بات يعرف بالصورنة ***la formalisation*** وهي أعلى مراتب الدقة العلمية والموضوعية، لأنها تضمن عدم الإحالة إلى الذاتي الذي يختلف باختلاف

---

[207] - *Ibid, p12.*
[208] - *Ibid, p12-13.*

الناس المدركين"[209]"، وفعلا فقد حاول هلمسلف صياغة لغة جبرية تكون صالحة في دراسة اللغة، وقد تجلى ذلك جيدا في كتابه محاولات لسانية ***Essais linguistiques*** ومختصر النظرية اللغوية ***Résumé d'une théorie du langage***"[210]".

إن المسوِّغ الأساسي الذي اعتمد عليه هلمسلف بوجه خاص في إنشاء حساب منطقي في اللسانيات على غرار الرياضيات، هو تلك الأعمال المتقدمة في مجال المنطق الرياضي التي توصل إليها كل من راسل ***Russel***، ووايتهيد ***Whitehead*** وكارناب ***Carnap*** وتحديدا إقامة روابط بين اللغة المنطقية واللسانيات"[211]"ووضع نحو منطقي وعلم دلالة صوري بصيغ رمزية مجردة على اعتبار أن المنطق الرمزي هو الطريقة الأسمى التي بها استطاعت الرياضيات كما الفيزياء أن تحقق صعودا وطفرة هائلة. وبناء على هذا تضافرت الجهود بين الرياضيين والمناطقة على وضع لغة عليا ***Métalangage*** توصف بالتجريدية والمنطقية، والغرض منها ضبط التعاريف العلمية، وأمثلة المفاهيم والمعطيات التجريبية.

وعلى هذا لم تكن اللغة الطبيعية هي لغة العلم المناسبة لعدم اتصافها بالصرامة المنطقية، ولعدم استقلالها عن الخلفيات الذاتية والمعاني الحدسية، لذا اتفق علماء الرياضيات والمناطقة على أن خدمة متطلبات العمل العلمي بإمكانها أن تصل إلى درجة مثلى من الضبط والدقة العلمية باستخدامها للغة رمزية مجردة يجري تنظيمها على نحو يضمن الحد الأقصى من الاتصال الدقيق"[212]".

ومن جانب آخر لم يكن هلمسلف وحده في السعي إلى وضع لغة رياضية جبرية تخص اللسانيات الغلوسيماتيكية، بل كان لزميله أولدال ***Uldall*** السبق في ذلك باعتباره الرجل الثاني المؤسس للغلوسيماتيك، ولكن كلاهما كان يهدف إلى "إقامة حساب تحليلي جبري... يمكن أن

---

[209]- ينظر، **وداد الحاج حسن**، نهاية الوضعية المنطقية، ص58. وينظر فيما يتعلق باللغة الرمزية،**أبو يعرب المرزوقي**، الإبستومولوجيا البديل، مراس العلم وفقهه، دار المتوسطية، تونس ط2007/1، ص ص102-103.

[210]- بالنسبة لكتابه "مختصر النظرية اللغوية" ينظر النسخة الإلكترونية في: *http : //résumé, univ-rennes1.Fr.*

[211]- *voir : **Hjelmslev**, Essais linguistiques, preface de francois rastier.ed de minuit paris.1971. p40-41.*

[212]- ينظر، **ميلكا إيفيشت**، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: سعد مصلوح ووفاء فايد، المجلس الأعلى للثقافة ط2000، ص343.

تقدر بناء عليه كل إمكانات التأليف في اللغة المعينة وهي في الحقيقة أيضا تلك التي لم تتحقق بعد في النصوص الموجودة ولكن تحددها النظرية بأنها ممكنة، أي: تقدرها أو تتوقعها"[213]".وقد تجلت هذه الجهود المتميزة لدى هلمسلف في اختزاله هذا الجبر المنطقي في مفهوم الغلوسماتيك ***La glossématique***، وهو جبر محايث كما وصفه في سياق حديثه عن مقترحات نظريته اللسانية بقوله: « **وقد اقترحت"[214]" إنشاء هذا الجبر المحايث للسان، من أجل تسجيل انفصالها عن الدراسات اللسانية السابقة، واستقلالها عن مبدأ الجوهر الخارج-لساني، سنعطي لهذا الجبر المحايث اسما خاصا... نطلق عليه "الغلوسيماتيك،... ونفهم من "الغلوسيم" الأشكال الصغرى التي تطلقها النظرية بوصفها قواعد للتفسير، أي": الثوابت غير قابلة للاختزال**»"[215]"، فهذا تصريح من هلمسلف بتبنيه لمنطق رياضي جبري ومحايث، به تتم صياغة المقولات والقضايا اللغوية عموما، وعليه فالغلوسماتيك هي نظرية لسانية بمواصفات رياضية جبرية، الغرض منها وضع قوانين لسانية رمزية قابلة للتعميم عن طريق آلية الصورنة.

يمكننا أن نأخذ نماذج من كتابه "محاولات لسانية" التي برزت فيها اللغة الرمزية المنطقية أو صورنة بعض القضايا اللسانية كالآتي:

يقول هلمسلف: « **بشكل عام، في النظام الرمزي الذي سيستعمل في الغلوسماتيك توجد كميات (مقادير) المحتوى... يكون مرموزا إليها بالحروف الإغريقية، وكميات (مقادير) التعبير... بالحروف اللاتينية (إيطالية أو رومانية). لكي يرمز لكمية لأي من الصعيدين الاثنين نستعمل حرفا لاتنيا سابقا على نجمة في أسفل السطر مثلا: g* وهو رمز لغلوسيم، بينما y فيرمز خاصة لغلوسيم المحتوى وg غلوسيم التعبير. بالمثل يدل G* على تاكسيم و Tتاكسيم المحتوى وG تاكسيم التعبير**»"[216]"، ثم أضاف قائلا: « **ولكي نعين التجلي (العلاقة**

---

[213]- **كلاوس هيشن**، القضايا الأساسية في علم اللغة، ص102.

[214]- أي :النظرية اللسانية.

[215]-***Hjelmslev***, *prolégomènes, p102-103, et p123-124.*

[216]- ***Hjelmslev***, *Essais linguistique, p48-49.*

النوعية بين الشكل والمادة) فإننا نستعمل العلامتين ٧و٨ ، اختير هذان الرمزان ليمثلا كلمة "قيمة»"[217].

ولا بأس أن نذكر بعضا من تلك الرموز التي وظفها هلمسلف كي تدل على مفاهيم لسانية تميزت بها الغلوسماتيك خاصة، فقد اختار العلامة" ° " لتدل على الطبقة أو الفئة، وسيكون هذا الرمز مصحوبا للرموز السابقة لتدل مجتمعة على مفاهيم أخرى مشتقة منها، مثال ذلك: **« g* = الشكل السيميائي (شكل المحتوى أو شكل التعبير، شكل بغض النظر عن صعيد أو في كلا الصعيدين على السواء، والمفهوم في جملته).**

Y° = شكل المحتوى (في جملته).

g° = شكل التعبير (في جملته).

g* ^ ° = المادة السيميائية (مادة المحتوى أو مادة التعبير، مادة بغض النظر عن صعيد أو في كلا الصعيدين من غير تمييز، والمفهوم في جملته).

Y° ^ = مادة المحتوى (في مجموعها).

g° ^ = مادة التعبير (في مجموعه)»[218].

والحق أن ما قام به هلمسلف من استعماله لهذه الرموز المستعارة من المنطق الرياضي الرمزي خاصة، يدل على تطلعه لصياغة نظرية لسانية ذات مواصفات جبرية، فتكون تبعا لذلك لغة واصفة لا موصوفة، على حد تعبير علماء المنطق والرياضيات الذين استطاعوا أن يبتكروا لغة علمية مجردة صالحة لوصف العلوم المختلفة أو على الأقل العلوم الدقيقة.

إن هذا المنحنى الصوري الذي وظفه هلمسلف يفيد في نظره في ابتكار لغة شارحة في حقل اللسانيات من جهة، ومن جهة أخرى إشارة واضحة على الميل المفرط في حب التميز عن النظريات اللسانية المعاصرة للغلوسماتيك تحديدا حلقة براغ اللسانية، هذا أمر اشتهر به رواد الغلوسماتيك وعلى رأسهم هلمسلف، وأولدال. هذه عينة من مجموع الرموز التي استخدمها هلمسلف، وإلا فإن هناك المزيد منها نذكرها لأهميتها مثل: **y° (V)** وهو رمز دال على مفهوم المحتوى، والرمز **g°(V)** يرمز إلى صعيد التعبير، وأما الصعيد« ***plan*** **»** ذاته فقد خصه بالرمز

---

[217]- *Ibid, p49.*
[218]- *Ibid, p49-50.*

g°(V)*،كما ابتكر معنى جديدا لمفهوم معروف في اللسانيات البنوية ونعني به مفهوم الترابط وخصه بالرمز**( )**، في حين ميز مفهوم اللغة بالرمز **L**، فمثلا يقرأ هذا الرمز **Ly°g°(V)R** نصا، ويقرأ الرمز**Ly°g°(V)** سميائية لسانية"[219]".

وبالعودة إلى كتابه "مختصر في نظرية اللغة" نصادف كثيرا من التعريفات اللسانية المركزة جدا والمرموز إليها هي الأخرى برموز مماثلة لما في المحاولات، فعلى سبيل المثال لا الحصر مفهوم العلامة عبَّر عنه بالرمز **yg**، و عبَّر عن مفهوم الفعل بالرمز **p°x(*n)***"[220]" وهكذا مع باقي المفاهيم اللسانية.

ما يمكن فهمه من هذا التوجه الرياضي الجبري الذي اتبعه هلمسلف هو البحث عن طريقة علمية دقيقة تمكن من وضع نظام من القواعد يتمتع بالبساطة والرسوخ، لأنه عن طريق لغة رمزية تتم البرهنة على إمكانية إنجاز صياغة دقيقة وبراهين راسخة"[221]"لكثير من القضايا العلمية، فلِمَ لا تتخذ اللسانيات البنوية هذا السبيل؟

اختصارا نقول: إن الفصل الذي جاء بعنوان "تنضيد اللغة" ***La stratification du langage***"[222]" حافل بالرموز الدالة على المفاهيم اللسانية الغلوسماتيكية، وكذا شأن مختصر النظرية اللغوية على الرغم من صغر حجمه إلا أنه حوى أكثر من أربع وخمسين وأربعمائة تعريف **(454)** مركز ومصّورَن مما ينبئ عن توجه منطقي رياضي جبري مجرد وصارم في لسانيات هلمسلف، وهو نفسه سيجلب له كثيرا من الانتقادات المصاحبة لكثير من العزوف عن برنامج هلمسلف اللساني.

1-2- أما فيما له صلة بالمحور الثاني وهو المنطلق اللساني السوسيري، فإنه لم يكن حضوره بأقل من الوضعية المنطقية في الغلوسيماتيك، وقد تجلى بوضوح في كثرة الإشارات والإحالات التي نجدها في كتابي هلمسلف المقدمات ***Prolégomènes*** والمحاولات ***l'essais***"[223]"ذلك أن أفكار دي سوسير ***De Saussure*** اللسانية والمنهجية فتحت أبوابا واسعة أمام هلمسلف، حتى قيل عنه

---

[219]- *Ibid, p50.*

[220]- *voir :* ***Alain Herreman****, Analyser l'analyse, dicrire la description, une Introduction au Résumé d'une théorie du langage de, L.Hjelmslev, p03 et P11,27, 28.*

[221]- ينظر، **وداد الحاج حسن**، نهاية الوضعية المنطقية، ص ص103-104.

[222]- *voir :* ***Hjelmslev****, Essais, de p45 à 76.*

[223]- *voir :* ***Hjelmslev****, prolégomènes p14 -65 -103 -156… ; et Essais p30-32-35-38.-78-79.*

بأنه تتمة لدي سوسير، بل أكثر من ذلك، الغلوسيماتيكيون هم سوسيريون جدد، وربما وصف بعضهم الغلوسماتيك بالنظرية التي حققت لسانيات دي سوسير فعليا"[224]".

ومن دون الدخول في تفاصيل جزئية يحسن بنا أن نحصر أهم ما جاد به دي سوسير على هلمسلف، أو بالأحرى، ما أثر في هلمسلف من تصورات ومفاهيم وضعها دي سوسير على النحو الآتي:

1-2-1-اللسان شكل وليس مادة:

أول ما لفت انتباه هلمسلف هو عدُّ دي سوسير اللسان شكلا وليس مادة، يقول هلمسلف في ذلك « **لقد صرح دي سوسير بعبارة واضحة بأن اللسان شكل وليس مادة، وهذا عموما يتطابق مع وجهات نظره العامة**»"[225]". وإن كان أظهر شيئا من التحفظ على مصطلح اللسان في مواضع من كتاب دي سوسير لكونه مستعملا بمعان متعددة، مما أكسبه شيئا من عدم الوضوح على حد تعبيره"[226]"،ولكنه على الرغم من ذلك فإنه أكد أن الشيء الذي يعنيه من مفهوم اللسان السوسيري هو أن يكون شكلا بسيطا، أو باعتباره ترسيمة مستقلة عن الاستعمال"[227]" الفعلي.

وقال في موضع آخر من كتابه "المحاولات" ما يلي « **أولا اللسان، يمكننا أن نعده شكلا خالصا محددا في استقلال عن حدثه الاجتماعي وعن تمظهره المادي**»"[228]". فيتبين من هذا كله أن هلمسلف جعل دي سوسير بحق منطلقه اللساني الخاص، وعلى أقواله أسس فكره اللساني الثائر على كل الأنساق اللسانية التقليدية، ناهيك عن هذا رغبته الواضحة في إعادة صياغة المفاهيم السوسيرية من خلال تعميقها وفق ما تتطلبه المبادئ الإبستمولوجية المعمول بها في ذلك الوقت"[229]"، سعيا منه إلى تطوير مفاهيم دي سوسير وقراءتها بطريقة جديدة تسمح

---

[224]- *voir :* ***Robins****, Brève histoire de la linguistique de Platon à Chomsky, traduit de l'anglais par Maurice Borel, Ed du seuil, paris 1976, p209, et aussi* ***osward Ducrot*** *et* ***Jean Marie schæffer****, Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Ed du seuil, paris 1995, p42.*

[225]- ***Hjelmslev****, Essais, p38.*

[226]- *voir, Ibid, p38-39.*

[227]- *voir, Ibid, p40.*

[228]- *Ibid, p81.*

[229]- ينظر، **محمد محمد العمري** الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية ، ص101، وينظر أيضا:

Jean Damarc*, la glossématique et l'esthétique, in langue française, N° 03,1969 p102.*

فيما بعد بإعطائها الصيغة الرياضية المنطقية كي تبلغ درجة عالية من الدقة، وكذلك التجريد الذي يؤهلها لأن تصبح مفاهيم قابلة للتعميم خاصة إذا علمنا أن الهدف الأسمى لدى هلمسلف هو وضع جبر لغوي صارم.

لقد أكَّد هذا المنحنى الذي اتخذه هلمسلف في إنشاء نظريته في اللغة العديدُ من اللسانيين الغربيين على غرار آن إينو ***Anne Hénault*** في سياق حديثها عن تأثره بطريقة دي سوسير حيث قالت عن كتاب "المقدمات" « يوضح أن الحلقة اللسانية لكوبنهاقن سلكت بجهودها الخاصة جزءا كبيرا من الطريق الذي قطعه دي سوسير، وتحيل المقدمات باستمرار على دي سوسير، وقد يحدث أن تكون إعادة ابتكار لسوسير في فقرات شخصية جدا... »"[230]"، والأمر نفسه نجده عند كل من موريس لوروا ***M.Leroy*** وماري آن بافو ***M.Anne Paveau*** وإيليا سارفتي ***Elia Sarfati*** وكذلك ديكرو ***O.Ducrot*** وإميل بنفنيست ***E.Benveniste***"[231]".

إن أهم شيء يترتب على التأثر بمفهوم "اللسان شكل وليس مادة" هو تعميق النسقية السوسيرية أيضا، وقد تجلى ذلك في كثير مما كتبه هلمسلف، إذ نجده يقرر بأن اللغة يجب أن تدرس دراسة نسقية، وأن الموضوع الرئيس للسانيات الغلوسماتيكية هو اللغة بعيدا عن كل العلاقات والترابطات غير لغوية، والقصد من وراء ذلك هو بناء نظرية لسانية خالصة، وشرط ذلك عنده إقصاء كل أنواع السياقات الحافة بها، وعدم التعويل على دراسات ادعت أنها لسانية صرف، يبد أنها عند الفحص لا تزيد على كونها بحوثا ودراسات لا تربطها أي صلة باللغة، وهذا ما لا حظه هلمسلف في أعمال اللسانيين الذين عرفوا في القرن التاسع عشر وقبله.

وفي جانب آخر لم يقتصر عمل هلمسلف على القضية اللسانية الأولى التي نادى بها دي سوسير، بل طالب أيضا أن يتعامل مع اللغة معاملة علمية، وليس يوجد ما هو أجدر بذلك من المنهج الوصفي ذي النزعة النسقية الذي يؤدي في النهاية إلى وضع لسانيات بنوية محايثة تتصف بالعمق والجدة، فضلا عن الموضوعية والدقة العلمية وتخلِّصها من كل ما علق بها طيلة الحقب

---

[230]- **آن إينو**، تاريخ السيميائية، ص62.

[231]- *voir : **M.leroy**, les grands courants de la linguistique moderne, p94. et **M.A.Paveau** et **G.E.Sarfati**, les grandes théories de la linguistique, p127, et **O.Ducrot**, et **J.M.Schaeffer**, nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p42-43. et **E.Benveniste** problèmes de linguistique générale, Ed, Gallimard, paris, 1966, tom1, p13.*

التاريخية التي مرت بها البحوث اللغوية، يقول في ذلك: « **يلزمنا القدرة على تصور علم لا يمثل فقط اللغة باعتبارها كتلة من العناصر المنطقية والتاريخية، والفيزيولوجية، والفيزيائية والسيكولوجية والسوسيولوجية، ولكن أن تُتَصور كلاً من طبيعة خاصة**»"[232]".

وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعض أقواله من المقدمات، ولا بأس أن نذكِّر بها لأهميتها الإبستمولوجية خاصة في عزل اللغة عن كل العلوم والسياقات المحيطة بها، يقول في سياق حديثه عن اللسانيات النسقية: « **يجب ألا تكون علما بسيطا مساعدا، ولا علما مشتقا، بل يجب أن تبحث في تناول اللغة لا باعتبارها تكدسا لمواضيع غير اللسانية (الفيزيائية، الفيزيولوجية، السيكولوجية، المنطقية، السوسيولوجية) ولكن باعتبارها كلاً يكتفي بذاته، إنها بنية**»"[233]".

لقد برزت جهود هلمسلف جلية في تعميق نسقية دي سوسير بدعوته الصريحة إلى وضع أو إنشاء لسانيات محايثة، تلغي كل البحوث اللسانية المتأثرة بالفلسفات الميتافيزيقية المتعالية، كتب قائلا: «**تبحث النظرية اللغوية عن معرفة محايثة للسان إلى حد كونها بنية نوعية بحيث لا تؤسس إلا على ذاتها... إننا نبحث عن ثابت في داخل اللسان ذاته وليس خارجه**»"[234]". وبالفعل لقد صارت فرضية المحايثة في نظرية هلمسلف هي النواة الصلبة التي أسست عليها الغلوسماتيك عموما إلى جانب فرضية البنية.

وتأسيسا على هذا تحولت الغلوسماتيك إلى الممثل الأول والحقيقي للسانيات العلاقات الداخلية بين العناصر اللغوية، يقول هلمسلف مبينا ذلك «**... الوحدات الحقيقية للغة ليست هي الأصوات، أو الحروف المكتوبة، أو الدلالات، بل الوحدات الحقيقية للغة هي العلاقة التي تمثلها تلك الأصوات والحروف، والدلالات، المهم ليست الأصوات والحروف والدلالات كما هي، ولكن علاقاتها المتبادلة داخل سلسلة الخطاب، وداخل براديغم النحو**»"[235]"، ففي هذا النص ما يدل أيضا على أن الغلوسماتيك طورت أفكار دي سوسير،

---

[232]- ***Hjelmslev****, le langage, traduit du danois par Michel Olsen preface de A.J.Greimas, Ed, de Minuit, paris 1966, p25.*

[233]- ***Hjelmslev****, prolégomènes, p12.*

[234]- *Ibid, p31, et p102-103.*

[235]- **Hjelmslev**, Essais linguistiques, p35.

وأعطتها بُعدًا أكثر عمقا في إطار الصيغة الرياضية الجبرية والتي عبرها يتم إقصاء الحدث اللساني بكل تقلباته وتغيراته هذا في جانب، والعمل داخل منظومة محدودة العناصر ومغلقة على ذاتها"[236]"بشكل غاية في الإحكام والاتساق في جانب آخر.

إن لهذا التصور اللساني لدى هلمسلف امتدادا فلسفيا يعود إلى ما جسده رواد حلقة فيينا لا سيما "رودولف كارناب ***R.Carnap*** " الذي اهتم به هلمسلف بشكل صريح، وتحديدا كتابه "البناء المنطقي للعالم" الذي بيّن فيه المنهج البنوي في العلم، وفيه أيضا بيّن ما المقصود بالبنية أو العبارات العلمية البنوية، وكذا العلاقات الداخلية، فقد عنون أحد فصول كتابه المذكور كالآتي: "كل العبارات العلمية عبارات بنوية" يقول كارناب: «... والنتيجة هي أن كل عبارة علمية يمكن مبدئيا أن تحول بحيث تغدو مجرد عبارة بنوية، بيد أن هذا التحويل ليس ممكنا فقط، بل واجبا، وحيث إن العلم يسعى إلى الحديث عن ما هو موضوعي، فإن أي شيء لا ينتمي إلى البنية، بل إلى ما هو مادي... هو في نهاية التحليل ذاتي»"[237]"، ما هو ملاحظ على هذا القول هو ذلك التطابق التام مع ما عند هلمسلف أي: التوجه البنوي الذي يسمح بدراسة اللغة دراسة نسقية ومحايثة، لذا فإن إشاداته بكارناب لم تكن محل صدفة بل هو تأثر واضح جدا به.

تلخيصا لما تقدم، يمكن أن نعد ما ذكرنا أهم الخصائص الإبستمولوجية التي طبعت التوجه الغلوسماتيكي الهلمسليفي في اللسانيات، وهذا بناء على العقلية العلمية التي كانت سائدة في أوروبا في تلك الحقبة من الزمن، إذ يكون بمقدورنا اعتبار ما تقدم سياقا فكريا مخيما، وإبستمولوجيا علمية فرفضت نفسها معرفيا ومنهجيا ليس على اللسانيات البنوية أو لسانيات هلمسلف، بل على علوم أخرى في مقدمتها الفيزياء والرياضيات والمنطق والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع.

2- المنهج المتبع عند هلمسلف:

---

[236]- *Voir :* ***Sylvain Auroux*** *et* ***autres****, la philosophie du langage, Ed, puf, paris2004, p07-08.*

[237]- **رودولف كارناب**، البناء المنطقي للعالم والمسائل الزائفة في الفلسفة، ترجمة يوسف تيبس، المنظمة العربية للترجمة، ومركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2011/1، ص ص142-143، وص243.

سبق وأن أشرنا إلى طبيعة المنهج الموظف في البحوث اللسانية، وكنا بّينا أن ما أنتج من نظريات وتصورات لسانية في العالم الغربي لم يكن ليخرج عن نزعتين بارزتين في العلم عموما هما: النزعة الاستقرائية ذات الخلفية الباكونية، والنزعة الاستنباطية ذات الخلفية الغاليلية، بقي علينا بيان أي من النزعتين ارتضاها هلمسلف لأن تكون منهجا صالحا لدراسة اللغة الإنسانية، وعليه يكون مشروعا طرح السؤال الآتي: هل كان هلمسلف من حيث المنهج الذي اتبعه باكونيا أم غاليليا ؟ أو بعبارة أخرى، هل كان يحكمه التوجه الاستقرائي في معالجته للقضايا اللغوية أم كان يميل إلى استخدام توجه الفرض والاستنباط في ذلك كله ؟ هذا ما ستكشف عنه كتاباته خاصة في المقدمات والمحاولات.

2- 1- الاستقراء:

في الفصل الذي خصصه للاستقراء من كتابه مقدمات في نظرية اللغة، بيّن هلمسلف أن لا ينبغي على اللساني أن يبقى أسيرا للمنهج الاستقرائي، وذلك بناء على المبدأ التجريبي الذي صاغه في نظريته الغلوسيماتيك، كما سيأتي بيانه في موضعه، لكونه مبدءا لا يتوافق والنزعة الاستقرائية لاختلاف معناه عن معنى التجريب السائد ،يقول هلمسلف: « **إن تأكيدنا للمبدأ التجريبي لا يجعلنا البتة أسرى المنهج الاستقرائي، إذا فهمنا من خلال ذلك لزوم العبور التدريجي من الخاص إلى العام أو من موضوع محدود إلى آخر...** »"[238]".

إنّ ما يمكن أن يفهم من هذا القول ابتداء هو أن هلمسلف يظهر تحفظا من المنهج الاستقرائي***L'induction*** خاصة إذا علمنا،كما هو ظاهر قوله، أنه يقيم فرقا وفصلا ضمنيين بين مفهوم التجريب عنده وعند غيره من العلماء، ففي هذا ما يوحي إلى أن هلمسلف لا يأبه كثيرا بالمنهج الاستقرائي ،مما يعني من جهة أخرى إمكانية توظيف المنهج المعاكس وهو الاستنباط ***la déduction***، فهل هذا راجع إلى كون الاستقراء لا يصلح منهجا لسانيا أم لأنه منهج ُطبِّق بامتياز في اللسانيات التقليدية ؟ يمكن أن نظفر بإجابة من لدن هلمسلف ذاته: يقول مبينا ذلك:

---

[238]- ***Hjelmslev****, prolégomènes, p20.*

«...ما المقصود حاليا إلا ضبط موقعنا بإزاء اللسانيات السابقة، إنها تتصف نمطيا ببناء تراتبية للمفاهيم التي تنتقل من أصوات خاصة إلى فونيمات (فئة الصوت)، ومن الفونيمات الخاصة إلى مقولات الفونيمات، من الدلالات المختلفة إلى الدلالة العامة أو الأساسية، وأخيرا إلى المقولات الدلالية»"[239]".

يكشف هذا القول عن التوجه الاستقرائي، وهو منهج عُمل به في اللسانيات التقليدية التي نعتها هلمسلف بالسابقة، وبالفعل كما وصف، فهو منهج يكون فيه الانتقال من الأجزاء أو الوقائع الجزئية في الطبيعة لأجل بلوغ القواعد والقوانين العامة أو الكلية التي تسمح بصياغة النظريات العلمية، إنه منهج يبدأ من التجربة والملاحظة ليصل في نهاية المطاف إلى مبدأ عام أو نظرية كلية، والأمر كذلك لسانيا، بحيث ينتقل فيه اللساني من رصد للوقائع اللغوية الجزئية عن طريق الملاحظة والتجربة والجمع ليصل في نهاية الطريق إلى صياغة قانون لساني كلي، يمكن أن يكون نظرية لسانية تطبق نتائجها على سائر اللغات الإنسانية الممكنة.

إن هذا المنهج مبني على قاعدة فلسفية تقتضي أن قوانين الطبيعة المرصودة هي قوانين ثابتة لا تقبل التبدل أو التغير، فيتحصل لدى الاستقرائي منطقيا بأن النتائج تكون من جنس تلك القوانين، أي: نتائج ثابتة لا تقبل المعارضة أو الدحض، فهذا إذًا منهج يتضمن قواعد بسيطة جدا مثلما نص على ذلك باكون"[240]"تسمح بملاحظة الظواهر واستخلاص النتائج.

وتأكيدا لهذا الزعم بيّن هلمسلف استحالة أن يكون المنهج الاستقرائي هو المنهج المناسب في البحوث اللسانية، ففي رأيه يكون « **من المستحيل إذا أن نستخلص اللسان استقرائيا من الكلام، ومن المستحيل أن نستخلص الاستعمال استقرائيا من المعيار، إن مجال التغير هو دائما أقل حجما في الاستعمال منه في المعيار، واستعمال معطى لا ينشئ إلا تحقيقا لبعض الإمكانات الجائزة من خلال المعيار دون أن يستوفيها»"**[241]"، ولكن هذا المنهج هو الذي كان مهيمنا على اللسانيات عموما، وربما الذي حمل اللسانيين على اتخاذ الاستقراء طريقة علمية في اللسانيات هو بساطة قواعده، وابتعاده عن وضع الفرضيات في أول الأمر، فهو بكل

---

[239]- *Ibid, p20.*

[240]- ينظر: **ماريو بانج**، المنهج العلمي وتوظيفاته، ص ص59-60.

[241]- ***Hjelmslev**, Essais linguistiques, p139.*

بساطة الانتقال من الأجزاء إلى الكل. إنه الحركة التي تركب عوض أن تحلل، وتعمم بدل أن تخصص"[242]".

إن أول مشكل يواجه الاستقراء في نظر هلمسلف هو الوقائع أو المعطيات التجريبية بحد ذاتها، لأنها وإن كانت هي المبدأ في ذلك كله، فإنها في النهاية لا تقود إلا إلى وضع مفاهيم متعددة باعتبارها حقائق"[243]"، فما يمكن رصده أو ما تم رصده من ظواهر لسانية في لغة أو أكثر مثل اليونانية أو اللاتينية"[244]"،كما مثّل لذلك هلمسلف، لا يغطي كل اللغات، بمعنى أنه لا يحق أن نوسع دائرة الوقائع اللغوية المرصودة ومن ثَم تعميمها انطلاقا منها، فالاستقراء بهذا المعنى وفي هذا الميدان على حد تعبير هلمسلف: **«لا يقود من المتغيرات إلى الثابت فقط، ولكن من المتغيرات إلى المصادفة»**"[245]"أو العرضي، فهو عند التحقيق يدخل في **« صراع مع المبدأ التجريبي الذي صغناه، إنه لا يسمح بتقديم وصف غير متناقض وبسيط»**"[246]". فهل هذا الانزياح عن المنهج الاستقرائي الذي طالما استخدمته اللسانيات عائد إلى نهاية مرحلة إبستمولوجية والتهيؤ لدخول مرحلة إبستمولوجية جديدة ؟

قد يكون الأمر كذلك، ولكن الشيء الظاهر هو أن السبب في ذلك يعود إلى تشبع هلمسلف بالمعارف الرياضية ذات التوجه الأكسيوماتيكي خصوصا في تلك الحقبة التي ظهرت فيها اللسانيات الغلوسيماتيكية؛ بحيث سيطرت النظريات الرياضية التي توصل إليها كل من فريج (***Frege***) ووايتهد ***Whitehead*** وراسل ***Russell*** وأيضا فيجنشتاين ***wittgenstein*** وغيرهم، فكان من الطبيعي أن يحدث انقلاب على المستوى المنهجي تحديدا في دراسة مختلف الظواهر، ومن ثم كان احتكاك اللسانيين وهلمسلف أحدهم بالرياضيين أمرا لابد منه، وهو ما حدث فعلا في النظرية اللسانية الغلوسيماتيكية التي حاول هلمسلف أن يضعها على الطريقة الرياضية الجبرية كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

---

[242]- *Voir : **Hjelmslev**, prolégomènes, p20.*
[243]- *Voir : ibid, p20.*
[244]- *Voir : ibid., p21.*
[245]- *Ibid, -p21.*
[246]- *Ibid, -p21.*

وههنا أمر آخر قد يجد مسوغا له في هذا السياق، وهو ظهور النزعة التكذيبية في العلم والتي قادها كارل بوبر ***K. Popper***، إذ الغاية منها هو تفنيد المزاعم الاستقرائية ودحض الفلسفة الوضعية المنطقية، خاصة أهم مبدأ فيها وهو مبدأ التحقق الذي عوضه بوبر بمبدأ التكذيب أو الدحض، وبهذا استبدل الاستقراء بمنهج الاستنباط والنظريات بالخبرة"[247]"، وقد أفرز هذا التحول الإبستمولوجي جدلا ونقاشا علميين في العالم الغربي، وبديهي أن لا تكون اللسانيات بعيدة عن هذا الحراك العلمي.

بيد أننا نصادف وجهة نظر أخرى لدى كورناي ***Corneille*** الذي عد هلمسلف اللساني البنوي الذي تأرجح بين الاستقراء والاستنباط"[248]"، فهو في نظره لم يكن استقرائيا خالصا كما أنه لم يكن استنباطيا خالصا. ولهذا الرأي في نظرنا ما يبرره، ذلك أن هلمسلف تأثر بالوضعية المنطقية تأثرا واضحا لا يمكن إنكاره، ويتمثل ذلك فيما يتعلق بدي سوسير، فهو من هذا المنظور استقرائي بامتياز، في حين نجده يتبنى في جانب آخر الأطروحات الرياضية الأكسيوماتيكية، وكذا جوهر مشروعه اللساني هو الصياغة الجبرية للغة، ومعلوم بأن هذا أمر لا يتم إلا بوضع نظرية استنباطية عن طريق الصورنة والتجريد والتخلي عن الواقع التجريبي المباشر، فهو بهذا الاعتبار استنباطي بامتياز.

2- 2- الاستنباط:

تأسيسا على ما تقدم، وعندما نتصفح أقوال هلمسلف يتبين بأنه ميّال إلى توظيف النزعة الاستنباطية؛ لذا سيحظى المنهج الاستنباطي بحضور كبير في كتاباته اللسانية، فقد جعله في مقابلة الاستقراء، يقول في المقدمات « **نستطيع تعريف هذا المنهج بإيجاز، باعتباره معبرا من الفئة إلى الأجزاء، وليس مثل المنهج الاستقرائي، إنه الحركة التي تحلل وتعين وليست الحركة التي تركب وتعمم، إنه عكس المنهج الاستقرائي كما تعرفه اللسانيات**

---

[247]- ينظر، **كارل بوبر**، منطق البحث العلمي، خاصة الفصل الأول، ص[63]. وأيضا **كارل بوبر**، الاستقراء، الاستنباط، الحقيقة الموضوعية، ترجمة، لخضر مذبوح، ضمن كتاب، فلسفة كارل بوبر، دار الألمعية، قسنطينة، الجزائر، ط1/2011، من ص[205] إلى ص[213].

[248]- ينظر، **محمد محمد العمري**، الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية، ص144.

التقليدية»"[249]". فأول ما يتبادر إلى الذهن من هذا القول هو أن الطريقة الاستنباطية هي المَقَدَّمة على نظيرتها الاستقرائية عند هلمسلف، اعتقادا منه بأن التعويل على التجربة وحدها قد لا تكون كفيلة أو كافية في تقديم إجابات علمية ودقيقة لكثير من القضايا اللغوية العالقة، بل للفرضية والاستنتاج دور بارز في حل المشاكل اللغوية، لذا نلفيه يرد المنهج الاستقرائي إلى البحوث اللسانية التاريخية والمقارنة، وما تفرع عنهما.

وهناك جانب آخر يتحدد في ضرورة عدم إغفال طموح هلمسلف نفسه في أن تكون الغلوسيماتيك نظرية لسانية ذات صبغة رياضية جبرية، وكما هو معلوم فإن هذه الطريقة العلمية لا يناسبها إلا المنهج الاستنباطي، ومن ثم الأكسيوماتيكي الذي يهمل أساسا المعطيات التجريبية والوقائع الفعلية، وبالمقابل يشيد نسقا صوريا مؤلفا من عدد من الأوليات المنطقية المختارة اعتباطا، باعتبـــارها بديهيات أو مصادرات من غير الحاجة إلى النظر في محتواها الحدسي، فالمنهجية الأكسيوماتيكية هي إذا « منظومة من الأوليات يقوم عليها بناء رياضي معين»"[250]" فهذه هي أهم ميزة تفصل الاستنباط عن الاستقراء، فضلا عن ذلك الطريقة الإجرائية المنتهجة فيه، والتي تبدأ من أعلى إلى أسفل، كونها منطلقة من فرضيات أولية عامة ومتجهة صوب الوقائع الفعلية أو عالم الخبرة إذا اقتضى الأمر ذلك.

وبيّن في موضع آخر بأن هذه الطريقة الاستنباطية تكون استنـــزالا أي: من الفروض العامة إلى الوقائع الجزئية، أومن الأكثر كلية إلى الأكثر جزئية أوهي، كما يقول هلمسلف: « **من المقولات الأكثر توسعا والأكثر تجريدا (...) إلى مقولات أكثر فأكثر حصرا، والأقل فالأقل تجريدا (ومن ثم الأكثر فالأكثر تعقيدا)**»"[251]"وقد مثّل لذلك بمفهوم **"النص"** وهو أحد المفاهيم الرئيسية عنده، بقوله: «**إذا نحن أردنا الانتقال من المعطيات المفترضة في الخبرة سيكون بالضبط المنهج المعاكس هو الذي يفرض نفسه... هذه المعطيات هي بالنسبة للساني النص في إطلاقه الكلي وغير المحلل، إن المنهج الوحيد الممكن من أجل إقصاء النظام الذي**

---

[249]- ***Hjelmslev**, prolégomènes, p22.*

[250]- **محمد عابد الجابري**، مدخل إلى فلسفة العلوم،ص81. وينظر أيضا، **روبير بلانشي**، المصادريات (الأكسيوماتيك)، ص53.

[251]- ***Hjelmslev**, Essais linguistiques, p137-138.*

يضم هذا النص، هو التحليل الذي يعتبر النص فئة قابلة للتحليل إلى أجزاء، وهكذا دواليك حتى استنفاذ إمكانيات التحليل»"[252]وهكذا يبدو أننا نتنزل من مرتبة أعلى إلى أقل منها، أي من العام إلى أكثر خصوصية أو إلى أبسط واقعة لا نستطيع تحليلها.

في هذا القول من الفكر التحليلي الذري ما هو معروف، ونعني به أفكار المدرسة التحليلية في صورتها الذرية المنطقية خاصة كما عرضها راسل "***Russell***" في قوله: « كل ما يقتضيه كلامي هو القول بأن هنالك خصائص توصف بها الأشياء جميعا شيئا شيئا ،فالفلسفة التي أود أن أناصرها يمكن أن نطلق عليها اسم الذرية المنطقية أو التعددية المطلقة»"[253]وفيجنشتاين « ***Wittgenstein*** » الأول، تحديدا في مؤلفة الفلسفي المنطقي رسالة منطقية فلسفية"[254]. صحيح أن هلمسلف في مواضع متفرقة كان يتجنب الدخول في جزئيات إبستمولوجية خاصة فيما له علاقة بالأوليات، أو الأكسيومات، وحتى في بعض المصطلحات التي أعطاها مفهوما خاصا به على غرار المبدأ التجريبي، إلا أننا عندما نتتبع أفكاره الإبستمولوجية خاصة في كتابه المقدمات فإننا نجده قد سخَّر جهوده الفكرية في سبيل وضع نسق فرضي استنباطي للسانيات، وهذا ما بينه "هانز سور نسن"« ***Hans - Sorensen*** » بقوله: «بإمكان النظرية اللسانية الغلوسيماتيكية من وجهة النظر هذه أن تكون معتبرة بالموازاة مع العلوم المسماة صورية، على سبيل المثال، الهندسة النظرية أو الجبر المنطقي اللذان ينشآن بالتساوي أنظمة استنباطية خالصة من دون علاقة ضرورية مع أشياء العالم الواقعي... تأسيسا على الأنساق الاستنباطية من هذا النوع، يوجد ما نسميه اللامعرفات والأكسيومات... »"[255].

فالنظرية الغلوسيماتيكية بهذا الاعتبار نظرية لسانية القصد من وضعها هو الارتقاء باللسانيات عامة إلى مصاف العلوم الدقيقة التي تتميز بقدر كبير من التجريد والرمزية، أي

---

[252]- ***Hjelmslev****, prolégomènes, p22.*

[253]- ينظر: **مصطفى غالب**، براتراند رسل، ضمن سلسلة في سبيل موسوعة فلسفية، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1983/5، ص142.

[254]- *Voir :* ***L.Wittgenstein****, Tractatus logico- philosophicus, Traduction de l'Allemand par, pierre Klossowski, Introduction de Russell, Ed Gallimard, paris* 1961.

[255]- ***Hans. Christian Sorensen****, Fondements Épistémologiques de la glossématique, in langages 2eme année N°6, 1967, p07.*

العلوم المجردة من كل واقع فعلي في بنيتها الأساسية، مثل الرياضيات، الفيزياء وبعض فروع علوم الطبيعة، لذا ما ينبغي أن يفهم من الغلوسيماتيك هو أنها نظرية لسانية قادرة على أن تعيد وصف لسان ما، إلى وصف مجرد، أو بأسلوب مغاير، يمكنها إرجاع اللسانيات علما دقيقا خالصا"[256]" بالمعنى المتعارف عليه لدى علماء الرياضيات والمنطق وغيرهم.

وعليه كان هلمسلف يسعى إلى إنشاء نظرية لسانية ذات توجه فرضي استنباطي ،أو نظرية لسانية بنوية استنباطية"[257]"خالصة، وهو عين ما قاله هلمسلف بعبارة غاية في الوضوح عند حديثه عن النظرية وشروطها: **« النظرية بحد ذاتها لا تتوقف على الخبرة، لا شيء فيها يدل هل يكون لها تطبيقات في علاقتها مع معطيات الخبرة أو لا ؟ إنها لا تتضمن في ذاتها أي مصادرة للوجود، إنها تنشئ ما نطلق عليه نظاما استنباطيا خالصا»**"[258]"، والحق أن عد الغلوسيماتيك نظرية استنباطية أكسيوماتيكية اتفقت عليه معظم الدراسات التي اهتمت بهلمسلف ولسانيته إبستمولوجيا، إلا أن إنكار الاستقراء من لسانيات هلمسلف ليس بالأمر السهل مادام يعطيه مكانه وإن كانت محدودة بعض الشيء، على هذا نلفي بعض اللسانيين يحاول أن يجمع بين المنهجين معا في الغلوسيماتيك، أو على الأقل يجعل هلمسلف أو الغلوسيماتيك النظرية اللسانية البنوية الوحيدة التي مهدت الطريق للسانيات تشومسكي، باعتبار تشومسكي واحدا من أبرز اللسانيين الداعين إلى إنشاء نظريات لسانية وفق ما تقتضيه الطريقة الاستنباطية، وهو ما أضفى على هلمسلف طابع الأصالة في أعماله اللسانية إذ طالب قبل تشومسكي بتطوير نظرية لسانية استنباطية اعتباطية"[259]".

وعلى العموم ليس بمقدورنا أن نخلع عن هلمسلف النزعة الاستقرائية تماما، ولكننا نضعه في خانة الاستنباطيين بناء على ما تقدم من أقواله، وعلى ما هو آت منها خاصة في الفصل الذي خصه للنظرية، إذ فيه تبرز الملامح الاستنباطية بصورة جلية جدا.

3- برنامج البحث العلمي عند هلمسلف:

---

[256]- *Voir : ibid, p06.*

[257]- *Voir :* ***Henrik Prebensen****, la théorie glossématique est elle une théorie ? in, langages 2eme année N°06, 1967, p15.*

[258]- ***Hjelmslev****, prolégomènes, p24.*

[259]- ينظر، **محمد محمد العمري**، الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية، ص144.

قبل الشروع في تحديد مفهوم برنامج البحث العلمي عند هلمسلف، يلزمنا أولا أن نمتثل للخطوات المنهجية، وذلك بالتعريف ببرنامج البحث العلمي عموما كما تعرضه إبستمولوجية "إمري لاكاتوس"« ***I.Lakatos*** » خاصة، وليس يمنعنا ذلك من أن نستعين ببعض التصورات الإبستمولوجية التي تتقاطع معها مثل إبستمولوجية "توماس كوهن" .***T. Kuhn***».

يحدد "آلان شالمرز" « ***A.Chalmers*** » برنامج البحث العلمي عند لاكاتوس بقوله: « برامج البحث عند لاكاتوس هو بنية توجه البحث المقبل بكيفية إيجابية وبكيفية سلبية أيضا»"[260]".فالعلم في هذا المنظور الإبستمولوجي لا ينمو ولا يتقدم إلا عبر صياغة نظريات في شكل بنيات، والبنية الأساسيـــة للنظريات العلمية مكونة من عناصر ضرورية ينبغي توافرها في كل نسق نظري، وهذه العناصر حسب "إمري لاكاتوس" هي: النواة الصلبة، والكِشَافتين الإيجابية والسلبية وأخيرا الحزام الواقي"[261]".

إن صلاحية البرامج العلمية تقاس بشدة صلابة النواة الصلبة لكل نظرية، ولا يتأتى هذا الشرط الأساس إلا إذا استطاعت النظرية أن تضمن الاتساق والانسجام الداخليين لها، بناء على هذا ستكون العناصر المكونة للنظرية مترابطة منطقيا، ولكل منها دور أساسي ودقيق داخل برنامج البحث العلمي"[262]"عموما.

هكذا سيتحدد دور كل عنصر من تلك العناصر في إطار بنوي محكم التماسك، فهذه النواة الصلبة والتي تعد قطب الرحى في برنامج البحث العلمي أو النظرية العلمية ،أبرز خصائصها أن تكون في شكل مجموعة من الفرضيات غير قابلة للدحض"[263]"ولا هي قابلة للبرهنة أصلا؛ لأنها من قبيل الأكسيومات المختارة اعتباطا عند علماء الرياضيات الأكسيوماتيكية، وعليها أي: النواة الصلبة تبنى برامج الأبحاث العلمية كلها.

---

[260]- **آلان شالمرز**، نظريات العلم، ص86.

[261]- ينظر، **إمري لاكاتوس**، برامج الأبحاث العلمية، ترجمة ماهر عبد القادر محمد، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط01، 1997، الفصل03، ص115.

[262]- *voir :* ***yannis Dalmas****, Introduction à l'épistémologie, p11.*

[263]- ينظر، **إمري لاكاتوس**، برامج الأبحاث العلمية، ص ص116-117.

فالنواة الصلبة بهذا المعنى هي ما يجعل برنامجا علميا ما أفضل من غيره المنافس له، لأنه بقدر ما تكون النواة الصلبة قادرة على اجتياز المراحل الاختبارية يكون البرنامج كله أفيد وأكثر علمية، فالنواة الصلبة مثلا في علم الفلك الكوبرنيكي مكونة من فرضيتين « وهما: أن الأرض والكواكب تدور حول الشمس مستقرة، وأن الأرض تدور حول محورها في مدة يوم»"[264]إلا أن ههنا أمرا لابد من إيضاحه، وهو ما يتعلق بالاختبارات التي تتعرض لها برامج الأبحاث العلمية. فهذا الاختبار التجريبي حسب لاكاتوس لا يجب أن يمس النواة الصلبة، لأنها غير قابلة للتكذيب، بل يكون واقعا على الحزام الواقي أو الوقائي الذي هو في الأصل مجموعة من الفرضيات المساعدة يضعها صانعو البرامج البحثية لاختبارها من جهة، ولحماية النواة الصلبة من جهة ثانية"[265]. أما أن تكون النواة الصلبة هي المعرضة للاختبار التجريبي مباشرة فهذا الأمر لا يُسمح به، لذا فأي تعديل يضطر إليه واضعو البرامج البحثية فإنما يكون محله الحزام الواقعي لا النواة الصلبة ذاتها.

بهذا يتبين أن تصور إمري لاكاتوس الإبستمولوجي في صناعة النظرية العلمية، وما اصطلح عليه هو ببرامج الأبحاث العلمية يمكن تلخيصه في الآتي:

النواة الصلبة إذ هي الأصل في كل برنامج بحث علمي وحمايتها من القوادح التي قد تعارضها أو تناقضها أمر ضروري، وتتم الحماية بابتكار حزام من الفرضيات المساعدة يقي النواة الصلبة، إذ هو موضوع أصلا للاختبار التجريبي. وهكذا يحدث التطور في العلم بحدوثه في البرامج العلمية، وذلك بإضافة الكاشفتين الإيجابية والسلبية"[266]، بحيث تؤدي الأولى وظيفة إيجابية فتوجه العلماء إلى الطريقة التي بها يتم إغناء النواة الصلبة، وكيفية تنميتها وتطوير برنامج بحث علمي ما. بالمقابل تؤدي الكشافة السلبية وظيفة تحذيرية إن صح التعبير، إذ تدل العلماء في مراحل نمو البرامج العلمية وتطورها على ما ينبغي تفاديه وإلغائه من البرنامج"[267]خشية أن يدرج في

---

[264]- ينظر، **آلان شالمرز**، نظريات العلم، ص ص86-87.

[265]- ينظر، **إمري لاكاتوس**، برامج الأبحاث العلمية، ص ص116-117.

[266]- ينظر، المرجع نفسه ص ص116-117.و **يسرى وجيه السعيد**، إبستمولوجية إمري لاكاتوس ص ص44-45. و**إسماعيلي علوي**، و**امحمد الملاخ**، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات،ص ص78-79.

[267]- ينظر: المراجع نفسها، وينظر أيضا: ***Yannis Dalmas**, Introduction à l'épistémologie, p11.*

البرنامج العلمي مكون ليس منه، فيعرض النواة الصلبة إلى خلل كبير فينهار إثر ذلك البرنامج من أساسه.

وعموما هذا هو مفهوم برنامج البحث العلمي عند لاكاتوس في صورته المختصرة، وهذه أهم مكوناته التي تحصر جمعا من المشتغلين بالبحث العلمي داخل برنامج بحثي خاص الذي يتحول مع مرور الوقت إلى تقليد علمي منتظم ومحكم البناء يوجههم صوب الكشف العلمي والتنبؤ بوقائع علمية جديدة.

يتقاطع مفهوم برنامج البحث العلمي عند "لاكاتوس" مع مفهوم "البراديغم" « ***paradigme*** » عند "توماس كوهن" ظاهريا على الأقل فيما له الصلة بالمنطلق الأساس الذي تبنى عليه الأبحاث العلمية، أو بعبارة أخرى يوجد تماثل واضح بين المفهومين من حيث هما أصل، ففي كل برنامج بحث علمي عند "لاكاتوس" توجد نواة صلبة بني عليها ذلك البرنامج، والشيء نفسه عند "كوهن" في جعله "البراديغم" هو النواة الأولى في كل متحد علمي، فللبراديغم الأولوية والأسبقية على كل فرضية أو نظرية علمية"[268]"، فهو يشكل النقطة الجامعة بين المشتغلين في حقل علمي معين، وبالعودة إلى كتابه بنية الثورات العلمية نجد "كوهن" يعرف البراديغم على أنه ما «كان يمثل جملة منظومة المعتقدات، والقيم، والتقنيات وما شابه، التي تشترك فيها أعضاء متحد مفترض»"[269]".

فاللسانيات البنوية بهذا المفهوم تشكل براديغما خاصا بها يشكل منظومة من القيم والتقنيات التي يشترك فيها جمع من العلماء يشتغلون بدراسة اللغة بنويا، ولسانيات تشومسكي هي الأخرى تشكل براديغما خاصا بها ومغايرا لبراديغم اللسانيات البنوية لكونها تنطلق من معتقدات وقيم وتقنيات نابعة من البراديغم الذي اعتمدته. وهكذا في نظر "كوهن" تتكون المعارف العلمية وتتطور عبر البراديغمات"[270]"، وبهذا المنظور يحدث التجديد والتقدم العلميين لأن وظيفة كل براديغم تتعين في قدرته على إيجاد حل لأزمة علمية في حقل من حقول العلم

---

[268]- ينظر: **توماس صامويل كوهن**، بنية الثورات العلمية، ص111.

[269]- المرجع نفسه، ص290.

[270]- ينظر،المرجع نفسه الفصول 7-8-9-10. وينظر أيضا، **محمد ماهر علي**، نظرية المعرفة العلمية، ص ص76-77.

عن طريق الثورة العلمية، فالعلم يتطور عبر الأزمات والثورات العلمية، وكل ثورة علمية هي إيذان بميلاد براديغم جديد له خصوصياته العقدية وقيمه وتقنياته الخاصة.

إذًا يكون البراديغم هو المتحكم في السيرورة العلمية والمنسق والموجه لأعمال المتحدات العلمية"[271]"، فهو الذي ينبغي أن يسخر لحل الأزمات العلمية العالقة كما أكد على ذلك "كوهن" في مواضع كثيرة من كتابه الشيق "بنية الثورات العلمية ".

وأما بخصوص الغلوسيماتيك ***la glossématique*** فإننا نجد برنامج البحث العلمي عند هلمسلف يتحدد في جملة من الخطوات المنهجية، والمراحل والأوليات التي تشكلت على إثرها النظرية الغلوسيماتيكية، وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنها ذات حدَّين، فمن جهة نظفر فيما كتب هلمسلف بالعديد من التصريحات المتعلقة بالمنطلقات التي اتخذها أصلا واعتمدها في وضع نظريته اللسانية، وهو ما يمكن عده الجانب المصرح به في إنشاء النسق النظري للغلوسيماتيك، ومن جهة ثانية نلمح مبادئ ومنطلقات معرفية وكذا إبستمولوجية غير مصرح بها وهو ما يمكن نعته بالمنطلقات المضمرة أو المستنبطة أي: المسكوت عنه في الغلوسيماتيك.

يكفي في هذا السياق أن نشير إلى أهم منطوقات الغلوسيماتيك، والتي تعتبر الموجه الحقيقي للنظرية من مرحلة وضع الأوليات إلى مرحلة التطبيقات، ومنه يمكن حصر أهم مكونات برنامج البحث العلمي عند هلمسلف في العناصر الأساسية الآتية: النظرية ومتعلقاتها، فرضية العمل الأساسية النواة الصلبة، والكفاية الأنطولوجية. علما بأن لكل عنصر من هذه العناصر تفريعات تذكر في سياقها.

3-1- النظرية:

هي في معناها العام « مجموعة منسجمة من الفرضيات الخاضعة للتجريب»"[272]"أو هي مجموعة من الأفكار والمعارف المنتظمة في بناء عقلاني فرضي وتركيبي"[273]"، ويمكن أن تكون

---

[271]- ينظر، **بناصر البعراتي**، الاستدلال والبناء، بحث في خصائص العقلية العلمية، ص299. وأيضا، **بناصر البعراتي**، مفهوم الإبدال (البراديغم) ضمن المفاهيم تكونها وسيرورتها، تنسيق محمد مفتاح، وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية من ص39 إلى ص59.

[272]- **إسماعيلي علوي**، و**امحمد الملاخ**، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص64.

[273]- *voir : **Didier Julia**, Dictionnaire de la philosophie, p280-281, et aussi centre national des ressources textuelles et lexicales (www.cnrtl.Fr / définition / théorie).*

جملة القوانين التي تشكل نسقا منسجما"[274]"، وعرفها المعجم الفلسفي بأنها « فرض علمي يربط عدة قوانين بعضها ببعض ويردها إلى مبدأ واحد، يمكن أن نستنبط منه حتما أحكاما وقواعد مثل نظرية الذرة»"[275]".

في الواقع أخذ مفهوم النظرية أبعادا كثيرة، وذلك بحسب كل حقل علمي، فيختلف مدلول النظرية باختلاف فروع المعرفة العلمية، فهي في العلوم الإنسانية مثل الأدب والنقد وعلم النفس والفلسفة والاجتماع غير ما هي عليه في العلوم الدقيقة والصورية مثل المنطق والرياضيات بكل فروعها. وحتى في المجال العلمي الواحد نلفي لها معاني مختلفة، والعلة في ذلك هي اختلاف وجهات نظر المشتغلين بالعلم إلى النظرية، ففي الإبستومولوجيا مثلا للنظرية تحديدات متباينة: لأن دلالتها عند الاستقرائيين مثل "رودولف كارناب""[276]"، ليست هي دلالتها عند الاستنباطيين من أمثال كارل بوبر الذي حدها بقوله: " النظريات العلمية هي قضايا عامة، وهي ككل تمثيل نظمات رموز وإشارات" وأضاف بعد ذلك قائلا: «والنظرية هي الشبكة التي نرميها لنلتقط فيها "العالَم"، لنعقله، لنفسره، ولنتحكم به، ونبذل قصارى جهدنا لتضييق زردات الشبكة باستمرار»"[277]".

أهم ما يمكن الخروج به من هذه التحديدات هو أن النظرية نسق عقلاني مجرد يتكون من مفاهيم وفرضيات لها قابلية الاختبار، بشرط أن تكون هذه الفرضيات والمفاهيم غير متناقضة فيما بينها داخل النسق النظري الذي يحتويها، وإلا لم تكن نظرية بالمعنى العلمي والإبستمولوجي، لذا تكون كل نظرية مطالبة بأن «تجمع فرضياتها ومفاهيمها في كُلٍّ منسجم بحيث تدخل الفرضيات في بنية استلزامية، إذ تستلزم الفرضيات التجريبية... مسلّمات تخضع بدورها لاعتبارات نظرية المعرفة، ومقتضيات إبستومولوجيا العلوم تساعدها في بلورة فرضياتها التجريبية في نسق أكسيومي بسيط»"[278]".بناء على هذا لا يكفي في تعريف النظرية بأنها نسق

---

[274]- *voir : (www.cnrtl.Fr / définition / théorie).*

[275]- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ص202.

[276]- ينظر،**رودولف كارناب**، الأسس الفلسفية للفيزياء الفصل الخامس، ص230.

[277]- **كارل بوبر**، منطق البحث العلمي، ص93.

[278]- **إسماعيلي علوي، والمحمد الملاخ**، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات ص65.

مجرد وحسب، بل ينبغي أن تتصف بالليونة والمرونة الإبستمولوجيتين؛ بحيث تسهل عملية استنتاج أحكام جديدة"[279]"من أحكام أولية وضعت ابتداء؛ لأن مهمة النظرية لا تتوقف على وصف الوقائع العلمية بل تتجاوزها إلى التفسير والتنبؤ بأخرى ممكنة الحدوث.

وبالرجوع إلى هلمسلف نجد مفهوم النظرية عنده يتصف بشيء من التفصيل الذي قد يميزه عن غيره، وإن كان في عموم طرحه لمفهوم النظرية غير خارج عن معناها الفرضي الاستنباطي كما هو بيّن من كلامه، ولقد بَدَا جليا في بداية الفصل الذي خصه للنظرية عدم أخذه بمفهومها السائد، وهو أن تكون منحصرة في «**تعيين نظام من الفرضيات**»"[280]"، وإنما حاول أن يقدم مفهوما خاصا به للنظرية يتضمن جانبين بارزين، يقول هلمسلف: «**... بالنسبة لإسهامنا نحن، فإننا نستعمل لفظة "نظرية" بمعنى مغاير. يوجد هنا عاملان لهما أهمية مماثلة**»"[281]"، فأول هذين العاملين المهمين هو كما يقول هلمسلف: « **النظرية بحد ذاتها، لا تتوقف على الخبرة، فلا شيء فيها يدل هل يكون لها تطبيقات في علاقتها مع معطيات الخبرة أم لا ؟ إنها لا تتضمن في ذاتها أية مصادرة للوجود، إنها تنشئ ما نطلق عليه نظاما استنباطيا خالصا**»"[282]".

يكشف هذا القول عن المنطلق الفرضي الاستنباطي الذي بنيت عليه النظرية الغلوسيماتيكية، فهذا توجه في العلم يقدم النظرية على الملاحظة، والنظرية فيه بنية مجردة تتكون من فرضيات أولية أو على حد اصطلاح المناطقة، مقدمات منطقية بسيطة توضع من دون الالتفات إلى المحتوى الدلالي لتلك الفرضيات أو المقدمات المنطقية الأولية، ومن دون إرجاعها إلى الواقع التجريبي، فالشرط الأساسي هنا هو وضع أوليات اعتباطا بعيدا عن كل سياق فعلي لغرض تحقيق الانسجام الداخلي لمكونات النظرية، كي يتجنب الوقوع في تناقض داخل النظرية ذاتها، وهكذا تكون النظرية الغلوسيماتيكية بهذا الاعتبار قادرة على وضع حساب منطقي انطلاقا من المقدمات المنطقية الأولية يقول هلمسلف: « **بهذا المعنى تكون النظرية بحد ذاتها هي**

---

[279]- ينظر، **بناصر البعراتي**، خصوبة المفاهيم في بناء المعرفة، ص243.

[280] -***Hjelmslev***, *prolégomènes, p23.*

[281] -*Ibid, p24.*

[282] -*Ibid, p24.*

التي- انطلاقا من المقدمات المنطقية الأولية التي تنص عليها- تسمح له (أي: النسق الاستنباطي الخاص) **بحساب ما ينتج عنه من احتمالات»**"[283]"، فالنظرية الغلوسيماتيكية في هذا السياق هي كيان مجرد متعال عن الواقع الفعلي، وتبعا لذلك فهي بنية صورية تتوافق مع الطرح الرياضي الأكسيوماتيكي، ومن ثم يتعذر اختبارها عن طريق الملاحظة أو التجارب العلمية المباشرة لكونها نظرية لسانية مؤسسة على منهج فرضي استنباطي لا صلة له بالواقع اللغوي الحقيقي، يكشف هذا كله عن التوجه البنوي العلائقي في دراسة اللغة، بمعنى: « دراسة طبيعة العلاقات التي تربط بين المفاهيم في هيئة بنى ذهنية مجردة»"[284]"، بدل دراسة ماهية الشيء، فالعلاقات الداخلية هي الأساس في ذلك.

إنَّ المقدِّمات الأوّلية في هذا النمط من النَّظريات تكون من جنس الأكسيومات المنتقاة أو الموضوعة وضعا اعتباطيا من قبل المنظِّرين، وأيُّما نظرية خلت مقدّماتها الأوّلية التي تتخذها منطلقا من الدّلالة الحدسية، فإنّها تكون نظرية أكثر بعدا عن الواقع اللّغوي الفعلي بكل تفاصيله، وكلما كانت كذلك تحولت إلى بنية مجردة، وهي ما أطلق عليه هلمسلف الجانب الاعتباطي"[285]"للنَّظرية اللِّسانية، وقد أوضح ذلك كلاوس هيشن بقوله: « سمة هذه النَّظرية أنّها محض شكلية وفارغة من أيّ تجربة، أي: في اصطلاح هلمسلف هي في مقابل الحقائق اللّغوية اعتباطية»"[286]"، إذا فمعنى أن تكون النظرية الغلوسيماتيكية اعتباطية هو أنّها لا تربط بينها وبين الواقع اللّغوي أيّ رابطة أو علاقة، بل النَّظرية كِيانٌ مستقل له حدوده، إنّها عالم مجرد ومبتكر غير العالم الذي نعرفه.

أما العامل الثاني في النظرية اللسانية عند هلمسلف فقد حدده بقوله: « **يعلم المنظّر بواسطة التجربة بأن بعض المقدّمات المنطقية المصرّح بها في النَّظرية استوفت الشروط الأساسية حتى تكون هذه قابلة للتطبيق على بعض معطيات التجربة، هذه المقدّمات المنطقية**

---

[283] -*ibid, p24.*

[284]- ينظر، **نبيل علي**، العقل العربي ومجتمع المعرفة، ص129، وأيضا، **آلان شالمرز**، نظريات العلم، الفصلين السابع والثامن.

[285] -*Voir : **Hjelmslev**, Prolégomènes, p24.*

[286]- **كلاوس هيشن**، القضايا الأساسية في علم اللغة، ص98.

هي أيضا عامة بقدر الإمكان، ولها الفرصة في أن تكون قابلة للتطبيق على عدد أكبر من معطيات التجربة»"[287]".

يتضمن هذا القول الشق التطبيقي للنَّظرية، ولهذا الجانب أهمية بالغة جدا في الأدبيات الإبستمولوجية؛ لأنّ إشكالية خضوع النّظرية للاختبارات التجريبية أفرز مشكلة إبستمولوجية ما تزال مطروحة ليوم النَّاس هذا، وهي علاقة النَّظرية بالواقع أو ما يُصطلح عليه إبستومولوجيا "بالكفاية الأُنطولُوجية للنَّظرية".

فما هو ملحوظ على قول هلمسلف أنّه لم يهمل الشق التطبيقي للنَّظرية، و لم يجعلها بنية مجردة مطلقاً، وإنّما أعطى للنَّظرية حظها التطبيقي على المعطيات التجريبية، إلاّ أنّ هذه المعطيات ينبغي أن تكون محدودة جدا، لكأنها ضرورة لا مفرّ منها، وعليه فهو ظاهريا «لم يُنكر ...أنّ أية نظرية يجب أن تكون قابلة للتطبيق بوجه عام... وإلاّ كانت في الحقيقة غاية في ذاتها»"[288]"، فالنّظرية بهذا الاعتبار تكون متطابقة أو ملائمة، وقد بدا ذلك واضحا في قوله: « **من أجل تعيين هذين العاملين فإنّنا نقول: بأنّ النّظرية هي في الحالة الأولى اعتباطية، وفي الحالة الثانية ملائمة (أو متطابقة مع هدفها)»**"[289]"، ولكنّ هذا في واقع الأمر لا يعني إلاّ ضرورة تجريبية لابدّ منها في كل نظرية، لأنّنا نجد هلمسلف متحيزا إلى الجانب الاعتباطي من النّظرية أكثر، بناء على أنّ الصورنة الرّياضية للواقع اللّغوي تتطلب أن تكون النَّظرية مصاغة على المنهج الفرضي الاستنباطي.

وعلى الرُّغم من ذلك كلِّه، فإنّنا نلفي هلمسلف يدمج العاملين بحيث يشكلان معاً النسق النّظري اللّساني الغلوسيماتيكي، أي: تتكون النّظرية اللّسانية الغلوسيماتيكية من ذينك العاملين: الاعتباطية والمطابقة، كتب هلمسلف مُبيناً ذلك: « **يبدو ضروريا أن يدمج هذان العاملان في بناء كلِّ نظرية، غير أنّه ينجم عن هذا المسلك أن المعطيات التجريبية لا تستطيع أبدا لا أن تصدّق ولا أن تُبطل صحة النّظرية ذاتها... ولكن فقط قابليتها للتطبيق»**"[290]"،

---

[287]-***Hjelmslev***, *prolégomènes p24.*

[288]- **بارتيشت بريجيته**، مناهج علم اللغة، ص214.

[289] -***Hjelmslev***, *Prolégomènes, p24.*

[290] -*Ibid, p24.*

إنّ هذا إقرارٌ من هلمسلف بأفضلية ومُقدمية الجانب الصوري للنظرية، طالما أنّ الوقائع التجريبية لا تحدث أيّ تغيير في بنية النّظرية، وهذا يؤكد بدوره على اعتبار النّظرية الغلوسيماتيكية نظرية استنباطية خالصة بامتياز، لعدم قابليتها للتطبيق من طريق مُباشر"[291]"، لأنّه ممّا هو معلوم بالضّرورة أنّ أيّ نظرية تم روزها تجريبيا في مقابلة الوقائع الفعلية، لا تسلم من معارضة ونقض تلك الوقائع لها، إنْ كثيرا أو قليلا.

من هذا المنطلق يحرص أصحاب التوجه الفرضي الاستنباطي على أن لا تتعرض النّظرية لأيّ خلَل جرّاء معارضة الوقائع الفعلية لها، وهو عين ما صرّح به هلمسلف من أنّ المعطيات التجريبية لا يمكنها أن تكون رائزًا تجريبياً مباشراً؛ لأنَّ إبطال النّظرية ودحضها عموما يتحدّد في عدم انسجامها داخلياً، وتناقضها منطقياً وهو يستلزم من طريق العكس أنّ صدق النَّظرية وصحتها مرهونان بسلامتها من التّناقض المنطقي بين مكوناتها الأساسية، وهذا هو الصدق المنطقي للنّظريات عموماً والغلوسيماتيكية خصوصاً.

فالذي يمكن فهمه من جمع هلمسلف بين عامل الاعتباطية وعامل المطابقة أنّ الغلوسيماتيك مؤسسة على نوعين من المقدّمات المنطقية أو الأكسيومات، ويمكن إدراك الفرق بينهما بأنّها في الحالة الاعتباطية تكون «مؤسسة على قاعدة أكسيوماتيكية مختارة، مستقلة عن أيِّ تأويل ممكن مقدَّم من الوقائع الفعلية»"[292]"، وتكون في حالة المطابقة « مؤسسة قصدا، وتكون بهذا المعنى مشيدة على عناصر أكسيوماتيكية مختارة خصيصا في سبيل استعمال نظامٍ لوصف الوقائع الفعلية وعلاقاتها»"[293]"، فمن هذا التّمييز يتعيّن الفرق بين الأكسيومات الموضوعة في كلا الحالتين، ففي الحالة التي تكون فيها النّظرية اعتباطية تكون أكسيوماتها موضوعة اعتباطا أيضا، أي: من دون حاجة إلى برهنة على صدقها أو كذبها، وهذا هو الجانب الاستنباطي للنّظرية، وفي الحالة التي تكون فيها النظرية متطابقة مع هدفها فإنّ أكسيوماتها تكون هي الأخرى مختارة، ولكن ليس اعتباطا بل يقصد ذلك لبلوغ هدف محدّدٍ، وهو وصف الموضوع اللّغوي المختار، وفي نهاية الأمر تحدّد النَّظرية اللّسانية على حدّ تعبير هلمسلف «

---

[291]- ينظر تفصيل قابلية روز النّظريات، **ماريو بانج**، المنهج العلمي وتوظيفاته، من ص60 إلى 62.

[292] -***Hans, ch, sorensen***. *Fondements Epistémologique de la glossématique, p08.*

[293] -*Ibid, p08.*

موضوعها بإنشائها لمقدماتها المنطقية عبر إجراء اعتباطي وملائم معاً»"[294]"، وهكذا تصبح الإجابة على سؤال العلم، وهو أيٌّ منهما يؤثر في الآخر ويحدّده النّظرية أم الواقع؟ وهو سؤال يتعلّق بالكفاية الأُنطولوجية للنّظرية، عند هلمسلف إجابة مزدوجة، يقول في ذلك: **« من وجهة النّظر هذه إذا وضعنا النّظرية اللّغوية في علاقة مع مفهوم الواقع فالإجابة على سؤال العلم ... تكون مزدوجة:**

1- بموجب صفتها الاعتباطية تكون النّظرية غير واقعية. 2- وبموجب صفتها المتطابقة، فإنّها تكون واقعية... »"[295]"، ويبدو أنّ هلمسلف في هذا الجانب حاول أن يقدّم إجابة لإشكالية إبستمولوجية عويصة والمتمثلة في مسألة التأثير هل للنّظرية أحقية التأثير في الواقع أم العكس؟.

3- 1- 1- المقدّمات المنطقية وحساب الإمكانات:

وعلى ذكر الهدف الذي تتغياه النّظرية اللّسانية، حدّد هلمسلف هدف النّظرية الغلوسيماتيكية في قدرتها على وضع مقدمات منطقية تشتق منها مبرهنات؛ بحيث تستلزم عنها استلزاماً منطقياً، أو أن تكون لها القدرة على تحويلها إلى صورة شرطية، وهذه المقدّمات والمبرهنات هي الأخرى تسمح بإنشاء مجموعة من الفرضيات ذات مصداقية"[296]"، كما تشتمل النّظرية في جانب أخر على حساب منطقي الذي منه تكون المقدِّمات المنطقية أيضا بأعداد محصورة، وتكون كذلك عامة بقدر الإمكان، من هذا المنظور يقول هلمسلف: **« يقوم مُنظّر اللّغة في مجال دقيق، بحساب كل الإمكانات وهو يعلم اعتباطا هذا المجال، وذلك باستخراج خصائص مشتركة بين كلِّ المواضيع التي نتواضع على تسميتها ألسنة، ليعمِّم بعد ذلك تلك الخصائص، ويفترضها بناءً على حدٍّ، ابتداءً من تلك اللّحظة يقرّر بطريقة اعتباطية ولكنّها ملائمة ما هي الموضوعات التي يمكن أن تطبق عليها النّظرية، وتلك التي يستحيل فيها فعل ذلك. وستخضع هذه المواضيع المحدّدة بهذا الشكل لحساب عام يتوقع كلَّ الحالات القابلة للإدراك، إنّ هذا الحساب المستنبط انطلاقا من التعريف المفترض وبصرف النّظر عن كلِّ**

---

294 -*Hjelmslev, prolégomènes, p25.*
295 -*Ibid, p25.*
296 -*Voir, ibid , p24.25.*

إحالة على التجربة يقدّم الأدوات التي تسمح بوصف نصٍ معطى والتعرّف عليه وعلى اللّسان الذي على أساسه شُيِّد»"[297]".

فالهدف إذًا من هذا الحساب المنطقي هو الصياغة الرّياضية والمنطقية للنَّسق النَّظري، حتى يخرج في صورة مضبوطة خاصة في بنيته الدّاخلية؛ بحيث لا يوجد ما يدعو إلى الحكم عليه بالتناقض والتعقيد، وعدم الانسجام الدّاخلي، كما يسمح بالتنبؤ بإمكانات لسانية مستقبلية وهو ما يفضي إلى هدف آخر مسطّر له في الغلوسيماتيك، ونعني به: التنبؤ أو الوظيفة التوقعية للنَّظرية اللِّسانية.

3-1- 2- التنبؤ العلمي (أو الوظيفة التّوقعية للغلوسيماتيك):

إنّ من الأهداف البارزة التي تضطلع بها النَّظرية الغلوسيماتيكية هي أن تمتلك الخاصية التنبؤية وأن تكون لها وظيفة توقعية، أي: هدف مستقبلي، فليس ينبغي للنَّظرية اللِّسانية أن تبقى قابعة في إطار تعيين منهجية لمعرفة أو لفهم موضوع لغوي معطى،"[298]"بل ينبغي لها أن تقدّم تنبؤات جديدة في موضوع اللّغة، انطلاقا من الموضوعات اللِّسانية المعطاة سلفا، وهذا يقتضي أن تكون النَّظرية عامة، ومصاغة بطريقة جيّدة ومحكمة، وقد قال هلمسلف في ذلك ما هذا نصه: « **لا تستطيع النَّظرية مع ذلك أن تنحصر في إمدادنا بوسائل لمعرفة موضوع محدَّدٍ؛ بل ينبغي أن تكون مصمّمةً بشكل يسمح بتعريف كل الموضوعات المدركة ذات الطبيعة المفترضة نفسها مثل الموضوع المعطى»**"[299]"، لذا فمن متطلبات النّظرية اللّسانية،كما يقول هلمسلف، أن تكون عامة وأن « **تضع تحت تصرفنا أداة تسمح لنا بمعرفة -ليس فقط موضوعاً واحداً معطى أو موضوعات سبق وأن خضعت لتجربتنا -كلّ الموضوعات الممكنة ذات الطبيعة المفترضة»**"[300]"، فكلما كانت النَّظرية على قسط كبير من العمومية كلما كانت أكثر حظا في قابليتها لأن تسقط على وقائع ممكنة، وحتى مفترضة، وهكذا يحكم على النَّظرية اللِّسانية بأنَّها قابلة للتعدية، أي: ليس من شرطها أن تكون نظرية قاصرة، وإلاّ كانت غاية في

---

[297] -*Ibid, p28.*

وينظر أيضا، **آن إينو** تاريخ السيميائيات ص63، لأن ترجمة النص للدكتور رشيد بن مالك.

[298] -*Voir Ibid, p26*

[299] -*ibid, p26.*

[300] -*ibid, p26.*

ذاتها،كما لا يجب أن يتعلق هدفها بالمعطيات المرصودة فقط، وإنّما تُتخذ قاعدة لبلوغ غايات غير معطاة أصلا، وكمثال على ذلك يستعين هلمسلف بمفهوم **"النّص"** لبيان الوظيفة التوقعية للنَّظرية اللِّسانية الغلوسيماتيكية. يقول عن الوصف الشامل وغير المتناقض بأن: **« لا يتعلق بنصٍ فرنسي معطى، ولكن أيضا ينطبق على النّصوص الفرنسية الموجودة، وليست هذه فقط، ولكن أيضا ينطبق على كلِّ النّصوص الفرنسية الممكنة والمعقولة»**"[301]"، ولا يتوقف التوقع أو التنبوء عند هذا الحدّ وحسب، بل يتعدى ذلك إلى إمكانيات أبعد؛ بحيث يطال النّصوص **«المتعلقة بالمستقبل، حتى تلك التي تتعلق بمستقبل لانهائي، كذلك الأبد البعيد الذي تكون فيه النصوص بالطبيعة المفترضة نفسها مثل النّصوص المعتبرة ههنا »**"[302]".

يمكن عدّ هذا القول تمهيدا مباشرا لنقلة نوعية في مجال بناء النَّظريات اللِّسانية، وهو بداية التحوّل عن الوصف إلى التفسير العلمي الذي يمثل مرحلة هامة ورابطة قوية تصـــل الوصف بالتنبؤ، أي إنّ مسيرة التقدُّم العلمي عموما بدأت من الوصف العادي للظواهر عن طريق بناء نظريات علمية لها كفاية وصفية؛ إلاّ أنّ الحاجة الماسة إلى معرفة الأسباب والعلل من وراء كل ظاهرة حتمت بناء نظريات علمية ذات كفاية تفسيرية، ولهذا التفسير العلمي مستويات"[303]" معروفة في الإبستومولوجيا إذ منه يتم التنبؤ بالجديد متى توافرت الشروط الضرورية.

من هذا الاعتبار يجوز أن تكون النَّظرية الغلوسيماتيكية فاتحة لمجال تفسيري مجرد في اللِّسانيات بوجه عام ، وهو ما تحقق بالفعل في لسانيات تشومسكي التوليدية والتحويلية، التي اضطلعت ببناء نظرية لسانية على قدر كبير من الكفاية التفسيرية ومن ثمّ التنبؤية.

3-1- 3- الكفاية الوصفية والمبدأ التّجريبي:

ومن أهم أهداف النَّظرية اللِّسانية أيضا هو إنشاؤها لوصف علمي، وبأن تكون النَّظرية اللِّسانية على قدر كبير من الكفاية الوصفية إلاّ أنّ هذا الوصف اللّساني عند هلمسلف لا يمكن

---

[301] -*Ibid, p27.*
[302] -*Ibid, p27.*
[303]- ينظر تفصيل ذلك في، **بناصر البعزاتي**، خصوبة المفاهيم في بناء المعرفة، ص260 وص286.

فهمه من دون الوقوف على المبدأ التجريبي ***principe empirique*** "[304]"، وهو مفهوم صاغه هلمسلف ليكون رائزاً به تقاس الكفاية الوصفية للنّظريات اللّسانية عموما والغلوسيماتيكية خصوصا ،ويتشكّل هذا المبدأ التجريبي من ثلاثة مفاهيم أخرى تعد معايير ضرورية في كلِّ وصف لساني، وهي: عدم التناقض والشمولية، والبساطة (***simplicité, exhaustivité ,non-contradiction***) وبهذا تكون الكفاية الوصفية للنّظرية اللّسانية مرهونة باجتماع المفاهيم الثلاثة، وهو ما يضمن في نظر هلمسلف درجة عالية من دقة الوصف لموضوعها؛ بحيث يكون هذا الوصف غير متناقض، وشامل، وبسيط أيضا. يقول هلمسلف: « **إنّنا نشترط على سبيل المثال من النّظرية اللّغوية بأن تسمح بوصف غير متناقض وشمولي**»"[305]"، وقال فيما له صلة بالبساطة: « **إذا سمح الحساب بإنشاء العديد من الإجراءات الممكنة المؤدية كلّها إلى وصـــف غير متناقض وشمولي لنصٍ ولســـانٍ ما، فإنّه يلزمنا اختيـــار من بين هذه الإجراءات أيّ منها يضمن وصفاً أكثر بساطة** »"[306]"، فمن هنا تتجلى وظيفة النَّظرية اللِّسانية الغلوسيماتيكية في تقديم وصفٍ خالٍ من التناقض وشاملٍ وبسيطٍ بقدر الإمكان.

كما أكدّ هلمسلف مرارا على ذلك فضلا عن التنبؤ بالجديد من القضايا اللّسانية، على هذا لم تكن وظيفة النّظرية الغلوسيماتيكية هي التحقق والتأكد أو إلغاء ما يتم وصفه من ألسنٍ ونصوصٍ على حدٍّ سواء، بل لا تأذن النَّظرية اللِّسانية إلاّ بمراقبة عدم التناقض وشمولية الحساب وبساطته"[307]" أيضا. وههنا أمر آخر نبّه عليه هلمسلف وهو أنّ هذه المفاهيم الثلاثة المشكّلة للمبدأ التّجريبي تخضع لترتيب خاص، إذ يقدّم مفهوم عدم التناقض على مفهوم الشمولية، ويقدّم الشمولية على مفهوم البساطة"[308]"لأنّ الوصف إذا كان خاليا من التناقض فإنّه حتما سيؤدي إلى إمكانية تعميمه على أكبر عدد ممكن من المعطيات اللّسانية الممكنة والمفترضة، إلاّ أنّ هذا لا ينبغي أن يتصف بالتعقيد، وإنّما يشترط أن يكون بسيطا.

بَيْدَ أنّه عند تأمل هذه المفاهيم الثلاثة يتبيّن بأنّها مفاهيم تناسب الأنساق النّظرية الرّياضية أكثر ممّا تناسب الأنساق النَّظرية اللِّسانية، لأنّ هذه المفاهيم - وليكن الشمولية أولا- يصعب تطبيقه، لأنّه لا مناص له من اصطدامه بالواقع الفعلي، ويتعذر تعديته؛ بحيث يكون

---

304 -*Voir : Hjelmslev, prolégomènes, p19.*
305 -*Ibid, p19.*
306 -*Ibid, p27.*
307 -*Voir :ibid, p29*
308 -*Voir :ibid, p19.*

شاملا لكلّ الظواهر اللّغوية، وهذا يعني من جانب آخر معارضةً صريحةً لمفهوم عدم التناقض، وبالمثل يصعب اختبار مفهوم البساطة لأنّها ليست مناسبة لجميع العلاقات ولا هي حاصرة لها ، لجواز إهمالها أو حجبها"[309]"لصالح هذا المفهوم. فهذه معايير شكلية خالصة، فلا يمكن فهمها بعيدا عن سياق ورودها، أو كما فهمها هلمسلف، فهي لا تفي إلاّ بنظرية تجريبية تقف في مواجهة النّظريات الفلسفية الميتافيزيقية، وممّا لاشك فيه عند هلمسلف أنّ النّظريات الميتافيزيقية مرفوضة، لكونها ليست بسيطة ولا هي ممكنة"[310]" أصلا، علاة على أنّها تتضمن مفاهيم ميتافيزيقية خالية من المعنى.

إجمالا يمكن القول بأنّ المبدأ التجريبي الذي صاغه هلمسلف والمكوَّن من المفاهيم الثلاثة المذكورة، يتماشى مع المنهج الذي بُنيت به النّظرية الغلوسيماتيكية، ونعني به: المنهج الاستنباطي الخالص"[311]"، وتبعا لذلك سيكون المبدأ مناسبا للمنهج العلمي الذي يعتمد الوصف والتفسير والتنبؤ العلمي، كما أنّه مبدأ ينافي كل تصوّر أو أطروحة فلسفية ميتافيزيقية متعالية.

3- 2- النّواة الصّلبة للغلوسيماتيك:

تقدّم وأن أوضحنا ما المقصود بالنّواة الصلبة في كلِّ برنامج بحث علمي أو نظرية، وكان مما قيل: أنّها في الأصل فرضية أو مجموعة فرضيات عامة جدا تشكِّل القاعدة الأولى لأيّ نظرية علمية أو برنامج بحث"[312]"، وأنّ أهم خصائصها أنّها لا تقبل الدّحض فهي موضوعة اعتباطا.

تأسيسا على هذا تكون النّواة الصلبة في اللّسانيات البنوية عامة منحصرة في فرضيتين بارزتين وجَهتا البحوث اللّسانية البنوية منذ البداية وهما: **"البنية والنّسقية"**، وبظهور النّظرية

---

[309]- ينظر،**بارتيشت بريجيته**، مناهج علم اللغة، ص213.

[310]- ينظر، **كلاوس هيشن**، القضايا الأساسية في علم اللغة، ص98.

[311] -*voir* : ***Hans, Ch ,Sorensen****. Fondements Epistémologique de la glossématique, p09-10.*

[312]- ينظر، **آلان شالمرز**، نظريات العلم، ص86.

الغلوسيماتيكية طوّر هلمسلف هذه النّواة ونمّاها بإضافة فرضية ثالثة وهي: **"المحايثة"**، ومن ثمّ احتُزِلت البنية في النَّسقية وصارت النّواة الصلبة للسانيات البنوية - والغلوسيماتيك تيار منها - مقتصرة على فرضيتي **"النَّسقية والمحايثة"**، من هذا المنطلق ستكون النّواة الصّلبة في أيّ نَسق نظري هي المميّز لذلك النسق عن باقي الأنساق النّظرية الأخرى.

فالنّواة الصلبة في الغلوسيماتيك هي ما يجعل الغلوسيماتيك متميزة عن النّحو التوليدي والتحويلي أو عن اللّسانيات التوزيعية مثلا؛ لأنّ لكلٍّ من هاتين النّظريتين نواتها الصلبة المتضمنة فيها، وعلى هذا لا نكون مبالغين إذا حكمنا على أعمال هلمسلف بأنّها كلها تتحرك في مجال هذه النّواة ولا تتعداه، تارة بصورة جلية وبعكس ذلك تارات أخرى.

3- 2-1- النَّسقية والعلاقات الدّاخلية:

يتحدّد معنى فرضية النَّسقية في العلاقات الدّاخلية بين المكوّنات الأساسية للغة، وليست الدّراسة النَّسقية منصبة على الوحدات ذاتها، وتبعاً لذلك ستكون هي ما يفضي إلى البحث عن البنيـــة النوعية المتضمنة في النّسق اللّساني، ويلزم لبلوغ هذه البنية النوعية أن تعتضد النَّسقية بفرضية المحايثة، وهي في أبسط دلالاتها التعامل مع اللّغة أو مع أيّ لسانٍ من الداخل وعدم الاستعانة بالنشاطات العلمية التي ليست لغوية، بمعنى آخر ؛عدم الالتفات إلى ما هو خارج لساني، وهذه تعتبر إحدى الأفكار اللّسانية الأساسية التي وضعها دي سوسر وتأثر بها هلمسلف، وجعلها منطلقا له في صياغة اللّسانيات الغلوسيماتيكية، إذ المعروف من مذهب دي سوسير"[313]"أنّه هو صاحب فكرة العلاقات الدّاخلية، وقد أوضحها بلعبة الشطرنج و تابعه على ذلك هلمسلف"[314]".

وقد تمّت الإشارة أيضا إلى بعض الفقرات المقتبسة مما كتب هلمسلف والتي تبيّن طبيعة النّواة الصلبة للغلوسيماتيك، إذ نقطة الاشتراك الجامعة بين تلك النصوص هي أنّ اللّسانيات البنوية لسانيات جديدة تتكفل بدراسة اللغة الإنسانية بعيدا عن كلّ حدث غير لساني، لذا فهي علم يسعى لبلوغ البنية الحقيقية للغة عن طريق الدّراسة المحايثة التي ترتكز على رصد العلاقات

---

[313] -*voir : **De Saussure**, cours de linguistique générale, p32.*
[314] -*voir : **Hjelmslev**, Essais, p36-37.*

الدّاخلية بين المكونات اللّسانية، يقول هلمسلف في ذلك: « **حسب الواقعية الساذجة يكون التحليل على الأرجح مقتصرا على تقطيع موضوع معطى إلى أجزاء، إذًا إلى مواضيع جديدة، ثم هذه إلى أجزاء أخرى، إذًا إلى مواضيع أخرى جديدة وهكذا دواليك، ولكن حتى في هذه الحالة سيكون للواقعية الساذجة الاختيار من بين العديد من التقطيعات الممكنة، فإننا سنعلم من دون عناء أن الأهم في العمق ليس هو تقسيم موضوع واحد إلى أجزاء، ولكن تكييف التحليل بأي طريقة ليطابق التعالقات المشتركة التي توجد بين هذه الأجزاء، وتسمح لنا أيضا بعرض هذه التعالقات بصفة مرضية** »"[315]" .

من هذه الفقرة يتضح جيدا بأن النواة الصلبة تتشكل في دراسة العلاقات أو التعالقات الموجودة بين المكونات اللغوية، وأن هذه العلاقات هي الوحيدة التي تجعل اللسانيات البنوية، والغلوسيماتيكية متميزة عن باقي الدراسات اللسانية بكل مذاهبها، كما يتبين أن جوهر النسقية هو العلاقات لا غير، وبالفعل ستكون العلاقات الداخلية هي الشغل الشاغل لهلمسلف، كتب قائل: «**هذا هو بالضبط نوع التعالقات، وليس غيرها، الذي نبحث عنه** »"[316]"، وتبعا لذلك يتحدد الفرق بين اللسانيات الغلوسيماتيكية خاصة، ونظيراتها التي عرفت في القرنين الثامن والتاسع عشر في موضوع الدراسة، ذلك أن الغلوسيماتيك في تركيزها وتأكيدها على دراسة العلاقات الداخلية"[317]"، وبالتالي المحايثة تكون اللسانيات التقليدية بما في ذلك الواقعية الساذجة مركزة اهتمامها على الوحدات اللسانية ذاتها داخل النسق بدل العلاقات التي تربط بينها، فالفرق صار واضحا بينهما في دراسة العلاقات وعدمها، لذا يقول هلمسلف: « **تقتصر موضوعات الواقعية الساذجة إذاً على نقاط التّقاطع**»"[318]" المتشكِّلة من جرّاء شبكة العلاقات داخل النّسق اللّساني.

وستكون العلاقات الدّاخلية في هذا التوجه من البحث اللّساني تحظى بمكانة ثانوية، والأهم فيه هو المكوّنات ذاتها، بخلاف ما تدعو إليه لسانيات هلمسلف ، فالعلاقات تصير

---

315 -***Hjelmslev,*** *Prolégomènes, p36-38-40.*
316 -*Ibid, p38.*
317 -*Voir :* ***G.Mounin****, Dictionnaire de la linguistique, 4eme, Ed, PUF, Paris, 2004, p307.*
318 -***Hjelmslev,*** *Prolégomènes, p36.*

بالنسبة لهلمسلف أمراً جوهرياً، بل هي شرط أساسي حتى توجد نقاط التقاطع"[319]"، فالنتيجة الأساسية من دراسة هذه العلاقات هو التأكيد على التوّجه النّسقي في جانب، والتميّز عمّا كان سائدا من دراسات لسانية لا تأبه ببحث العلاقات ودورها في كشف بنية اللغة عموما في جانب ثان.

إنّ هذه النَّسقية فرضت على هلمسلف أن يرفض كلَّ توجه لساني يستعين في دراسة اللّغة بعلم آخر غير اللّسانيات، وبمقابل ذلك تكون اللّسانيات التي يريدها هلمسلف ذلك العلم الذي لا يقارب اللّغة من الخارج ولكن من الدّاخل"[320]"، نفهم من اللّسانيات البنوية كما يقول هلمسلف: **«مجموعة البحوث المبنية على فرضية يكون بحسبها مشروعاً علمياً وصف اللغة بكونها جوهريا كِياناً مستقلا من التعالقات الدّاخلية، أو بكلمة واحدة، بنية»"[321]".** وقال في موضع آخر من الكتاب نفسه: **«... تدعو هذه الفرضية إلى عدِّ هذا الكِيان المستقل بكونه مؤسسا جوهريا من تعالقات داخلية»"[322]"**، والحق أنّ هذه النَّسقية التي طوّرها هلمسلف بهذا الشكل ما هي إلاّ تنمية واضحة جدًّا للمقولة السوسيرية الشهيرة «دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها». فمنطلق فرضية "النّسقية" هو هذه المقولة، وجوهرها هو العلاقات، وهدفها إن صحَّ التعبير هو فرضية "المحايثة".

تحظى هذه العلاقات بأهمية كبرى في اللّسانيات الغلوسيماتيكية ؛لأنها تشكّل **«نسق لسان ما، ويكون هذا النّسق الجوهري هو الذي يميّز لساناً في مقابلة باقي الألسن»"[323]"**، وعلى هذا الأساس كانت المقاربة البنوية للغة على حدِّ تعبير هلمسلف: **« بالمعنى الحقيقي للكلمة مصمَّمة باعتبارها مقاربة علائقية خالصة لهيكل اللّغة، بمعزلٍ عن التمظهر في الاستعمال اللّساني»"[324]"**. فلا الأصوات، ولا مكونات المحتوى الدلالي، ولا الحروف المكتوبة

---

[319] -*Voir :ibid, p36-40.*
[320] -*Voir :* ***Hjelmslev****, Essais, p31*
[321] **-** *Ibid, p29, et p109, voir aussi, connaissance de Hjelmslev prague ou copenhagen ? in (www.glossematics.org/Forum/pdf/zilberberg-connaissance.pdf).*
[322] **-*Hjelmslev****, Essais, p31-32.*
[323] *-ibid, P35.*
[324] *-ibid, P39.*

هي ما يعوّل عليه في الدّراسة، وإنّما العلاقات المشتركة أو المتبادلة الموجودة بين تلك الأصوات والحروف والدّلالات.

لقد أدى هذا الحرص على أن تكون العلاقات الدّاخلية هي الموضوع الوحيد في الغلوسيماتيك إلى التّعمق في بحث هذه العلاقات والتنظير لها، وقد تجلى هذا التعمق في تلك التقسيمات التفريعية للعلاقات إلى أحادية، وأخرى متبادلة، وأخرى لا أحادية ولا هي متبادلة، أو ما اصطلح عليه هلمسلف بـــ: ***Interdépendances*** وهي ترابطات متبادلة بين الوحدات اللّسانية، و***Déterminations*** وهي تحديدات بمعنى أن تكون أوجه التبعية أحادية، بحيث تشترط وحدة لسانية الأخرى ولا تنعكس القضية، وأخيرا ***Constellations*** أي: تعالقات أو ائتلافات حرّة، بحيث لا تكون العلاقات متبادلة"[325]"، فلا تشترط وحدة لسانية وحدة أخرى.

ومن المميّزات التي يمكن حسابها لصالح هلمسلف أنّه لم يُبقِ على مفهوم العلاقات بالاسم الذي اعتاده اللّسانيون؛ بل أطلق على هذه العلاقات الدّاخلية اسم "الوظيفة" "***La fonction*** "، ومعنى الوظيفة عنده قريب من معناها المنطقي الرّياضي، فهي علاقة بين مفردتين تسميان حَدَا الوظيفة ***Les fonctifs***، ومرة أخرى نجد لهذا المفهوم المنطقي الرّياضي للعلاقات اللّسانية الغلوسيماتيكية امتدادًا إبستمولوجيا واضحاً عند "رودولف كارناب ***Carnap***" بل هو صورة مطابقة له، يقول كارناب في ذلك: « تنقسم مشكلة أساس النّسق البنائي إلى جزأين. علينا أوّلا أن نقرِّر أيُّ المواضيع نعتبرها عناصر أساسية... لكن، إذا أردنا متابَعة البّناء يجب أن توضع مواضيع أخرى كمَصدرٍ للنّسق البِّنائي، أعني: إمّا الفئات "الفئات الأساسية"، أو العلاقة الماصدقية "العلاقات الأساسية". إذا كانت العناصر الأساسية المعطاة تتواجد من دون أوصافٍ ومن دون علاقات، فلن نستطيع أن نتقدَّم في البّناء. لن نعمل ... على جعل الفئات مصدراً للنّسق البّنائي، بل العلاقات الماصدقية، والعلاقات الأساسية تشكِّل هذه الأخيرة وليس العناصر

---

325 -*voir : Hjelmslev. Prolégomènes, p49-57*

وينظر أيضا **بارتيشت بريجيتيه** مناهج علم اللغة ص210

الأساسية، المواضيع الأساسية غير المعرّفة (المفاهيم الأساسية)، وكلُّ مواضيع النَّسق الأخرى تُبنى منها»"326".

يبدو النَّص الذي كتبه "كارناب" واضحاً جداً فيما له صلة بمعنى العلاقات، إذ لا خلاف بينهما في كون العلاقات هي الأصل في كل نسق سواء كان نسقاً منطقيا أو رياضياً أو لسانياً، والأهم من ذلك كلِّه هو أنّ هذه العلاقات التي يتحدث عنها هلمسلف أو سوسير قبله، باعتبارهما لسانيين بنَوِيَين تتصف بالأسبقية الوجودية على العناصر أو المكونات الأساسية للنَّسق اللّساني، وبهذا تكون هذه العلاقات متجاوزة للمكوِّنات أو العناصر اللّسانية ذاتها، وأنَّها لها الأولوية والأسبقية في ذلك، لأجل هذا عدَّها هلمسلف كما سبق أمراً جوهرياً وأساسياً في كلِّ نسق"327"، وأنَّها هي المعنية بالبحث والدِّراسة العلمية لا العناصر ذاتها.

وقد أوضح "كارناب" من جهته أمر الأسبقية هذا بقوله: «كلَّما تعلّق الأمر بالبِّناء تكون العلاقات الأساسية سابقة على عناصرها، أي العناصر الأساسية عموماً، تعتبر نظرية بناء المواضيع الفردية ثانوية بالنَّظر إلى شبكة العلاقات التي توجد فيها»"328"، إذاً بكلمة واحدة: العلاقات هي الأصل وليست العناصر أو المكونات ذاتها.

إنَّنا نجد هذه العلاقات بهذا الشكل المجرد مناسبة ومتلائمة مع الفكر العلائقي في الرياضيات الأكسيوماتيكية، فهو فكر لا يأبه في دراسته بالماهيات أو الماديات؛ بل يتجه صوب دراسة العلاقات الدَّاخلية المجردة بين المقادير أو الكميات الرِّياضية ممّا يُضفي عليه صفة التعالي هو الآخر عن الواقع الفعلي"329". وفي النِّهاية لا شيء من المكوّنات أو العناصر الأساسية اللِّسانية وغيرها يحظى بأهمية أو بقيمة ما، مادام خارج النَّسق الذي يوفر لها نوعاً من العلاقات الدّاخلية الخاصة، أو بعبارة مغايرة: في الغلوسيماتيك لا شيء من العناصر اللِّسانية يمكن الحكم عليه بحكم ذي قيمة ما لم يكن مرتبطاً مع باقي العناصر اللِّسانية الأخرى داخل النَّسق

326- **رودولف كارناب**، البناء المنطقي للعالم،ص ص243-244.

327 -*voir : Hjelmslev, Prolégomènes, p36, et aussi,* ***S.Auroux et autres****, la philosophie du langage, p117-119.*

328- **رودولف كارناب**، البناء المنطقي للعالم، ص244.

329- ينظر ، **رودولف كارناب**، الأسس الفلسفية للفيزياء، ص243.

بعلاقات نوعية"[330]". فالعلاقات وحدها هي ما يمنح لكلِّ عنصرٍ أو مكوِّنٍ لساني داخل النَّسق قيمة محدّدةً.

3-2- 2- المحايثة:

تتجلى فرضية "المحايثة" عند هلمسلف في مواضع مختلفة من مؤلفاته، وقد صرَّح بذلك في العديد من الفقرات، فمن ذلك قوله: « **إنّ النَّظرية التي تسعى لبلوغ البنية الخصوصية للغة بواسطة نظام يرتكز على مقدمات محصورة في الشكل، ينبغي بالضرورة مع مراعاة تقلُّبات وتغيُّرات الكلام أن تمتنع على منح التقلُّبات والتغيُّرات الدّور الأبرز، وتبحث عن ثباتٍ لا تكون جذوره موجودة في الواقع غير اللِّساني، ثبات يعمل على أن يكون كلّ لسان لساناً، أيّ لسانٍ كان،وعلى أن يبقى اللِّسان مُماثلاً لذاته، من خلال تجلياته الأكثر تنوعاً** »"[331]".

يدل هذا النّص بعبارة واضحة على مفهوم "المحايثة" عند هلمسلف، وهو قوله خاصة :"**تبحث عن ثباتٍ لا تكون جذوره موجودة في الواقع غير اللِّساني**" وقوله أيضا: «**على أن يبقى اللِّسان مماثلاً لذاته**"، فهذا القول لا يختلف عن باقي الأقوال السابقة التي قدَّمناها في خصوص رفض المنطلقات الفلسفية الميتافيزيقية المتعالية، وكذا رفضه لكلِّ دراسة لسانية تنطلق من علوم ليست هي لسانية مثل المنطق والسيكولوجيا وغيرهما.

فالمحايثة بهذا الاعتبار يصعب إيجاد فصل دقيق بينها وبين فرضية النَّسقية، فكلاهما يصب في نقطة واحدة؛ لأنّ الغاية من وضع فرضية "النَّسقية" هو الوصول إلى البنية الحقيقية والنّوعية في كلِّ لسانٍ، والأمر ذاته ينطبق على فرضية "المحايثة"، فاللِّسانيات البنوية والغلوسيماتيكية خاصة تدرس العلاقات الكائنة بين العناصر اللِّسانية داخلياً، ولهذا يطلق على لسانيات هلمسلف تحديداً بأنَّها لسانيات محايثة؛ لأنَّها أَقْصَت كلّ معرفة ميتافيزيقية متعالية"[332]" من حقل الدِّراسات اللِّسانية، وقد بيَّن ذلك هلمسلف مراراً، من ذلك قوله: « **وقد اقترحت**

---

[330] *Voir : **O.Ducrot**, logique et linguistique, in langages 1ere année N°2, 1966, p30.*
[331] ***Hjelmslev**, Prolégomènes, p15.*
[332] *Voir : **J.Dubois**, Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, p240.*

إنشاء هذا الجبر المحايث للسان من أجل تسجيل انفصالها عن الدّراسات اللِّسانية السابقة واستقلالها عن مبدأ المادة الخارج لساني»"[333].

انطلاقا من هذا، تكون المحايثة نقيض التعالي، وأن ما يجعل اللِّسانيات علماً مستقلاً قائم الذّات هو الدّراسة المحايثة للسان؛ لذا فهي تنشد هدفاً داخلياً محضاً يناسب البحث في العلاقات الدّاخلية لكلّ نسق، وعليه تكون الدّراسات المتعالية التي اعتنت باللُّغة اتخذتها واسطة أو وسيلة لبلوغ أهدافٍ ليست لسانية « **إنَّها... وسيلة لمعرفةٍ متعالية بالمعنى الحقيقي التأثيلي للمصطلح ،وليست هدفاً لمعرفة محايثة**»"[334]. تعتمد اللِّسانيات الغلوسيماتيكية إذاً على فرضية "المحايثة" بشكل كبير لأجل تصفية اللِّسانيات عموما من كلّ التراكمات التي لحقت بها عبر الزمن، وعلى هذا الأساس ستكون اللّغة بهذا الاعتبار موضوعاً داخلياً مجرداً تُعنى به لسانيات مؤسسة على مبدأ المحايثة المفترض"[335]"بحثاً وتمحيصاً، فهي نظرية لسانية تبحث عن « **معرفةٍ محايثة للسان إلى حدّ كونها بنية نوعية: بحيث لا تؤسس إلاَّ على ذاتها... نبحث عن ثبات في داخل اللِّسان ذاته، وليس خارجه...** »"[336]".

بَيِّنٌ ممَّا تقدَّم أن فرضيتي "النَّسقية، والمحايثة" قد وجَّهتاَ كل البحوث اللِّسانية البنوية من أول الأمر، فابتداءً من دي سوسير سارت اللّسانيات البنوية على هذا المنوال ولم تخرج عنه باعتباره نواتها الصلبة، وتأكدت هذه النّواة على يد هلمسلف في الغلوسيماتيك، وهكذا كلَّما خَبَت جاء من علماء اللِّسانيات من يدفعها من جديد ويضعها في الطريق نفسه، وهذا نلفيه واقعاً فعلياً في السِّيميائيات السَّردية والخطابية كما قدَّمها "غريماس" "***Griemas***" في برنامجه النَّظري والتطبيقي؛ إذ عرفت النَّواة الصلبة في اللِّسانيات البنوية شيئاً من الفتور، فبمَجيء "غريماس" وظهور مدرسة باريس نمت تلك النّواة، وأعطاها بُعداً آخر مما أهَّلها لأن تكون صالحة لمزيد من التصورات العلمية المستقبلية سيميائيًا أو لسانيا أو نقديا على حدٍّ سواء.

333***Hjelmslev,*** *Prolégomènes, p120.*

334-. *Ibid, p10, et p160.*

335-. *Voir :* ***J.C.Coquet,*** *Réalité et principe d'immanence, in langage 25eme année, N°103, 1991, p23. et aussi,* ***Drisse Ablali, Dominique Ducard,*** *et* ***autres****, vocabulaire des études sémiotiques et sémiologiques, Ed, puf et champion, paris2009, p208.*

336***_Hjelmslev,*** *Prolégomènes, p31.*

ومن دون تفصيل، يمكننا اعتبار ما قدَّمه "غريماس" من إضافات وتنقيحات للغلوسيماتيك بَرَامترات أو فرضيات مساعدة يلجأ إليها جرَّاء ضعف النَّواة الصلبة في أيّ برنامج بحث علمي، وما قام به "غريماس""[337]" في حقل السيميائيات السردية أكبر دليل على تنمية النَّواة الصلبة للغلوسيماتيك وحمايتها؛ بل وإنقاذها من الإبطالات والاختبارات التجريبية المتعارضة معها، بجلب فرضيات مساعدة من علوم مجاورة كالمنطق، والنَّقد وغيرهما.

3- 3 - فرضية العمل الأساسية في الغلوسيماتيك:

تُعد الفرضية بوجهٍ عام مُنطلقًا قويًا وشرطا أساسيًا في كل تفكير علمي جادٍّ يسعى لبلوغ البنية الحقيقية لأيِّ ظاهرة يراد دراستها؛ لذا نجد العلماء على اختلاف مشاربهم المعرفية والمنهجية يستعينون في كلّ تصوُّراتهم وبرامجهم العلمية بالفرضيات، باعتبارها الفكرة الأولية التي لابد منها لأجل تقديم تفسير علمي لظاهرة ما لغوية أو غير لغوية، وإنَّما يلجأ العلماء إلى وضع الفرضيات لاعتقادهم بأنَّها هي الفكرة الأكثر احتمالاً لتعليل الظواهر وتفسيرها، وعليه سيكون تحديد الفرضية على أنَّها « حقيقة ممكنة، ولكنّها ليست مبررة، فهي الفكرة التي بها يتم ترجمة الوقائع »"[338]"بتحويلها إلى ما يناسب النّظرية العلمية.

إنّ للفرضية من حيث هي كذلك تقسيمات معروفة، فلا بأس بذكرها من دون تفصيل. تنقسم الفرضية أولاً إلى"[339]":

1- فرضية العمل أو الفرضية البحثية.

2- فرضية مساعدة أو لاغية أو جوفاء.

3- فرضية صغيرة، أو فرضية قانون.

4- فرضية كبيرة أو فرضية نظرية.

وتنقسم ثانيا باعتبار الظهور والخفاء إلى:

---

[337]- .ينظر على سبيل المثال لا الحصر:

Griemas.a.Julien *sémantique structurale, 2eme Ed, puf, paris 1995.*

[338]***-Didier Julia****, Dictionnaire de la philosophie , p124.*

[339]*-voir Ibid , p124. et aussi (www.monografias.com).*

وينظر أيضا، **أحد قراملكي**، مناهج البحث في الدراسات الدينية، ترجمة، سرمد الطائي، معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية، لات. لا ط.ص ص118- 119.

1- فرضية مُصرَّح بها، أو المدروسة أو المشتقة من النَّظرية.

2- فرضية ضِمنية أو مُستنبَطة"[340]".

ما يهمنا من هذه الأقسام التفريعية المذكورة، هو القسم الأول فقط؛ لأنَّ فرضية العمل ***L'hypothèse de travail*** هي الأصل في كلِّ تنظير علمي، بناءً على ذلك ستكون فرضية العمل في النَّظرية الغلوسيماتيكية تتلخص في الآتي: **اللُّغة شكل وليست مادة.** إنَّها فكرة وُضعت وضعا بهدف الوصول إلى تقديم تفسيرات وبراهين علمية يقينية توضح حقيقة اللّغة باعتبارها ظاهرة مستقلة، وكذلك لتفنِّد الفرضيات التي ذاعت في اللّسانيات التقليدية، فهي فرضية عمل جيء بها لكي يتمَّ ترتيب غيرها عليها من فرضيات مساعدة أو مبرهنات ، وهكذا تكون فرضية العمل هذه متضمنة لصياغة البرنامج اللِّساني الغلوسيماتيكي كُلِّه؛ لأنَّ النتائج والأهداف كلاهما يرتبطان بالفرضية العملية باعتبارها مقدّمة أولية تتعلّق بها باقي مكونات ومواد النَّسق النَّظري.

من هذه الزَّاوية تكون فرضية العمل التي صاغها هلمسلف وهي أنَّ اللغة شكل وليست مادة إجابة مؤقتة لإشكالية لسانية، وهي طبيعة موضوع اللِّسانيات أو طبيعة وحقيقة الظاهرة اللُّغوية. إنَّ الذي تتميَّز به فرضية العمل الأساسية عند هلمسلف هو أنَّها من جنس الفرضيات أو المقدِّمات الاعتباطية، ذلك أنَّها ليست تجريبية أو مِرَاسية؛ لأنَّ النَّظر إلى اللّغة الإنسانية على أنَّها شكل وليست مادةً نابع من الواقع الفعلي للغة، يجعلها أمرًا ليس من السهل تصوّره، خاصة إذا علمنا أنَّ أصول اللِّسانيات البنوية عمومًا بما في ذلك الغلوسيماتيك، قد تشكَّلت على حساب إقصاء الكلام الفعلي للمتكلم الفعلي، وعوَّضت ذلك كلّه بتصوُّراتٍ وفرضيات صورية؛ لذا فهي فرضية عمل تؤدي وظيفة ربط منطقية"[341]"مع بنية النَّظرية عمومًا، دون النَّظر في الواقع، وهذا كلّه من أجل تحقيق غرض نظري آخر يتمثل في تقوية ورصانة وتماسك النّظرية شكليًا.

---

[340] - ينظر،**بناصر البعزاتي**، الاستدلال والبناء، من ص97إلى ص99.

[341] - ينظر، **أحد قراملكي**، مناهج البحث في الدراسات الدينية، ص ص362-363 .

لقد أكّد هلمسلف في العديد من المرَّات على أنَّ اللُّغة في تصوره الغلوسيماتيكي هي شكل مَحض وليست مادةً، وأنَّها بنية مجردة"[342]"، كما أكّد في كتابه المحاولات على أنَّها فرضية عمل أساسية وضرورية، فهي ليست عقيدة راسخة أو حكمًا قبليًا، وإنَّما هي ما يجعل البرنامج البحثي كلّه سائرًا في ضوئها لكونها الموجِّه الأساسي له، يقول هلمسلف: « **لنُشدّد بداية على الخاصية الافتراضية لهذه القضية الأولية، فعلاً، إنّ القول الذي تمَّت صياغته لا يملك صفة الاعتقاد الرَّاسخ أو الحكم القَبلي، إنَّه لا يعدو أن يكون مجرد فرضية عملٍ نعتقد أنّه من المفيد أن نبحث في تحققها**»"[343]" وبالوقوف على أهم النتائج الإبستمولوجية المترتبة على فرضية العمل الأساسية عند هلمسلف يَتبيَّنُ بأنَّ فرضيتي "النَّسقية والمحايثة" المتقدّمتين قد اشتقتا منها؛ لأنّه بات أمراً محتومًا أن تكون المقاربة البنوية للغة والغلوسيماتيكية تحديدًا مقاربة نسقية ومحايثة لمَّا كانت الفرضية العملية الأساسية منطلقة من مفهوم الشكل، أو بالأحرى منطلقة من دراسة الشكل، وعليه ستكون هذه الفرضية هي المتحكم في نمو برنامج البحث العلمي الغلوسيماتيكي واكتماله، والموصلة إلى هدف هو الآخر شكلي، فالغلوسيماتيك إذًا انطلقت من دراسة الشكل لبلوغ الشكل، لأجل هذا اتصفت بالصورية والتَّجريد والعلَّة في ذلك كلّه عائدة إلى ارتباطها بفرضية العمل الأساسية فيها.

ومن جملة ما يلاحظ أيضا على هذه الفرضية الأولية أو مقدمة الانطلاق أنّها لا تستجيب إلاّ لبنية الأنساق الرّياضية- الاستنباطية، بوصفها غير قابلة لأيِّ دحض أو تكذيب تجريبي لخلوِّها من المحتوى الدَّلالي الحدسي الذي يتيح لها بأن تكون لينة وطيعة إبستمولوجيًا، بمعنى أن تكون مصدرًا لاشتقاق مبرهنات جديدة من جهة، والتَّنبؤ بالوقائع العلمية المستقبلية من جهة أخرى، إضافة إلى ذلك لابدَّ أن تكون توقعات النَّظرية غير متعارضة مع فرضية العمل ذات الوصف الاعتباطي. بناءً على ذلك ستُنشئ فرضية هلمسلف وسائر البنَويين القائلين بأنَّ اللّغة شكل وليست مادة، عالَما صوريًا خالصًا، ولا تقدّم تبعاً لذلك الغلوسيماتيك باعتبارها

342 - *voir : Hjelmslev, Prolégomènes, p37. et Essais, p38-40-78-81.*
343 - *Hjelmslev, Essais, p29.*

نظرية لسانية أقوالاً تخبرنا عن موضوع لغوي ينتمي إلى عالمٍ فعلي أو حقيقي"[344]"؛ بل تتخطاه وتتعالى عليه إلاَّ ما اضطَّرت إليه ولكن بصورة محدودة جدًّا.

لقد أشار إلى ذلك هلمسلف بقوله: « **إنَّ النَّظرية التي تسعى إلى بلوغ البنية الخصوصية للغة بواسطة نظام يرتكز على مقدِّمات محصورة في الشكل، ينبغي بالضرورة مع مراعاة تقلبات وتغيُّرات الكلام أن تمتنع على منح التقلبات والتغيُّرات الدَّور الأبرز، وتبحث عن ثبات لا تكون جذوره موجودة في الواقع غير اللِّساني..** »"[345]"، وقال أيضا: « **استنادًا إلى بعض الوقائع التجريبية المحدودة بالضرورة... يقوم منظِّرُ اللُّغة في مجال دقيق بحساب كلّ الإمكانات** »"[346]"، ما يُستخلص من هذين القولَينِ هو أنَّ اجتناب الواقع الفعلي للغة والذي يتجلى في الممارسة الفعلية للكلام هو ضرورة تُمليها فرضية العمل الأساسية في الغلوسيماتيك؛ لأنَّ اعتبار الكلام الفعلي وهو واقعة تجريبية مُكوّنًا من مكوِّنات النَّظرية أو أحد موادها، سيؤدي حتما إلى التَّخلي عن فرضية العمل الأساسية هذه، وهي اللّغة شكل وليست مادة، وهذا ما يُسبِّب دحضًا مُباشرًا لها وللنَّواة الصلبة معًا في الغلوسيماتيك، وبالتالي يُدخلها في تناقض صارخ باعتباره قادحًا مُوجهًا لضرب البنية الدَّاخلية للنَّظرية الغلوسيماتيكية، فيتبدَّدُ على إثر ذلك تماسكها وانسجامها الدّاخليانِ.

خلاصة الأمر، هي أنَّ بنية اللّغة في هذا النَّمط لا تُعدُّ مثالاً لبنية المحيط أو اللّغة الموجودة في الواقع الفعلي؛ بل هي مستقلة عنه تمامًا مادَامت الفرضية بمواصفات اعتباطية"[347]"، فلا حظَّ للمحيط الخارجي أو لمعطيات التجربة، أو إن شِئناَ للممارسة الفعلية للغة في تشكيل نسق اللّغة الذي يدعو إليه هلمسلف، وبَيِّنُ بأنَّ فرضية هذه هي مواصفاتها لا محالة تشتمل على إسقاطاتٍ وتقديراتٍ وحتى تنبوءاتٍ تفوق التَّجربة وتتجاوزها"[348]"؛ لبقاء جانب من الفرضية غير خاضعٍ للفحص المراسي والاختبار التجريبي.

---

[344] - ينظر،**محمد محمد العمري**، الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية، ص242.

[345] - ***Hjelmslev,*** *Prolégomènes, p15.*

[346] - *ibid, p28.*

[347] - ينظر، **محمد الأوراغي**، الوسائط اللغوية ج1/ص79.

[348] - ينظر، **بناصر البعزاتي**، الاستدلال والبناء، ص98.

3- 4- الكفاية الأُنطُولُوجية للغلوسيماتيك:

تأسيسًا على فرضية العمل الأساسية والتي تنص على أنَّ اللّغة شكل وليست مادة، وبناءً أيضًا على أنَّ للفرضية الأولية هذه الأحقية في توجيه برنامج البحث العلمي للغلوسيماتيك من بدايته إلى نهايته، ستكون الكفاية الأنطولوجية للغلوسيماتيك غير مُستثناة من ذلك كلِّه؛ بمعنى آخر، ستتضح علاقة النَّظرية الغلوسيماتيكية باعتبارها نسقًا نظريًا فرضيًا استنباطيًا خالصًا"[349]" بالواقع اللُّغوي الحقيقي كما هو ممارس، وستكون تبعًا لذلك بين أمرين: إمَّا أن تكون النّظرية الغلوسيماتيكية نظريةً لسانيةً مؤثرة في الواقع اللّغوي الفعلي ومحدِّدةً له، ولا دخل له في بنائها، وإمَّا أن يكون العكس هو الوارد بحيث يؤثر الواقع الفعلي للغة في النَّظرية الغلوسيماتيكية ويُحدِّدها عن طريق عرضها للاختبارات المِراسية، فَيُعدِّلها بما يتناسب معه.

وهنا يتحدَّدُ السُّؤال الجوهري للعِلم وهو كما صاغه هلمسلف بقوله: « **لدينا في هذا الجانب توضيح السؤال الأساسي للعلاقات بين النَّظرية اللُّغوية وما نطلق عليه معطيات التجربة... بمعنى بحث التأثيرات الممكنة بين النَّظرية وموضوعها (أو موضوعاتها)... نقول: هل الموضوع هو الذي يُحدِّد ويؤثر في النَّظرية أم هل النّظرية هي التي تُحدِّدُ وتؤثر في موضوعها**»"[350]".وبالعودة إلى طبيعة فرضية العمل الأساسية في أيِّ بناءٍ نظري عمومًا، فإنَّها لا تخرج عن أحد الاحتمالين البارزين: ستكون فرضية العمل الأساسية إما اعتباطية أو مِراسية"[351]"، ومعنى كونها اعتباطية أنَّها لا تربطها أيُّ علاقة بالواقع اللّغوي الفعلي؛ فهي فارغة من حيث محتواها الدَّلالي الحدسي، وعليه تكون موضوعةً وضعًا اعتباطيًا أول أمرها، بعيدًا عن كل ممارسة واقعية. بالمقابل تكون فرضية العمل مِراسية إذا كانت مشتقة من الموضوع اللّغوي ذاته، فيكون لها بذلك المحتوى الدَّلالي الحدسي الذي يربطها بالواقع اللُّغوي الحقيقي؛ لأنَّها نابعة منه.

أمَّا في الغلوسيماتيك، فقد تَبيَّن بأنَّ فرضية العمل الأساسية فيها ليست مِراسية، ولا هي من الواقع اللُّغوي الفعلي مُشتقة؛ بل هي من وضع اللِّساني ذاته؛ لأنَّ جعل اللُّغة شكلاً لا مادة،

---

[349] - *voir : Hjelmslev, Prolégomènes, p24.*

[350] - *ibid, p23.*

[351] - ينظر، **محمد الأوراغي**، الوسائط اللغوية ج1، ص ص 45-46.

يعني من طريق آخر بأنَّها لغة مبتكرة من المنظّر اللِّساني ذاته، وهذا في الأساس مَبنيٌّ على اعتقاد راسخ حول الواقع بأنَّه واقع غيرُ مُنسجم"[352]"، ولا يخضع لضوابط وقوانين واضحة سَواء كان واقعًا لغويًا أو غير لُغوي. والنَّظرية بتأثيرها فيه وتحديدها له تكون لها الكفاية الأُنطولوجية في جعله واقعًا مُنسجمًا ومضبوطًا بما يوافق انسجامها وانضباطها المنطقيين النَّابعين من التَّفكير العقلاني المَحض، يقول "كارل بوبر ***K.Popper***" في هذا الشأن: « وقد حاولت مثالية كانط تفسير هذه البساطة بالقول: إنَّ عقولنا وإدراكنا هما اللّذان يفرضان القوانين على الطبيعة، وكذلك المواضعيون، فهم يعيدون البساطة وبتصميم أشد إلى إبداع عقولنا. إلاَّ أنَّ هذه البساطة ليست تعبيرًا عن قوانين عقولنا في نظرهم، فالطبيعة ليست بسيطة ولكنَّ قوانينها بسيطة وهي قوانين أبدَعنَاها نحن بحرية اخترعنَاها وأثبتناها. وليست العلوم... بالنسبة للمواضعي صورة العالم، وإنَّما هي بناء تجريدي. وليست خواص العالم هي التي تحدِّد هذا البِناء ولكن البِناء هو الذي يُحدِّد خواص عالم مفاهيم مصطنع خلقناه بأنفسنا وعرَفناه ضمنيًا بواسطة القوانين الطبيعية التي وضعناها. ولا يتحدث العلم إلاَّ عن هذا العالم »"[353]".

على هذا ستكون الغلوسيماتيك سائرةً في هذا التَّوجه المواضعاتي أو الاصطلاحي، وهي من هذه الزَّاوية تصير كيانا مجردًا له حدود مرسومة تفصله عن العالم الحقيقي للغة، فهي نظرية لسانية تصوِّر لنا عالما لسانيًا خاصا له أشكاله وكائناته وخصائصه غير ما يُعرف عن العالم الحقيقي للغة كما هي، وهذا الواقع اللُّغوي الفِعلي وهو يُعارض النَّظرية اختباريا ينبغي تكييفه وإعادة صياغته حتى يصير مُلائمًا للبنية الأساسية للنَّظرية اللِّسانية، وموافقًا لها؛ بحيث لا يشكّل خطرًا مُهدّدًا لنواتها الصَّلبة أو فرضية عملها الأساسية، وإذا كان هذا هكذا فهي تؤثر في الواقع اللُّغوي وتترجمه إلى لغة رياضية كمية مُجردة عن طريق آلية الصَّورنَة والتَّجريد، وبالتَّالي لا يضرُّها إن خالفها بعد ذلك الواقع اللُّغوي الفعلي أم لا؟ طالما لا يُلتفتُ إليه أصلاً إلاَّ في النَّادر، يقول هلمسلف في هذا الصدد: « **إنَّ المعطيات التجريبية لا تستطيع أبدًا لا أن تُصدِّق ولا**

---

[352] - *voir :* ***Mortéza Mohmoudian****, Adication externe des théories linguistiques, p969.*

[353] - **كارل بوبر**، منطق البحث العلمي، ص110.

أن تُبطلَ صحة النَّظرية ذاتها... ولكن فقط قابليتها للتطبيق»"[354]" وهذا كلّه مَادامت النَّواة الصَّلبة فيها باقية على أصل وضعها و لم يطرأ عليها ما يغيِّرها.

فاتجاه التَّأثير هنا يكون من النَّظرية الغلوسيماتيكية إلى الواقع اللُّغوي الحقيقي بغرض تعديله وإعادة صياغته، فالتأثير إذًا أحاديٌّ غيرُ مُتبادَلٍ؛ لأنَّ الواقع لا يتدخل في تشكيل بنية النَّظرية الغلوسيماتيكية؛ لأنَّها نسقٌ فرضيّ استنباطي خالص، فيتحول على إثر ذلك الواقع اللُّغوي إلى نظامٍ صوري مجرد خالص مُبتدع من قِبَلِ اللِّساني ذاته، بقصد التحكم فيه عن طريق التَّنظير ومن ثم المقدرة على تبسيطه"[355]" بقدر الإمكان للوصول إلى فهمٍ عميق له.

لقد تَبيَّنَ بأنَّ الغلوسيماتيك بحكم وضعها على فرضية عمل اعتباطية أنَّها لا تسمح بأن يكون الواقع اللُّغوي الفعلي المتمثل في الكلام مُؤثرًا أو سببًا في تعديلها؛ لأنَّ هذا سيَؤُولُ بها إلى الوقوع في تناقض كبير يقضي على النَّواة الصَّلبة فيها، وقد أكَّد هلمسلف مِرارًا على الطابع المحايث للغلوسيماتيك بإقصائهِ ورفضه لِكلِّ معرفة لسانية أصلها تأمل فلسفي مَحض أو مُتعالٍ على جوهر الظاهرة اللُّغوية، من ذلك قوله: « **تبحث النَّظرية عن معرفة مُحايثة للسان إلى حدِّ كونها بنية نوعية بحيث لا تُؤسَّسُ إلاَّ على ذاتها ... نبحث عن ثباتٍ في داخل اللِّسان ذاته وليس خارجه»**"[356]"فإخضاع الغلوسيماتيك إلى الاختبار المِراسي يتنافى مع روح فرضية العمل الأساسية فيها ويُهدِّدها، ولا تصير بذلك اللُّغة شكلاً بل مادةً، ومنه يتضح جليًّا أهمية فرضية العمل في توجيه البحوث اللِّسانية عُمومًا، وأنَّ الحرص كلَّه مَبنيٌّ على ضرورةٍ تقتضي حماية هذه الفرضية البحثية، وهو ما ينتج عنه حماية النَّواة الصَلبة في كلِّ بناءٍ نظري، والسُّؤال المطروح هُنا هل هلمسلف بهذا الاعتبار يكون اصطلاحيًا (أو مَواضعيا)؟.

قد تكون الإجابة بالإيجاب من جهة ما صرَّح به في أن يكون الموضوع هو المؤثر في النّظرية وليس العكس؛ بحيث قال: «**... بهذا المعنى المستعمل بكثرة في أيامنا، يتأكَّد أنَّ علاقة التأثير بين النَّظرية وموضوعها هي أحادية، إنَّه الموضوع هو الذي يُحدِّدُ ويؤثر في النَّظرية**

---

354 - ***Hjelmslev,*** *Prolégomènes, p24.*

355 - ينظر، **كارل بوبر**، منطق البحث العلمي ،ص ص172-173.

356 - ***Hjelmslev,*** *Prolégomènes, p31, et 10-11,160.*

وليس العكس»"[357]" يكشف هذا القول الموجز عن الرَّفض الضمني للتَّوجه الذي يرى في العلاقة بين النَّظرية والواقع على أنَّها علاقة متبادلة، وأنَّ الواقع هو الذي يؤثر في البِّناء النَّسقي للنَّظرية ويُحدِّد النَّظرية ويحكم عليها بالصِّدق أو بالكذب؛ إذ لا يخفى أنَّ هذا التّوجه يبني النَّظريات العلمية بما في ذلك اللِّسانية على فرضيات عملٍ مِراسية مُنتَقَاة من الواقع اللُّغوي الحقيقي، ولها مضمونها الدَّلالي الحدسي.

إنَّ هذه الفرضية المراسية تكون قابلة للاختبار، وحيثما كانت متطابقة مع الواقع كانت كذلك، وحيثما خالفت نتائج النَّظرية الوقائع الفعلية اللُّغوية فإنَّ الحلّ يكمن في إعادة صياغة النَّظرية من جديد ولو على حساب نواتها الصَّلبة أو فرضيتها العملية بإدخال تعديلاتٍ عليها من مثل إضافة مُسلَّمةٍ أو إحداثِ تغيير في مُسلَّمةٍ كانت موجودة"[358]"، ولا مجال لإعادة صياغة الواقع اللُّغوي الفعلي، فهو توجّه واقعي تكون فيه العلاقة بين النَّظرية والواقع متبادلة، والتأثير بينهما متبادل وليس أحاديا كما هو الأمر مع النَّظرية اللِّسانية ذات النَّزعة الاصطلاحية.

يَبدُو أمرًا بسيطًا إذا وضعنا في الحسبان أن معرفة هذه القضايا يتعلَّق كُلُّه بمعرفة مواصفات الفرضية العملية الأساسية، فلا جَرَم إن كانت اللِّسانيات الغلوسيماتيكية نظرية لسانية صُورية مجردة، مادامت فرضية عملها اعتباطية، ولا تعارض حينئذٍ بينها وبين طبيعة المنهج الذي وظَّفته الغلوسيماتيك وهو الفرض والاستنباط، ولا تعارض بعد ذلك بين بنيتها الدَّاخلية ونتائجها وهدفها، فالحصيلة بهذا الاعتبار هي أن الغلوسيماتيك التي وضعها هلمسلف تُعدُّ نظريةً لسانية تصوِّر موضوعًا لغويًا خاصًّا بها وهو عين هدفها المراد بلوغُه ،غير الموضوع اللُّغوي العادي الذي نُمارسه، وإنّما كان ذلك كذلك لأنَّ فرضية العمل الأساسية **"اللّغة شكل وليس مادة"** هي التي وجهت التفكير الغلوسيماتيكي ابتداءً وانتهاءً فكان لِزامًا أن الأمر سَيؤُول إلى وضع نظريةٍ لسانية بعيدة عن الواقع، وصارت نتيجة لذلك مُتعاليةً عليه، في الوقت الذي كان فيه يدعو هلمسلف إلى رفض كلّ أشكال التعالي الفلسفي، وهذا ما جعل العلماء ينعتوُنَها تارة بأنَّها نظرية في المعرفة وليست نظرية لسانية، أو أنَّها نظرية مُجردة"[359]" تَصلحُ للحقل

---

[357] *-ibid, p23.*

[358] - ينظر،**آلان شالمرز**، نظريات العلم، ص ص59-60.

[359] - *voir : **O.Ducrot**, logique et linguistique, p30.*

الرِّياضي أكثر مما هي صالحة للحقل اللِّساني، إلى غير ذلك من النُّعوت والأوصاف التي نُسبت إلى الغلوسيماتيك.

إذًا، كون النَّظرية الغلوسيماتيكية نظرية مُؤثرةً في الواقع اللّغوي الحقيقي يدّل على أنَّ التأثير يكون منها باتجاه الواقع، فهو تأثير أُحاديٌّ وأنّ الغلوسيماتيك نظرية مُتزَّهة عن النَّقض، بخلاف الواقع الذي ينبغي ضبطه بتعديله وإعادة صياغته من جديد، وهذا في جانب يكشف عن خلفية إبستمولوجية تقتضي بأن تكون النَّظريات اللِّسانية كيانات مجردة مؤثرة في العالَم؛ لهذا لا تقبل أدنى تغيير أو تعديل في بنيتها باستثناء ما يتعلّق بالحزام الوقائي لها، أمَّا نواتها الصَّلبة فَلا. وإن كانت النَّظريات اللِّسانية كُلّها تتضمن كِلا الصَّعيدين النَّظري والمِرَاسي، مع العِلم بأنَّ إمكانية الجمع بينهما إبستمولوجيًا يجلب كثيرًا من الإشكالات الإبستمولوجية العَويصة"[360]".

بالمقابل، يكون التوجّه الذي يرى بأنَّ النَّظرية تؤثر وتتأثر في علاقة تبادلية بينها وبين الواقع اللُّغوي الفعلي، مَبنيًّا على أن النَّظرية ليست كِيانا مجردا خالصًا لا يقبل التكذيب أو الدَّحض، وإنَّما هي وسيلة يلجأ إليها العلماء، والغرض منها مُساعدتهم على فهم الكثير من ظواهر هذا العالم الفسيح ومظاهره. ولا تمتلك النَّظرية القدرة ولو نظريًّا على إحداث تأثيرات في العالم، بل هي آلية عِلمية قابلة للتعديل والتغيير بحسب ما يَفرضُه الواقع من مُستجدَّاتٍ ولو على حساب نواتها الصَّلبة أو فرضية العمل الأساسية فيها؛ لأنَّها بهذا الاعتبار تكون أكثر مُرونة وطواعية، وأكثر قُرباً من الحسِّ العام، وليس يخفى ما في هذا المنحى من فَتحٍ لمجالات التقدُّم العلمي؛ لأنَّ النَّظريات عمومًا بما في ذلك اللِّسانية كلّما خضعت للاختبارات المِراسية كلما كانت التَّعديلات والتَّغييرات مُصاحبةً لذلك، وهذا بدوره يقود إلى كشوفاتٍ جديدةٍ تُفضِي إلى وضع حسَاباتٍ لإمكانات مُستقبلية في موضوع اللُّغة كما في غيره.

---

[360] - *voir :* ***David Piotrowski****, légitimation faible et formes internes de la langue ,p137-139 .*

الفصل الثالث

تلقي الفكر اللساني العربي للنظرية الغلوسيماتيكية

1-السيمائية السردية امتداد للغلوسيماتسيك.
2-تلقي الغلوسيماتيك في الفكر اللساني العربي.
3-موقف اللسانيين العرب من الغلوسيماتيك.

1- السيميائية السردية امتداد للغلوسيماتيك:

كَثيراً مَا وُصِفَت الغلُوسيماتيك بأنَّها نَظرية بَلَغت حَدًا كبيرًا من التجريد، كما وصُفت أيضاً بكونها استطاعت أن تحشد كَمًا معتبراً من المصطلحات الجديدة ولكنَّها غربية عن حقل

اللِّسانيات؛ إذ كان الغرض منها تحقيق التفوق عبر التميز والتفرد عن النَّظريات اللّسانية المنافسة لها، هذا وغيره جَلَبَ لها انتقاداتٍ لاذعة من قِبل اللِّسانيين، وهو نفسهُ كَبَحَ المدَّ الغلوسيماتيكي من الشيوع والانتشار على الأقل في القارة الأوروبية، فبقي مَحدُودًا بعَدَدِ المنتسبين إليها.

إنَّ هذه الأحكام الانتقادية التي وُجهت صوب الغلوسيماتيك جاءت مُؤَسَسة على دراسات وبحوث لسانية مُعمقة، أقلُ ما يُقال عنها أنّها دَرَسَت الغلوسيماتيك من جوانب مُختلفة، فلسفيًا ولسانياً، وإبستمولوجيًا ومَنطقياً ورياضياً"[361]"، وحتى من الجانب الجمالي"[362]"، فكانت الحصيلة كما تقول ميلكا إيفتش في سياق عرضها لنظرية هلمسلف وطريقته في ذلك: «إنّ محاولاته النَّظرية لم تكن كُلُّها موفقة؛ إذ كثيرًا ما شَرَدَ بعيدًا عن المسار الأساسي لتطور اللِّسانيات...وقد كان لذلك عواقب غير مُحبَّبة، فقد وُجِّهَ إليه اللَّومُ كثيراً لفقدانه الاتساق، ولإنكاره اليوم ما اعتقده يقينًا بالأمسِ، وَلِمَا تتسم به نظريته من فقدان الكمال في جميع تفصيلاتها، بل لاشتمالها على أراء متناقضة»"[363]".

لقد أُكِّدَ هذا الأمر من منظور ما توصَّلت إليه الغلوسيماتيك من نتائج لسانية وعلاقة ذلك بالإنسان المتكلم المستعمل للغة فعليًا؛ إذ اتضح أنَّها أَقصت المتكلم الفعلي من المعادلة اللّسانية وإن بَدَت أنَّها تُراعي علاقة المتكلم باللّغة، يقول كلاوس هيشن مبينًا ذلك «...حتى لو كان علم اللغة البنيوي الجلوسيماتي قد نَظَر إلى اللُّغة في علاقتها بالاستخدام اللُّغوي، فإنه ربما أُنشئت باستمرار طريقة نَظَرٍ ضيقة وفَقيرة حَقًا؛ ولأنَّ الإنسان المتكلم بمفهوم الجلوسماتية في كلِّ الأحوال مُنتج للنَّص، ولم يَكن بَعدُ متواصلاً لمرَّة واحدة... ناهيك عن أن يكون الإنسان الفاعل اجتماعيًا»"[364]".

إلى جانب هذا الذِّي ذَكَرْنَا يُصَنِّفُ بَعض اللِّسَانِيينَ الغُلُوسِيمَاتِيكَ ضِمْنَ العُلُوم غَيرِ لسَانية؛ لاعتبَارَاتٍ مَنْهَجِيَةٍ وَفَلْسَفِيَةٍ وَتِيمِيَةٍ، مِن ذَلِكَ مَا ذَكَرَتْهُ بارتيشت بريجيته: « فَلَيست الجلوسيماتية في الحقيقة نظرية، بل إنَّ بعضها بالأحرى نظرية في العلم وبعضها سيميوطيقا»"[365]"، إلاّ أنَّ ما تطرق إليه هلمسلف في مؤلفاته خاصة المقدمات من مباحث

---

[361]- يُنظر في ذلك العدد الخاص بالغلوسيماتيك من مجلة اللغات *Langages 2eme année N° 6.1967*

[362] - *voir : **Jean Domerc**. La glossématique et l'esthétique .in Langue Française n° 03,1969.*

[363]- **ميلكا إيفتش**، اتجاهات البحث اللساني، ص323 وص ص334-335.

[364]- **كَلاوس هيشن**، القضايا الأساسية في علم اللغة، ص105. وينظر أيضا: **بارتشت بريجيته**، مناهج علم اللغة، ص 225.

[365]- **بَارتشت بريجيته**: مناهج علم اللغة، ص226.

متعلقة بالجانب السيميائي كان منطلقًا قويًا لمدرسة باريس السيميائية، والتي يمكن عَدُّها المنقذ الأول والمباشر للغلوسيماتيك من التحجُّرِ التجريدي الذي أبعدها عن الواقع اللُّغوي الفعلي، بل نَخَرَ النَظرية من نواتها.

إنّ الأعمال التي قَدَّمها " غريماس" ***Greimas*** تحديدًا ساعدت على قراءة الغلوسيماتيك قراءة أخرى تُقرِّبُها من جُمهور الدَّارسين، واستطاعت أن تُقحِمها في الحقل النّقدي السَردي الذي –إن جاز لنا القول – مَنَحَ الغلوسيماتيك شَيئًا من الواقعية؛ لِذَا فإن العلاقة التي تربط السيمَيائية السَّردية كما هي في صورتها الفرَنسية بالنَّظرية الغلوسيماتيكية هي علاقة مباشرة ومُتمِّمة لما انتهى إليه هلمسلف خاصة في الجانب الدَّلالي منها، فلا يَتمُّ فَهْمُ أصول النَّظرية السيميائية السردية ما لم يتم فَهم النَّظرية الغلوسيماتيكية؛ لأنَّها مطلب منهجي وإبستمولوجي أساسي في ذلك.

تَبْرُزُ هَذِهِ الرَّابطَةُ في صُورٍ عَديدة، مِن ذَلِكَ أَن صَارَ غريماس ابْتِدَاءً مِن سَنَوات السّتِينَات من القرن الماضي هو الوريث الحقيقي لهلمسلف في دِرَاسة الدَّلَالَة"[366]"، فضلًا عن ذلك تأثُرهُ الواضح بما كَتَبَهُ هلمسلف بخاصة في كتابه "المقدمات"، تقول آن إينو في هذا الصَدد ما هذا نصه: « وقد سبق لغريماس أن أعَّد النُّسخة الأولى من الدَّلالية عندما جَلَبَ إلى الإسكندرية في **1958** النُّسخة الإنجليزية لمؤلَف ل.هَيالمسلف: المقدِّمات، وقد مَثَّلت قراءة هذا المؤلَف صَدمة دفعته إلى إتلاف مائتي صفحة من مَخطوطه»"[367]".

وبالعودة إلى كتاب "علم الدلالة النبوي" ***La sémantique structurale*** الذي ألّفه غريماس نجد الكثير من الإحالات على هلمسلف وبرُوندال بخاصة في الصفحات الأولى منه"[368]"، فكانت تلك الإحالات بمثابة القضايا اللسانية والدلالية التي تكفل بتنميتها غريماس، باعتبارها أفكارًا وتصورات لسانية قابلة لأن تُطَّور، وتتصدَّرُ هذه القضايا اللِّسانية التي توصلت إليها الغلوسيماتيك وحاولت سيميائية غريماس إعطاءها بُعدًا آخر أكثر دقة وموضوعية، قضية تقسيم الدّال والمدْلُول إلى تعبير الدال ومحتواه، وكذا تعبير المدلول ومحتواه"[369]"، علاوة على

---

[366]- ينظر: **آن إينو**، تاريخ السيميائية، ص104. وينظر أيضا: **جان كلود كوكي**: السيميائية مدرسة باريس، ترجمة، رشيد بن مالك، دار الغرب لنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ص41.

[367]- ينظر، **آن إينو**، تاريخ السيميائية، ص107.

[368] - *voir, **Greimas**, sémantique structurale. 2eme. Ed PUF.Paris. 1995. P06, 07, 08, 10, 12, 15, 16, 22, 23, 24, 25, 26, 36.*

[369] - *Voir, Ibid.p10.*

التمييز الذي قدَّمه هلمسلف بين اللغة الشارحة العلمية، واللغة الشارحة غير العلمية"[370]"، وأيضا التمييز بين الشكل والمادة، وحتى المثال الذي ضربه هلمسلف لتوضيح ذلك وهو مثال طيف الألوان"[371]".

هذه الأمثلة وغيرها تجعل من غريماس المُتَمِّمَ الحقيقي لمشروع هلمسلف اللِّساني، وإن كان تركيز غريماس مُوَجَهًا صوب المستوى الدلالي، يوضح ذلك كورتيس ***J.Courtés*** مستعينا بكلام لغريماس: «منذ يلمسليف نعرف بأنه لا يمكن القيام بعمل طيب في اللِّسانيات إذا لم نتخط هذا المستوى (الظهور) وطالما لم نعمد بَعدُ فصْلَ كلا مستويي الدال والمدلول إلى استكشاف الوحدات الأصغر والأعمق في نفس الوقت للمستويين مأخوذين كُلاًّ على حدة»"[372]"، فالعَمَلُ الذّي قَدَّمَه غريماس وجماعة مدرسة باريس يشير بوضوح إلى الجهود المبذولة في سبيل إنقاذ الغلوسيماتيك من قفص التجريد الرياضي الذي كان سبباً مباشراً في نفور اللِّسانيين منها، فكانت إضافات مدرسة باريس فاتحة جديدة للغلوسيماتيك، « فانطلاقا من الاقتراحات التي قدمها هيلمسلف حول مستوى التعبير أو المحتوى وما تفـــرع عن كل منهما ركز غريماس على "شكل المحتوى"وعَدَّهُ موضوع علم الدَّلالة»"[373]"، ولم يتوقف عند هذا وحسب، بل مَيَّز «ضمن شكل المحتوى نفسه مكونين: مكون مورفولوجي يتعلق ببنية الوحدات الدلالية ومكوِّن نحوي يتعلق بتوليف هذه الوحدات الدلالية فيما بينها»"[374]".

لقد أثمرت هذه الجهود وأفرزت مشروعا دلاليا وسيميائياً أحدث تغييرات جذرية في دراسة المعنى، وتوجت أعمال مدرسة باريس بظهور نظرية متخصصة في تحليل الخطابات الأدبية والسرديات تحديدا، ومنه استطاع غريماس ومن معه تقديم نظرية سيميائية سردية، وطوَّروا برنامجًا علميا في حقل النقد الأدبي من منظور لساني ودلالي، عمومًا فإن المربع السيميائي، والبنيات الأولية للدلالة والمكوِّنينِ المورُفولوجي والنَّحوي، ومُستويات التحليل، والبَرنامج السِّردي، ونظرية العوامل"[375]"، وعلاقة السيميائية والشعرية باللِّسانيات البنوية"[376]"وغيرها،

---

[370] - *Voir, Ibid.p15.*

[371] - *Voir, Ibid. p25.*

[372]- **جوزيف كورتيس:** مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية ترجمة: جمال حضري، منشورات الاختلاف، الجزائر، والدار العربية للعلوم بيروت لبنان، 2007/1، ص65.

[373]- **عبد الواحد المرابط:** السيميائية العامة وسيمياء الأدب، منشورات الاختلاف الجزائر، والدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ط01/2010، ص44.

[374]- المرجع نفسه، ص ص44-45.

[375] - *Voir* ***Greimas****, un problème de sémiotique narrative : les objets de valeur, in langages, 8e année, n°31, 1973, de p13 à 35.*

كُلُّها من الإضافات التي يمكن وضعها بحذاء الفرضيات المساعدة التي يؤتى بها لأجل سَدّ ثَغَرات نَظَرِيَة مَا وَإِنْقَاذها مِنَ الانهيار وَحِمَايَةِ نَوَاتِهَا الصَّلْبَة مِن الزّوَال، وَهَذَا مَا حَدَثَ فِعلاً مَع الغُلُوسيمَاتيك؛ إذ السِّيمِيَائية السَّردية والخطَابية هي الَمشرُوعُ الُمنْقِذُ والُمتَمِّمُ للغُلُوسِيمَاتيك بأَتَمَّ مَعْنَى الكَلِمَة، وَغرِيمَاس"[377]"هُو الذِّي جَعَلَ مِن فِكْرِ هِلْمِسْلِفْ اللِّسَانِي يَضْمَنُ مَزِيدًا مِن الِاسْتِمْرَارِيَة عَلى الأَقَلِّ في مُسْتَوَاه الَّتنْظِيري.

ليس غرضنا من الوقوف على علاقة السيميائية السردية بالغلوسيماتيك أو بالأحرى الكشف عن الروابط التي تجمع غريماس بهلمسلف هو التوسع فيها، وإنمّاً ينحصر قصدنا في جَعلِ هذا المبحث تمهيدًا لمبحث تلقي اللِّسانيين العرب للنظرية الغلوسيماتيكية، أو بعبارة أخرى، لما كانت السِّميائية السَّردية هي المتمِّمُ المباشر والفعلي للمشروع الغلوسيماتيكي، فإن بحث مسألة تلقي اللِّسانيين العرب للغلوسيماتيك في جهة، وللسيميائية السردية في صُورتها الغريماسية في جهة أخرى، كان أمرًا ضروريًا باعتبار أنّ واقع الفـــكر اللِّساني العربي المعاصر يحتم علينا تعيين وتحديـــد موقع النظرية الغلوسيماتيكية كما السيميائية السردية في هذا الفكر اللِّساني، ومعرفة درجة قبولهما أو عدم القبول بهما مع ذكر الأسباب الكامنة في ذلك كُلُّه.

2- تَلقي الغلوسيماتيك في الفكر اللساني العَرَبي:

يتطلب تحديد موقف اللسانيين العرب من الغلوسيماتيك العودة إلى ما كَتَبُوهُ في شأن هذه النَّظرية، وعلى العموم يلاحظ الباحث بأنَّ ما كتب في شأنها يعد على الأصابع، ناهيك عمّا تميزت به تلك الكتابات المعدودة، مما ينبئُ من جهة أخرى عن موقف سلبي تجاه الغلوسيماتيك كما تكشف لنا تلك الكتابات العربية التي انتقيناها باعتبارها عينة عن رفضها للغلوسيماتيك، وأنها لم تحظ بالقبول والإقبال من قبل اللِّسانيين العَرب بالموازاة مع نظريات لسانية أخرى مثل التوليدية والتحويلية، والتداولية وغيرها.

قبل الشروع في بيان ذلك يحسن بنا أن نشير إلى الكتابات اللِّسانية العَربية التي اخترناها على أساس أنَّها عينة قابلة لأن تدرُس باعتبارها تلقت الغلوسيماتيك، وقد وقع اختيارنا على الأتي: عبد الرحمن الحاج صالح، وأحمد مومن، وأحمد عزوز، ومحمود خليل إبراهيم، ومحمد

---

[376] *Voir* ***Greimas****, les relations entre la linguistique structurale et la poétique in, UNESCO/ss/41/3, 244, 1/h/21, Paris le 1er avril 1966.*

[377] *Voir, www.claudZlberberg.net./pdfs, une continuité incertaine Saussure, Hjelmslev, Greimas.*

الصغير بناني، وصلاح فضل، وعز الدين المجذوب، ونايف الخرما، ومحمد علي الرُّديني، ورَمَضان عبد التواب، ومحمود فهمي حجازي.

وإنما اِقتصرنا على هؤلاء الدّارسين؛ لأن أعمالهم أعطت للغلوسيماتيك حيزاً مع تفاوت بينهم في ذلك من إطناب وقصر، وتوسع وإيجاز، ومن سطحية وعمق،كما سيتبينُ في موضعه، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الذين أتينا على ذكرهم لا يعني أنّهم هم الذين كتبوا في شأن الغلوسيماتيك دون سِوَاهم؛ بل توجد كتابات لسانية عربية أخرى تطرقت إلى الغلوسيماتيك، وإنما لم ندرجها هنا لاعتبارات منهجية ليس إلَّا، ومع ذلك تظل هذه الكتابات اللِّسانية العَربية محدودة جدًا وقاصرة عن أداء مهمتها كما يجب.

بالجملة يمكننا تصنيف هذه الكتابات العربية إلى ثلاثة أصناف متباينة في عرضها لنظرية هلمسلف الغلوسيماتيك:

1- صنف تبنى الطريقة السطحية والتبسيطية في عرض الغلوسيماتيك.

2- صنف تبنى الطريقة المعمقة شيئاً ما في ذلك.

3- صنف تجاوز الغلوسيماتيك رَأسًا.

2 - 1- تعيين الأصناف إجمالا:

يمكن تعيين هذه الأصناف الثلاثة بصفة إجمالية كالآتي:

1- أما الصنف الأول فإنه ينقسم إلى قسمين فرعيين هما:

أ- التطرق إلى الغلوسيماتيك بإيجاز: وأهم الباحثين الذين تميزت كتابتهم بهذا الوصف هم:

- عبد الرحمن الحاج صالح في كتابه "بحوث ودراسات في علوم اللسان".
- أحمد عزوز في كتابه "المدارس اللسانية".
- محمود خليل إبراهيم في كتابه "في اللسانيات ونحو النّص".
- محمد الصغير بناني في كتابه: "المدراس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة".

ب- التطرق إلى الغلوسيماتيك بشيء من الإطناب: وأهم هؤلاء:

- أحمد مومن في كِتابه "اللِّسانيات النشأة والتطور".
- صلاح فضل في كتابه "علم الأسلوب والنظرية البنائية".

2- أما الصنف الثاني فهو الذي تبنى العرض المعمق بعض الشيء والمطوّل أيضا، ويمثلُهُ عز الدُّين المجدوب في كتابه "المنوال النحوي العربي".

3- الصنف الثالث وهو الكتابات اللسانية التي تجاوزت ذكر الغلوسيماتيك رأسا، وإن كانت هذه الكتابات عُنونت تارة بالمدارس اللسانية وتارة أخرى بالمدخل إلى اللسانيات أو علوم اللغة أو علوم اللسان أو مناهج علم اللغة وأهم من مثل هذا الصنف:

- نايف الخرما في كتابه "أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة".
- محمد علي الرّديني في كتابه "فصول في علم اللغة العام".
- رمضان عبد التواب في كتابه "مدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث فيه".
- محمود فهمي حجازي في كتابه "مدخل إلى علم اللغة".

إن المعايير التي وضعناها في هذا التقسيم تنحصر في معياري الإيجاز والتوسع، وفي البساطة والسطحية والعمق الإبستمولوجي، وأيضاً في معيار مضمون الكتاب وعلاقته بالعنوان المختار له.

2- 2- تَفْصِيلُ الأَصنَافِ:

القِسمُ الأَولُ مِنَ الصِّنْفِ الأَوَلِ:

إن الاِطلاع على هذه الكتابات اللِّسانية المذكورة، يكشف لنا عن مَدى سطحيتها وعدم تعمقها في دراسة مقولات الغلوسيماتيك كما ينبغي؛ لذا فهي عند التحقيق لا تزيد عن كونها كتابات تمهيدية"[378]"مدرسية موجهة لجمهور الطلبة ومن ضمنها ما هو في الأصل محاضرات أُلقيت عليهم، على هذا الأساس لا نَجدُ في هذه الكتابات وقفة إبستمولوجية على المنطلقات التي ارتكز عليها هلمسلف ولا اِهتماماً بالجانب التنظيري والتأصيلي للغلوسيماتيك؛ بل كل ما فيها مجرد أفكارٍ لسانية عامة، ومتدوالة قيلت عن الغلوسيماتيك وهي فارغة من

---

[378]- استعرنا مصطلح: الكتابات التمهيدية "من **إسماعيلي علوي** في كتابه" اللِّسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دَارُ الكتاب الجَديد. ليبيَا، ط01/2009، الفَصلُ الثالث، ص ص97-99.

حيث محتواها الفلسفي والإبستمولوجي إلاَّ مَا وَرَدَ في الصنف الثاني، وهذا بدوره يُعَسِّرُ على المتطلِّعين للتَّعرف على ما يُنتَجُ من نظرِيَاتٍ لسانية، الفَهْمَ الحقيقي والصَّحيح لها ومُصَادَفَةُ هَذَا أَمر وَاضح جلي فيما كتبه اللِّسانيون العَرب عن الغُلُوسيمَاتيك.

إن هَذه الكتابات التي أَشَرنَا إِلَيها إِجْمَالاً هِي أَكْبَرُ دَليل عَلى مَا ذَكَرنَاهُ مِن كَوْنِهاَ سَطحية وتمهيدية، فلنبدأ بفحصها على حَسَب الترتيب المختار:

1- بُحُوثٌ وَدرَاسَاتٌ فِي عُلُوم اللِّسَانِ:

خصص الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح في كتابه: "بحوث ودراسات في علوم اللسان" فقرة موجزة جدًا للغلوسيماتيك؛ إذ بلغ عدد أسطرها ثمانية أسطر؛ لذا لا بأس بنقلها للوقوف على ما تضمنته، يقول في ذلك: «حَلقة كُبانهاكن اللُّغوية: ظَهَر الاهتمام بالأفكار اللُّغوية الجديدة بالدانمارك في وقت مبكر (وقد ذكرنا من الباحثين الدانماركيين الممتازين رَاسْمُوس راسك، ومادفيك)، وظهرت في الرُّبع الثاني من القَرن العشرين نَزْعَة بنَوية جِدُّ متأثرة بأفكار سُوسور، وأشهر مَن كان يمثلها هُم: برُوندال (***V.Brondal***) ويلمسليف (***L.Hjelmslev.***)، وأولدال (***H.Uldall***) وهَذَانِ الأخيرانِ هما اللَّذان أسَّسَا ما سَمّياه بـــ: ***Glossématique***، وهي تمثل نظرية سُوسور في أقصى دَرَجَات التجريد الصُوري...»"[379]. ثم أتى على ذِكر أسماء الأعلام الذَّين انتَسَبوا إلى التيار الغلوسيماتيكي، وعَدَّ منهم ستة أعلامٍ"[380]".

ما يلاحظ على هذه الفقرة هو أَنَّها تميزت بالتجميع المكثف للمعلومات اللِّسانية المتعلقة بالغلوسيماتيك؛ إذ ما يمكن أن نَستخلصَهُ من هذه الفقرة هو أمران: الأول: تاريخي، تمثل في اكتفاء بالإشارة إلى الأفكار اللِّسانية التي ظهرت في الدانمارك، وبأسلوب تاريخي سَطحي وهو

---

[379]- **عبد الرحمن الحاج صالح:** بُحُوثٌ وَدِرَاسَاتٌ فِي عُلُوم اللِّسانِ، ص168.

[380]- يُنظر المرجع نفسه، ص168.

الشطر الأول من الفقرة. وأما الأمر الثاني فإنه يتمثل في الإشارة إلى أشهر مَن أَسّسَ الغلُوسيمَاتيك وَمَثَّلهَا، وذَكر من بينهم هلمسلف.

بالمقابل لا نصادف توضيحًا لحقيقة هذه النَّظرية، ولا الإشارة إلى أُسُسِهَا النّظرية والمنهجية، اللّهُم ما تعلَّق بالتَنصيص على اسمها "***Glossématique***"وأنَّها نابعة من أفكار دي سوسير"[381]"اللّسانية، أما التفصيل في مقولاتها أو ذِكر شيء منها على الأقل، وبحث خصائص وطبيعة المنهج الذي تبناه هلمسلف وأولدال خاصةً في صناعة النّظرية الغُلُوسيماتيكية، فهذا ممَّا لا ذكر لَه البتة؛ بل غَاية ما نَّبه عليه الأستاذ "عبد الرَّحمن الحَاج صَالح" هو أنَّ الغلوسيماتيك بَلَغت أقصى دَرَجَات التجريد الصُّوري"[382]"دُون أن يَدُّلنا على ما هذا التجريد الصُوري الذي اختصت به الغلوسيماتيك عما سواها.فصح بهذا أن تقديم نظرية لسانية بحجم الغلوسيماتيك في فقرة لا تَزيدُ على ثمانية أسطر أَجْدَرُ بألاَّ تفيد المبتدئُ في طلب اللّسانيات، فضلاً عن البَاحث المتخصص، مع العلم بأنَّ ما كتبه في شَأنها مُدرج تحت عنوان فرعي «المدارس المنبثقة من مذهب سُوسور مباشرة أو منه ومن النَّزعَات الأخرى»"[383]"، وهذا العنوان الفرعي بدوره مُدْرج تحت عنوان كبير للفَصْلِ وهو: "مَدخل إلى علم اللِّسان الحديث"»"[384]"، وكلاهما يوُحي مَبدئياً ببحث تفصيلي لأهَم المدارس والتيارات اللِّسانية الحديثة في العالم الغربي، إلاَّ أنَّنا لا نجدُ ذلك متطابقاً مع ما يُهمُّنا في هذا السياق وهو الغلوسيماتيك.

ومن المآخذ التي سَجلناها أيضاً هي عَدَمُ العودة إلى ما كتبه هلمسلف أو أولدال أو برُوندال، وإنَّما لا توجد إحالة أصلاً على ما تم الإشارة إليه في تلك الفقرة، مما يعني أنها منضوية تحت الكتابات اللِّسانية التعليمية التربوية وإن كانت محدودة الفائدة.

2- المدَارِسُ اللِّسانِية:

---

[381]- يُنظر المرجع السابق، ص168.

[382]- ينظر المرجع السابق نفسه، ص168.

[383]- المرجع السابق نفسه، ص167.

[384]- المرجع السابق نفسه، ص111.

عَنَّون الأستاذ أحمد عزوز كتابه بـــ"المدارس اللِّسانية، أعلامُها، مبادؤها ومَناهجُ تحليلها للأداء التواصلي""[385]"، وضَمنهُ فصُولاً تحدث فيها عن أهم المدارس اللِّسانية، عَربيةً وغَربيةً. إنّ ما يَعنينا هو الفَصلُ الذي جَعَلَهُ خاصاً بالغلوسيماتيك إذ حَصَرَهُ في سبعة عشرة صفحة من الحجم المتوسط، وما يلاحظ على هذا الفَصل هو أنَّهُ افتتحه بتمهيد مُوجز بيَّنَ فيه أصل اِسم مدرسة الغلوسيماتيك"[386]"، أمَّا ما تبع هذا التمهيد من محاور فيحسنُ بنا أن نشير إليها مُجملة في صورة عنوانات قبل التفصيل فيها كالآتي:

- مَبادئ المدرسَة.
- تَأسِيسُ المدْرسة.
- تَطور المدرسة.
- هَلمسلف حَياته وأفكَارُهُ.
- مؤلفاته.
- وَفاته.
- الغلوسيماتيك.
- مَنهجية وَطَريقَة هَلمسلف في التحليل.
- الخَاتمة.

تَنضَوي تحت هذه المحاور عُنوَاناتٌ فَرعية مُستنبَطةُ دَارَتْ حَولَ بَعضِ مَقُولَاتِ الغُلُوسِيمَتيك كَما هُو آتٍ في مَوضعِهِ.

أما في النّاحية التَفصِيلية فَقد غَلَبَ عَلى ما كتبه الأُستاذ أحمد عزوز في شأن مَدرسة كُوبنهاغن الجانب التاريخي، ففيما يتعلق بالمحور الأول نجده اقتصر على الإشارة إلى أنّ الغلوسيماتيك تَرى «أن لجميع الألسن خاصية مشتركة تتمثل في مبدأ البنية، ولا تختلف فيما

---

[385]- **أحمد عزوز:** المدَارس اللِّسانية أعلامُها مبادؤها ومناهج تحليلها للأداء التواصلي، دار آل رضوان وهران، الجزائر، ط02/2008.

[386]- يُنظر المرجع نفسه، ص156.

بينها إلاَّ في كيفية تطبيقها، والاختلاف بَينَها أو التَّشابُه يربط بالشكل وليس بالمادة التي يُمكن وَصفُها عِلميًا عن طَريق الشَكْلِ»"[387]في هذه الفَقرة مَفاهيمُ أساسيةُ تحتاجُ إلى بَيانٍ وإيضاح لمدلولاتها، إذْ لَيس بالإمكان إِدْرَاكُ مَعنى "البنية" ومَعنى "كيفية تطبيقها" ولا "الشَكل" و"المادة"، ما لم تَتَقدمهَا تحديداتٌ اِصطلاحية تُجلي مَضامينها باعتبارها مَفاهيم جَوهرية في اللّسانيات البنوية عمومًا والغلوسيماتيك خُصُوصاً.

فهذه المفاهيم وكذلك عَدُّ اللغة كياناً صورياً مُستقلاً وأنَّها شكل أكثر من كونها مادةً، وكذا مبدأ العلاقات"[388]"بوصفها مبادئ للمدرسة، كُلُّها عُرضَت بصورة سريعة ومختصرة جدًا؛ لأنَّ مفهوماً من قبيل"الكِيان الصوري المستقل" يَفتقر إلى وَقفة توضيحية؛ إذ إِنَّه في الأصل من المفاهيم الرِيَاضية الخَالصة قبلَ أن تُلحق باللسانيات، عِلاوة على ذلك ما ذَكَره مِن تلك المفاهيم المبادئ لم يَرجع فيها إلى مَظانِّها الأصلية مثل المقدِّمات والمحاولات، وهمَا الكِتابان اللَّذان فيهما أصّلَ هلمسلف للغلوسيماتيك وفيهما تتوضح المنطلقات والخَلفيات الفَلسفية والمنَطقية والرِّياضية والإبستُمولوجية التي اِتخذَها هلمسلف مُرتكزاً في ذلك.

إنّ هَذه الأحكَامَ المستخلَصة من المحور الأول تَنسَحِبُ على المحَاور: الثاني والثالث والرَّابع والخامس والسَّادس"[389]"، فكُلُّها اِمتازت بطغيان السَّرد التاريخي؛ إذ شَغلت هذه المحاور عشر صفحات من مجموع سبعة عشرة صفحة للفَصْلِ كُلِّه، كَما شَغلَتْ ترجمة هلمسلف حَيزًا بلغ خمس صفحات"[390]".

أما فيما له صلة بالمحور السَّابع وهو المخصص لدراسة الغلوسيماتيك ذاتها، فإنَّنا نجدها تتضمن بعضاً من مقولاتها الأساسية والأكثر شهرة بين جُمهور اللِّسانيين في الغرب وعند العَرب أيضاً ولكنها أكثر شيوعاً وتداولاً لدى اللِّسانيين العَرب باعتبارها أمثلة يَضربوُنَها في توضيح مَنهج وفِكْرِ هلمسلف اللِّسانيَنِ.

---

[387]- المرجع السابق، ص156.

[388]- ينظر المرجع السابق نفسه، ص، 156.

[389]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص156 إلى ص165.

[390]- يُنظر المرجع السابق نفسه من ص161 إلى ص165.

فمن ذلك قوله: «بَدأ يلمسلف في **1935** في تطوير نظرية الكلوسيماتيك التي لم تُنسب إلاَّ إليه، فَهو مُبدعُها ومُؤسِسُها، وهي نظَامُ من القضايا والقواعد الأولية ***Axiomes*** التي تندرج ضمنها مَفاهيم دي سُوسير الأساسية عَبْرَ منهجية اِستنباطية دقيقة... »"[391]"، في هذه الفقرة عبارة جوهرية هي تعريف الغلوسيماتيك، ولكنّه تعريف وَرَدَ بحسب المنهج المتبنى، وهذا المنحى معلوم ومَعروف لدى اللِّسانيين العَرب"[392]"هذا في جانب، وهناك جانب آخر يتمثل في عدم وُجودِ شَرحٍ يبيِّنُ مَا مَعنى نظام الأكسيوماتيك ***Axiomatique***، وكذا ضَرورة بَيان أنَّ الأوليات والقواعد الأولى التي يضعها المنظِّرُ بادئ الأمر شرطها أن تكون مَوضوعة اِعتباطاً، وأن تكون فارغة من حيث مُحتواها الحَدْسي، فهِي لَيست مقصودة لذاتها؛ بل العلاقات التي تقيمها- وهي محض منطقية- داخل نَسقٍ رِيَاضي مُجرد، ثم تتلوها مَرحلة استنباط القضايا المشتقة منها"[393]"والمبرهن عليها. بنَاءً على ذَلك تَحَددُ الغَاية من هَذَا الفصل خُصوصاً في الإطار التعليمي التمهيدي فهُما حَاضرانِ بكَثَافَة في مثل هَذه الكتابات اللَّسانية"[394]".

وثَاني هَذه المَقُولاَت الغُلوسيماتيكية المشار إليها هي « النَّقد الحادُّ للسانيات السَابقة التي تُدخل في تقنيات موضوعها أحداثاً وظُرُوفاً خارجة عن اللِّسان نحو مَعرفة القضايا ما قبل التاريخية والتاريخية والجوانب الفيزيائية والظواهر الاجتماعية والأدبية والفلسفية والسيكولوجية»"[395]"، أو ما صار يُعرف لدى اللِّسانيين بالتوجه النَّسقي الرَّافض لكلِّ خلفية خارج لسانية. إن ما يؤخذ على هذه الفقـــرة هو عَدم الرُّجوع إلى ما كتبه هلمسلف، لأنَّ الفقرة لم تقدمِّ الأسباب الكامنة وَرَاء هذا الرَّفض لكلِّ ما هو بَعيدٌ عن جَوهر اللُّغة، إلاَّ أنّ العَودَة إلى كتاب "المقدمات" أو"المحاولات" لهلمسلف يُوضح الأسباب والدوافع التي جعلت منه يختار له هذا التَوجه النسقي، وقد قدَّمنا الكلام على هذه المسالة في الفَصل الثَاني.

---

[391]- المرجع السابق نفسه ص165.

[392]- ينظر: **إسماعيل علوي**، اللسانيات في الثقافة المعاصرة. ص112.

[393]- يُنظر تفصيل خطوات الأنساق الأكسيوماتيكية في: **روبير بلاشي**، المصادايات، و**محمد عابد الجابري** مدخل إلى فلسفة العلوم ص79.

[394]- ينظر: **إسماعيلي علوي**، اللِّسانيات في الثَقافة العربية المعاصرة، ص102.

[395]- **أحمد عزوز**: المدارس اللِّسانية، ص165.

ولم يتوقف الأمر على هَاتينِ المقولتين، بل هناك ذِكْرٌ لبعض منها، ولعل أهمها مبدأ التجريبية والذي جَعَلهُ منطلقاً للتحليل فَقَالَ مَا هَذَا نَصهُ:« و يَنطلق التحليل في ضوئها من نصٍ يكون عبارة عن قول أو مجموع أقوال يشترط فيه أن يكون مُمثَلا لصنف قابل للتجزئة إلى أجناس، تكون بدَورها قابلة للتجزئة إلى أقسام، ولكي يكون التحليل مقبولاً يجب أن يتميز بعدم التناقض والشمولية، أو مستوفٍ للموضوع والبساطة إلى أقصى حَدٍّ»"[396]".

هذه الفقرة هي الأخرى تتضمن ذكر جملة من المفاهيم الرئيسية التي اشتهرت بها الغلوسيماتيك، ونعني بذلك مفهوم "المبدإ التجريبي، والصنف، والتجزئة، الأجناس، عدم التناقض، الشُمولية، البَساطة، وكلُها تمثِّلُ مُصطلحاتٍ مَفاهيم سَبق وأن قدَّمنا الحديث عنها في الفَصل الثاني، وبيّنا المراد منْها في الغلوسيماتيك، إلاّ أنّ ما يلاحظ هُنا هو ذِكرها مُجردةً عن بَيان دَلالاتها في سياق وُرُودها غلوسيماتيكياً وهذا شكل من الأشكال التي تعسِّرُ على القارئ فَهْمَ حقيقة النَّظرية أو المدرسة؛ لأنَّ التَعرُّف على مُصطلحات من دُون مَعرفة بمعَانيها وسيَاقاتها لا طائل من ورائه بالنّسبة للبَاحث أو للذِّي يَسعى لتَحصيل مَعرفَةٍ بإحدى النّظريات أو المدَارِس اللِّسانية الغَربية.

وَمَا قيل عَن هذه المبادئ يَنطبقُ تمامًا على مَبادئ أخرى من مثل العلائق"[397]"وتحديد مفهوم اللِّسان"[398]" لدى هلمسلف، بالإضافة إلى الفَصل بين اللِّسان والكَلام وما تميزت به الغلوسيماتيك عن نظرية دي سوسير"[399]". والملاحظ أيضاً إقحام صريح للإمام عبد القاهر الـــجرجاني فيما يخص مقولة التعليق"[400]"؛ إذ أشار إلى التقاطع الحاصل بَينهما، ومَعلُوم أن العلاقات التي يتحدث عنها الإمام عبد القاهر الجُرجاني هي من نوع العلاقات النَّحوية، في حين أنَّ العلاقات عند هلمسلف هي من جنس العلاقات الرِّياضية خاصة إذا علمنا اِختلاف المنطلق العلمي لكلٍّ منهما، فهلمسلف دَرَسَ العلاقات من زَاوية رياضية منطقية برُؤية وضعية وقد

396- المَرجع نفسه، ص166.

397- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص166.

398- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص167.

399- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص168.

400- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص167.

أَوضَحنا الأصول الكارنابية في البِّناء المنطقي للعَالم في ذلك، أمَّا الإمام الجُرجاني فَدَرَسَها من زاوية نحوية بيانية كما هو معلوم من دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

وفي جانب آخر، وتحت عنوان: منهجية وطريقة هلمسلف في التحليل، يُشيرُ أحمد عزوز إلى علاقة الغلوسيماتيك بالنحو التوليدي، وأنَّها فتحت آفاقاً أمامه، يقول في ذلك: « يُعتبر هَلمسلف بمَنْهَجهِ في مفترق الطُرق، بَين المدرسة البنيوية والمدرسة التوليدية في أوربا وأمريكا اليوم، فقد عَمَّق المنهج البنيوي، وفتح أفاقاً جَديدة أمام الدِّراسات اللُّغوية المعاصرة التي كانت مُبعثَرة بظهور المنهج التوليدي»"[401]". إنَّ الشيء الهام في هذه الفقرة هو عبارة: في مفترق الطرق.. وكذلك:"عّمق المنهج البنيوي" و"التي كانت مُبعثرة". إن جَعلَ الغلوسيماتيك في مفترق الطرق فيه نظر؛ لأنَّها فِعلاً أحدثت تغييرًا ما في الجهاز المفاهيمي للسانيات البنوية، ولكنَّها ما خرجت عن النسق البنوي عموماً؛ لذا فهي فاتحة طريق لتشومسكي في سياقٍ خاصٍ، وهو التحول عن المنهج الاستقرائي إلى المنهج الفرضي الاِستنبَاطي، ذي التصور الرِّياضي المجرد، وهنا تحديدًا استثمر نعوم تشومسكي، وصاغ نظرية لسانية تعْتمد المنهج الفرضي الاستنباطي طريقة في بحث مختلف الظواهر اللُّغوية، وهذا أمر معروف في اللِّسانيات التوليدية والتحويلية عبر مَراحلها كلِّها.

أَمَّا مَسألة تَعميق المنْهجِ البِنَوي فَهُوَ أمرٌ وَاقعٌ حقاً، لكن الأستاذ أحمد عزوز لم يُوضح تجليات ومظاهر هذا التعميق، واِكتفى بالعرض الذي غلب عليه التأريخ، وكان من اللَّازم أن توضَّح هذه المسألة لأهميتها؛ لأنها بها يتعين الموقع الصَّحيحُ للغُلوسيمَاتيك مِن سَائِر النَّظَريات اللِّسانية البِنَوية وَمَا بَعدَهاَ.

أما كون الدِّراسات اللِّسانية كانت مُبعثرة فهذا أيضا يحتاج إلى فَضل بَيان، ولكن على الرغم من ذلك لم تكن الدِّراسات اللِّسانية مبعثرة كما وصف؛ لأنَّ وجود نظريات لسانية متنافسة كفيل بتجميع ما كان مُبعثراً، وهو ما حَصَلَ فعلا إبّان تلك الحقبة من الزمن؛ لأنها فترة شهدت بروز نظريات لسانية اِستطاعَت أن تَحصرَ أكبر عَدَدٍ مُمكنٍ من المباحث والقضايا اللِّسانية، وأهمها وأكثرها حضورًا مدرسة براغ اللِّسانية، وأفكار دي سوسير، والغلوسيماتيك

---

[401]- المرجع السابق نفسه، ص168.

بحدِّ ذاتها، والتوزيعية، ثم التوليدية والتحويلية، فضلاً عن بعض التصورات اللِّسانية التي عَاصَرتْ هَذه المدارس اللَّسانية الكُبرى.

ومن جُملة المقولات التي عرَّج عليها الأستاذ، مقولة دراسة "الشكل" يقول في ذلك: «ولهذا أعطى الأولوية المطلقة في دراسة اللِّسان للشكل، ورأى أن الوحدة اللُّغوية لا تُحدِّدُ نَفسَها بنَفْسِها، وإنما بمجموع العلاقات الشكلية التي تقيمها مع بقية وحدات اللِّسان»"[402]". نعم، أقرت الغلوسيماتيك دراسة الشكل بناءً على التمييز الذي وضعه هلمسلف بين الدَّال والمدلول، وتقسيم كلٍّ منهما إلى شكل ومَادة، وهذه المقولة هي أصل ما غايرت فيه الغلوسيماتيك سائر النَّظريات اللِّسانية، فكان التطرق إليها بصورة تفصيلية وعميقة أمرًا ضَروريًا؛ إذ بها يتحدَّدُ الجديدُ من القديم في الغلوسيماتيك، وما أضافه هلمسلف للنَّظرية اللِّسانية عُموماً، هذا في جانب، وبهَا أيضاَ تَتبيَّنُ منطلقات غريماس في السيميائية السِّردية والخطابية في جانب آخر؛ إلاّ أنَّ المسجل على كتاب المدارس اللِّسانية أنه لم يتجاوز فيه الإشارة إلى مُصطلح الشكل من دُون بَيان ما المقصود بهذا الشكل، هل هو شكل لساني محض، أم شكل رياضي أم منطقي أم شكل فلسفي؟ مع العلم بأنَّ الأصل الفلسفي للتقسيم الذي تقدَّم به هلمسلف في خصوص دِرَاسة الدال والمدلول وما فرَّعه عنهما مأخوذ من نظرية أفلاطون المثالية وتحديدًا في الكتاب السادس من الجمهورية المثالية"[403]"، وكما هو جَلي في كتاب آن إينو مراهنات دراسة الدَّلالات اللُّغوية"[404]"، وإِن كان هَلمسلف لم يصرِّح بهذا كلِّه، باعتباره الشطر المسكوت عنه في النَّظرية.

وَدَائمًا مع منهجية التحليل التي اتبعها هلمسلف يتطرق الأستاذ إلى مقولة "الاستبدال" من دون إعطاء القارئ تعريفاً لهذا المفهوم، وهو الآخر جوهري في نظرية هَلمسلف؛ لأنه مفهوم إجرائي أكثر من كونه نظريا، وإِنَّما عرَّفه أحمد عزوز بضرب مثال في مستوى التعبير،

---

[402]- المرجع السابق نفسه، 169.

[403]- يُنظر: **أفلاطون**، الجمهورية، ترجمة: نظلة الحكيم ومحمد منظور سعيد. دار المعارف- مصر، ط02 دون تاريخ، ص110.

[404]- يُنظر: **آن إينو**. مراهنات دراسة الدلالات اللُّغوية، ص ص 62-63.

وبآخر في مستوى المضمون"[405]" وبعدها أشار إلى مصطلحات هي الأخرى لها قيمتها وموقعها في فكرِ هلمسلف اللّساني وَهذه المفاهيم هي: "***Pléremes***" و"***Cénémes***" و"***Figures***"، واِكتفى بضَرب مثالٍ قصد به بيان مضمون هذه المصطلحات"[406]"، علماً بأنَّ هَلمسلف فصَّلَ في ذلك غاية التفصيل في كتابة "المحاولات""[407]"، وبَيَّن دَلاَلات المصطلحات التي وظفّها، ثم ختم الأستاذ أحمد عزوز الفصل بخاتمة هي عند تأملها لا تُعبِّرُ عمَّا قدَّمَ ذِكْرَهُ من أول الفَصل إلى آخره.

خلاصة الأمر هي أن ما اِمتازت به دراسة الأستاذ أحمد عزوز للغلوسيماتيك يمكن إيجازه فيما يلي:

- غلبة الجانب السَّردي الذي اِتسم بالعرض التاريخي، والتوسع في ترجمة الشخصيات اللِّسانية المشهورة في الدانمارك على حساب النَّظرية ذاتها، من أمثال أوتويسبرسن وهلمسلف، زيادة على ذلك عدم الرجوع إلى مؤلفات هلمسلف في بيان مقاصده النَّظرية والعلمية للمقولات الغلوسييماتيكية والاكتفاء بالنَّقل عمَّا قيل عن الغلوسيماتيك، وحتى الذين نقل عنهم لم تكن كتاباتهم من المراجع الغربية لكونها الأكثر قُربًا من هلمسلف وفِكره والأكثر عمقاً، وهذا واقع لا يجب أن نُنكرَهُ، بل الذي رَجع إليه هو ما كتبه لسانيون عَرب عن الغلوسيماتيك، وينضاف إلى هذا غياب التحليل المطلوب لبعض المقولات التي أتَى على ذكرها من قبيل: الشكل ،المضمون، الغلوسيماتيك ،الاستبدال، العلاقات، المبدأ التجريبي...الخ.
- والمقولات المذكورة، هي أمثلة يَستعينُ بها كُلُّ مَن أراد الحديث عن الغلوسيماتيك ممَّا يوحي بأنَّها في جوانب أخرى لم تكن لها إسهامات قوية، والواقع بخلاف ذلك، لأنَّ فيها جوانب نقدية وأخرى أدبية وحتى جمالية، علاوة على الجوانب المنطقية والإبستمولوجية والفلسفية؛ لذا لا يصح اِختزالها في ثنائية الدال والمدلول، أو الشكل والمادة، أو الاستبدال أو تكرار العبارة المتداولة بأنَّها نظرية غلب عليها التجريد الرِّياضي من غير الوقوف

---

[405]- يُنظر: **أحمد عزوز**، المدارس اللِّسانية، ص170.

[406]- ينظر: المرجع نفسه، ص ص171-172.

[407]. *Voir, **Hjelmslev**, Essais, p46.47*

على حقيقة ذلك في مَظَانِّه. وعليه يكون ما تفضَّل به الأستاذ أحمد عزوز لا يتعدى الكتابات التمهيدية المدرسية، وهذا يتعارض من الهدف الذي من أجله ألَّف الكتاب؛ بحيث قال في مقدمته ما هذا نصه: « إنّ الهدف من تأليف هذا الكتاب هو التأريخ للدِّراسة اللِّسانية القديمة، والإفادة من البُحوث اللِّسانية الحديثة، ومحاولة إبراز مناهجها، ومدى فائدتها في خدمة اللغة العربية وفكرها»"[408]".

3- في اللِّسَانياتِ وَنَحوِ النَّصِ:

من الكتابات العَربية التي تَطرقت إلى النَّظرية الغلوسيماتيكية كتاب: "في اللِّسانيات ونحو النِّص""[409]"من تأليف الأستاذ: إبراهيم محمود خليل؛ حيث خصص فيه فَصْلاً للتَّعريف بآراء هلمسلف اللِّسانية وجَعَلها تحت عنوان فرعي هو " مدرسة كوبنهاجن". أول مُلاَحظة تُوخذ على هذا الفَصل هي الحَيز الذي خَصَصَهُ لها، إذ بلغ عدد صَفحاته صَفحتين وَرُبع صَفحة (تحديدًا من ص**25** إلى ص**27**) مِّما يعني أنه جمَّع ما اِستطاع تجميعَه بعبارة غاية في الإيجاز ممَّا يتعلق بالغلوسيماتيك وفي الحقيقة يُذَكِرُنَا هَذا بالمتون القديمة المعروفة، فيمكن تتبع ما هو مَوجود في الفصل من أفكار كالآتي:

أ- تَاريخ الغُلوسِيمَاتيك:

لقد قلَّص الأستاذ تاريخ الغلُوسيماتيك في قوله: « وقد أعلنت هذه المَدرسة عن نفسها في مؤتمر لغوي عقد في العام **1935**، وقد تصدَّر هذه الحلقة اللُّغويان: لويس هيلمسليف (**1899-1965**) وهانز أولدال اللَّذان اِتخذا من الكلمة الإغريقية ***Glosse***، ومَعناها "العلاقة" مصطلحاً يحدِّد اِتجاه هذه المَدرسة، وكان الأول منهما قد دَرَسَ في براغ وبَاريس واِطلع على كتاب فردناند دوسُوسير مِرَارًا وذَكَر في واحدة من مقالاته أنَّه أكثر كتاب تأثر به في مَجال علم اللغة، وبدأت أعماله بالظهور بعـــد العام **1931**، ولكن أعماله بصفة عامة اكتسبت بعد عام **1935**

---

[408]- **أحمد عزوز:** المدارس اللِّسانية، ص07.

[409]- **إبراهيم محمود خليل:** في اللِّسانيات ونَحو النَّص، دار المسيرة، الأردن، ط02/2009.

توجهًا جديدًا مغايرًا لما كان سائدًا وفي العام **1953** ألف كتابًا بعنوان مقدمات إلى نظرية اللغة... »"[410]".

.بمجرد قراءتنا لهذه الفقرة، يتبادر إلى الذهن الأسئلة الآتية: هل هذه الفقرة مخصصة للتعريف بهَلمسلف أم بالغلوسيماتيك التي وَضَعها هلمسلف؟ علاوة على هذا مَا الفائدة المرجوة من هَذا العرض المقتضب؟ فَهل مَا تفضَّل به الأستاذُ هُنا يُعَدُّ فِعلاً شرحاً للغلوسيماتيك وتعريفاً بها ؟ وما هذا التوجه الجَديد المغاير لما كان سَائدًا؟ لأنَّه لم يتطرق إلى هذا التوجه ولا إلى ما كان سائدًا وَقتئذٍ.

لذا نبادر بالإجابة فنقول: لا يمكنُنا أن نَجعل هذه الفقرة إجابة على أيّ واحدٍ من هذه الأسئلة التي طرحناها؛ لأنَّنَا لا نجد فيها ما يجعلها تتضمن شرحًا لفكرٍ لساني مُتميز وللمنهاج اللِّساني الذي تبناه هلمسلف ذاته ،والأغرب من هذا هو جعله سنة **1953**السنة التي أَلَّف فيها هلمسلف كتابه المقدِّمات وهذا ليس صحيحًا، وإنما بدأ هلمسلف تأليف كتابه هذا منذ عام **1935** وكانت أَول طبعة له سنة **1943** بالدَّانماركية فمن أين جاء بسنة **1953**؟.

بعد هذه الفقرة انتقل إلى الحديث عن "كتاب المقدِّمات" الذي أَلَّفه هلمسلف فقال مُبيناً ذلك: «وهذا الكتاب هو الذي جَعَلَ منه عَلَماً لاشتماله على عرضٍ مترابط لآراء المدرسة اللغوية المعروفة باسم التعليقية أو العلائقية ***Glossematics*** الذي تُرجم بَعد صدوره بوقت قليل إلى اللغة الإنجليزية»"[411]"، الغريب في هذه الفقرة ليس هو الحديث عن الكتاب وإن كان قد هَضَمَهُ حقه، وإنَّما الغَريب هُو تَرجمته لمصطلح ***Glossématique*** إلى العلائقية أو التعليقية" وفي هذا دليل على عدم اطلاعه على مَا صرَّح به هلمسلف ذاته في المقدمات من كون اللَّفظة تعني "اللِّسان" في مقابلها الإغريقي لا العلاقات كما وَصف، يقول هلمسلف: «**تُوحي نَظَريتَنا اللَّغوية في بداية الأمر عَبر هذه المعرفة"[412]"، وتقترح إنشاء هذا الجبر المحايث للسان من أجل تَسجيل انفصالها عن الدِّراسات اللِّسانية السَابقة، واستقلالها عن مبدإ المادة الخارج لساني.**

.[410]- المرجع نفسه، ص25.

.[411]- المرجع السابق نفسه، ص ص25-26.

.[412]- يقصد المعرفة اللِّسانية المحايثة وكان قد نَصَّ عليها في الفقرات المتقدمة على هذه الفقرة.

نطلق على هذا الجبر المحايث اِسمًا خاصًا، الذي استعمل في موضع آخر في الأعمال التحضيرية للنَّظرية، منذ 1931؛ نُسمي الغلُوسيماتيك (من γλώσσα = لسان)، ونفهَمُ من الغلُوسيمات الأشكال الدنيا التي تطلقها النَّظرية باعتبارها أسُسًا للتفسير، أي: الثوابت التي لا تقبل الاختزال»"[413]. إنَّ الشيء الذي يَعنينا في هذه الفقرة هو كلمة**Glossématique** وكيف عادلها بالكلمة الإغريقية التي تعني اللِّسان، فهذا دليل كافٍ على ألاَّ تكون الغلوسيماتيك تعني العلائقية أو التعليقية كما قال إبراهيم محمود خليل،إذاً فالمصطلح اللِّساني ***Glossématique*** أصله الاشتقاقي هو الكلمة اليونانية (**γλώσσα**) ومعنى هذه الكلمة كما نص هلمسلف على ذلك هو ***Langue*** التي تُقابِلها في اللِّسان العَربي لفظة "لسان".

ب- الدال والمدلول وتقسيماتهما:

لم يتوقف الأمر عند معنى كلمة الغلوسيماتيك، وإِنَّما تجاوزه إلى قضية الدَّال والمدلول والتقسيم المشهور الذي أضافه هلمسلف إلى هذه الثنائية، ومن دُون نقل ما قاله إبراهيم محمود خليل نكتفي فقط بالمخطط الذي وَضَعَهُ باعتباره مُلخصًا لمنثور كلامه"[414]:

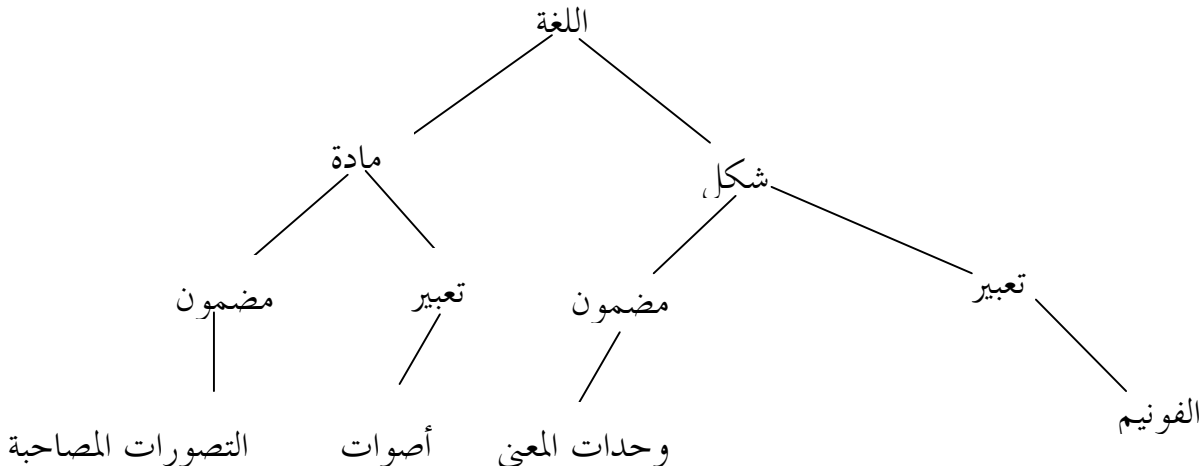

إن العودة إلى ما كتبه هلمسلف في شَأن دِراسته للدَّليل اللُّغوي تُظهر عَدَم مطابقته لهذا المخطط الذي وضعه إبراهيم محمود خليل؛ لأنَّ ما هو متعارف عليه من مَذهب هَلمسلف أنه

---

413. -***Hjelmslev***. *Prolégomènes, P102.*

414- ينظر:**إبراهيم محمود خليل** في اللسانيات ونحو النص، ص26.

تكلم عن تعبير ومضمون وكل واحد منهما يتضمن شكلاً ومادةً"[415]"، وليس شكلا ومادة وكلٌّ منهما يتضمن تعبيرًا ومضمونًا، بناء هذا يكون المخطط الصحيح على النحو الأتي:

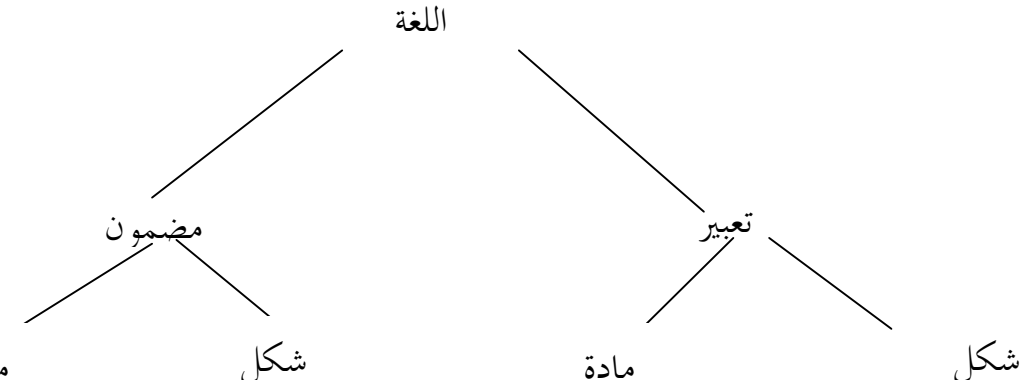

وبغض النَّظر عمَّا يترتب على دراسة الشكل في كلا الصعيدين وكذا المادة، يتبيّن بهذا المخطط الأول حجم المغالطات الموجودة في هذا الفصل عمومًا، وهي أبيَنُ في هذه المقولة الجوهرية التي بها تميزت لسانيات هلمسلف عن باقي التيارات والنَّظريات اللسانية الأخرى.

ثم انتقل إلى تعريف مفهوم "المادة" واكتفى بما يلي: « أمَّا المادة فهي ذلك الشيء غير اللُّغوي الذي تتعلق به اللغة ويتعلق بها»"[416]"، وَجَليّ أنّه تَعريفٌ مُوجَز و مُبهم أيضاً؛ لأنَّه وَصَفَ المادة بذلك الشيء غير اللُّغوي، والشيء أمر مطلق ومُبهم يصدق على كثيرين، ولا يمكن جَعلهُ قيدًا تمييزيًا في الحدُود ومع ذلك ليس هذا الشيء لغويًا، وهذا أمر آخر لأن الأشياء غير اللّغوية لا متناهية، ممَّا يكشف عن خلل جسيم في التحديد الاِصطلاحي لمفهوم المادة، ثم لم يُبيِّن معنى تَعلق اللغة به، وهذا أمر ثالث يزيد من قوة الإبهام والغموض في معنى المادة، ومعنى التعلق أيضًا، وإذا كان هذا هكذا فإنَّ عدم وضوح طبيعة تعلق هذا الشيء غير اللُّغوي باللغة يضاعف من حِدَّةِ الابتعاد عن المقاصد التي تتقصدها الغلوسيماتيك.

جـــ- مَوضوع علم اللُّغة عند هلمسلف:

---

[415]. -*Voir* ***Hjelmslev****, Prolégomènes. Chapitre 13 p65.*

[416]- **إبراهيم محمود خليل:** في اللسانيات و نحو النص، ص26.

وفي سياق مُتصل يحدِّدُ إبراهيم محمود خليل موضوع علم اللغة عند هلمسلف بقوله: «وموضوع علم اللغة عند هيلمسليف هو الشكل وليس المادة»"[417]"، انطلاقاً من التعليق المتقدم تبيَّن أنه لم يتطرق أصلاً إلى تحديد معنى "المادة" ولا معنى "الشكل" هنا، وإذا كان الأمر على هذه الحال فكيف يُمكن تحديد موضوع اللِّسانيات عند هلمسلف وهو لم يبيِّنه أصلاً؟ ثمُ إنَّ "الشكل"عند هلمسلف مفهـــوم رئيس، ولا يخفى أنَّ المفاهيم ليست أشياء تُعطى وإنَّما هي بناءات نظرية لأنها أجزاء من شبكة تصورية عامة"[418]"، وهذا بدوره يوحي بما يتضمنه مفهوم "الشكل" الهلمسليفي من خلفيات وَ رَوَاسب فلسفية ومَعرفية ومنطقية قديمة وحديثة، مُصرَّح بها ومسكوت عنها؛ لذا فإنّ الاقتصار على أنَّ موضوع اللِّسانيات عند هلمسلف هو الشكل وليس المادة، من غير بَيان وَافٍ أخَلّ بحقيقة مَا عالجته النَّظرية الغُلوسيماتيكية. وزيادة في الإبهام وتكريسًا لعدم الوضوح وابتعادًا عن البَساطة يُواصل إبراهيم محمود خليل حديثه عن مفهوم الشكل بقوله: « وإدامة النَّظر في الشكل على مستوى التعبير تقودُنا إلى الأصوات، وإدَامة النَّظر في الشكل على مُستوى المضمون تقودنا إلى ما يُعرف بعلم الدلالة ***Semantics*** وهما أي: علم الأصوات وعلم الدَّلالة علمان متعاونان»"[419]".

من حق كل قارئ لهذه الفقرة أن يَستفسرَ عن الكيفية التي بها يتم الوصول إلى علم الأصوات، عبر التعبير، والشيء نفسه ينطبق على علم الدلالة، والأهم من هذا وذاك هو كيف يحدث هذا التعاون بين علم الأصوات وعلم الدلالة؟ وما هي تجليات هذا التعاون؟.

د- ضَربُ الأَمثِلَة:

من مبحث العلاقات وقيمتها في تحديد المعنى يضرب الأستاذ إبراهيم محمود خليل مثالاً الغرض منه توضيح طبيعتها وكيفية اشتغالها داخل النسق اللُّغوي، فأتى بكلمة "حَار" وقال: « فعندما نستعمل كلمة "حار" في وصف شيء نَنفي في الوقت نَفسه أن يكون باردًا، كأنَّنَا قُلنا

---

[417]- المرجع نفسه، ص26.

[418]- يُنظر: **إسماعيلي علوي**، اللِّسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص94.

[419]- **إبراهيم محمود خليل**: في اللِّسانيات ونحو النص. ص ص26-27.

غير بَارِدٍ، ولكنَّنَا في الوقت نفسه عندما نقول "حَار" كأَنَّنَا نقول"ساخن»"[420]". مِن هَذَا المثال يُعيِّنُ إبراهيمُ مَحمود خليل أنواع العلاقات التي أصَّلَ لها هلمسلف، بقوله: « النُوع الأول من العلائق سَمَّاهُ هيلمسليف تعليقا داخليًا، أي كل إشارة من الإشارتين تشترط الأخرى، في حين سَمَّى النَّوع الثاني تعليقاً تبعيًا، فالإشارة الثانية تتبع الأولى»"[421]"، ثم يُواصل حديثه عن النوع الثالث من العلاقات قائلاً: « وثمة نوع من الإشارات لا يقوم التعليق فيها على اِشتراط إحدَى الإشارتين للأخرى، فكلمة ***Wood*** بالإنجليزية تعني الغابة، ولكنَّها في الوقت ذَاته تعني الخشب الذي يَصْنَعُ منه النَّجارُ الأثاث»"[422]".

المعروُف أَنَّ هَلمسلف تطرّق فِعلاً إلى هذه العلاقات في كتابه "المقدمات" وهي علاقات مُنضَويةٌ تَحتَ مَفهوم خَاصٍ للوَظيفة، إلاَّ أنه أخذها بمعناها المنطقي الرِّياضي، يقول هَلمسلف:«**سَنَعْتَمِدُ هُنا مُصطَلح "الوظيفة" بالمَعنى الذي يقع في مفترق الطريق، بين معناه المنطقي الرِّياضي، ومعناه التأثيلي**»"[423]" ثم بَّين بعد ذلك أن المعنى المنطقي، الرِّياضي هو المقَدَّمُ عنده في الاستعمال"[424]"، لكونه مَعنى مطابقاً له، وواضح أيضاً من كلامه أن مفهوم الوظيفة هذا تنبثق منه مفاهيم أُخر فرعية تخدم كُلها مَفهُومَ العَلاَقات، ودليل هذا الارتباط بالمعنى الخاص به للوظيفة هو التحديدات الاصطلاحية التي وضعها لها. أما التعالق الداخلي أو التتابع الداخلي =***Interdépendance*** فقد ضبطه بأنه: « **وَظيفة بَين ثَابتَين**»"[425]"وضبط مفهوم التآلف = ***Constellation*** بقوله: « **هو وَظيفة بَين مُتغَيرَين**»"[426]"، وأمَّا النَّوع الذِّي عرَّفَهُ إبراهيمُ عَبْرَ المِثَال فَقد اِصطلح عليه هلمسلف بالتحديد= ***Détermination*** وقد عرَّفه بأَنَّهُ: « **وَظيفة بَين ثَابت ومُتغير**»"[427]"، ما يلاحظ على هذه العلاقات الفرعية هو أَنَّها كُلُّها تشترك في معنى الوظيفة، مما يعني أنَّ لها وظيفة أو وظائف منوطة بها، وأن أصل هذه العلاقات وما يترتب عليها

---

[420]- المرجع نفسه، ص27.

[421]- المرجع السابق نفسه، ص27.

[422]- المرجع السابق نفسه، ص27.

[423]- ***Hjelmslev***, *Prolégomènes, p49.*

[424]- *Voir, Ibid p49.*

[425]- *Ibid, p 51.et164*

[426]- *Ibid, p51et164.*

[427] - *Ibid, p51et164.*

من وظائف هو أصل رياضي منطقي صرف، وهذه العلاقات هي مِيزة من الميزات التي تفردت بها الغلوسيماتيك عن سائر النَّظريات اللِّسانية المعروفة، وهذا بِّينُ من مجموع الرموز الجبرية التي صاغها هلمسلف وعَمِلَ بها في غير ما موضع مِّمَا كَتَب، هذا في جانب، وفي جانب آخر لا نَلقى لهذه المعَاني والدَّلالات المنطقية والرياضية التي قدّمها هلمسلف في كتاباته على المعاني والدَّلالات التأثيلية أيَّ حضور فيما كَتَب إبراهيم محمود خليل، فلم تكن له أدنى إشارة إلى أصلها المنطقي الرِّياضي على الأقل.

أما ضَربُ مثالٍ أو مثالينِ لبيان معَانيها فهذا أمر لا يَصِّحُ مَا لَمْ تسبقه تحديدات وضوابط علمية لكلِّ نوع من تلك العلاقات المذكورات مع الوقوف عَلى أصلِ وَضعها أول الأمر، فهذا أسلوبٌ يشوش ذهن القارئ المتخصص وربَّما شككه في صحة بعض المفاهيم اللِّسانية بَلْهَ القارئ العادي أو الطالب المبتدئ الذي سيشكل عليه الفهم الصحيح حتماً للغلوسيماتيك. بالإضافة إلى هذا، نقرأُ لَهُ فقرة أخرى يَنُص فيها على الجداول التي وَضَعها هلمسلف؛ إذ بها تتوضح العلاقات التي كان تكلَّم عليها قبل، قال في ذلك: « وقد صنَّف هيلمسليف جَدَاولَ تتضح فيها هذه العلائق بَين الإشارات اللُّغوية»"[428]". واضح من كلامه أن الجداول تبيِّن العلاقات أو العلائق المتقدِّم ذكرها، ولكنَّ السؤال المشروع هو: كيف يتم ذلك؟ بمعنى آخر، أنه لم يُوَضح ما هذه العلاقات كما هو معروف عند هلمسلف، فكيف تزداد وُضُوحًا بجَدَاولَ هي غير بَيِّنةٍ بذَاتها؟ وَهَذا بدَوره يَفرِضُ عَلينا السُّؤال عن هَذه الجَدَاولَ، مَا هي وَمَا مُوَاصفَاتهَا؟ فَضْلاً عَن وَظِيفَتها؟ فَهَلْ المَقْصُودُ بهَا مَا يُعرفُ في لِسَانيات دِي سُوسير بالعَلَاقاتِ الاستبدالية والعَلاَقات التَّرابُطية؟ أم هي جَدَاولُ أخرى غير تلك؟ فهَذَا وجه من وَجُوه التَّبْسِيطية والسَّطْحية المفرطة، بَلْ والإيجاز الذي ليس في مَحلِّه؛ وَعلى العمُوم مَا قِيل عن الجَداول والعَلاقات، وَمَا تَقَدَّمَهُما يَنْطَبِقُ تَمَامًا عَلى مَا تَلاَهَما وَهُو مَقُولَةُ الحَالةِ الإعْرَابِيَةِ"[429]"، فهي الأخرى لَم تحظ بالبَحث المطلوب.

4- المدَارِسُ اللِّسَانِيةُ في التُّراث العَرَبي وفي الدِّرَاسَاتِ الحَديثَة:

---

[428]- **إبراهيم محمود خليل:** في اللّسانيات ونحو النص، ص27.

[429]- يُنظر: المرجع نفسه، ص27.

يضم كتاب "المدارس اللسانية في التراث العَربي وفي الدِّراسات الحديثة" الذي ألَّفه الأستاذ محمد الصغير بناني"[430]"ستاً وتسعين صفحة من الحجم الصَغير، وجَعَلَه مرتبًا على قسمين كبيرين، أحدهما خاص بالمدارس اللِّسانية العَربية، والآخر خاص بالمدارس اللِّسانية الحديثة في الغرب (أوروبا وأمريكا)، وقد خَصَّص في القسم الثاني أربع صفحات لدرَاسة الغلوسيماتيك، والتي عبَّر عنها بمصطلح "النسقية". إنَّ اللَّافت للنَّظر هو أنه تطرق إلى مَدارس لسانية غربية كبرى في اثنين وثـــلاثين صفحة، وهي المدرسة البنوية مع دي سوسير، والمدرسة النسقية مع هلمسلف، والمدرسة الوظيفية مع جاكبسون ومارتيني، والمدرسة التوزيعية مع بلومفيلد، وأخيراً المدرسة التوليدية مع تشومسكي والتحويلية مع هاريس"[431]"، وعليه فليس غريبًا أن تكون الغلوسيماتيك محصورة في أربع صفحات.

أ- المدرسة النَّسقية:

تحت هذا العنوان جَمَع محمد الصغير شيئًا مُعتبرًا من المقولات الغلوسيماتيكية، وقد بَدَأها بالإشارة إلى أن هلمسلف هو مَن ابتكر مصطلح ***Glossématique***، كما أشار إلى أنَّها كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية غلوسة والتي تعني اللغة"[432]". يمكن عَدُّ هذه الأسطر القليلة تمهيدًا وضعه المؤلف لبيان أهم القواعد والمقولات اللِّسانية التي وَضعها هلمسلف. والجدير بالذكر هنا أنه لم يضع لهذه المقولات عناوين فرعية، وإنَّما جميع ما طَرَقَهُ جاء في صورة نصٍ وَاحد، على هذا ستكون العنوانات التي نضعها هي مما استنبط من كلامه.

ب- الغلُوسيمَاتيك مُنطلقها وَغَرَضُها:

يُحدِّد محَّمدٌ الصَّغير بَنَاني مُنطلق النظرية الغلوسيماتيكية بقوله: «والغلوسيماتيك تقوم على النَّقد الحَاد للسَانيات التي سبقتها، وحادت في نظرها عن مَجال اللُّغة بانتصابها خارج الشبكة اللُّغوية واهتمامها بالإجراءات (غير اللِّسانية) التي تهدف إلى مَعرفة مصادرها الأولى ما

---

[430]- **مُحَّمدٌ الصَّغير بَنَاني:** المدارس اللِّسانية في التُّراث العَربي وَفي الدِّراسَات الحَديثة، دَارُ الحكمة، الجزائر، ط2001.

[431]- يُنَظر المرجع نفسه ص59.

[432]- يُنظر المرجع السابق، ص 65.

قبل التاريخ وجوانبها الفيزيائية، والظواهر الاجتماعية والأدبية والفَلسفية»"[433]". الشيء اللَّافت للنَّظر في هذه الفقرة هو أنه لم يُعِّين هذه اللِّسانيات التي سبقت الغلوسيماتيك وحادت عن المسار الصحيح والحقيقي في درَاسة اللغة الإنسانية؛ إذ جَائزٌ أن يُفهَم من هَذَا الإطلاق لسانيات دي سُوسير وكذا لسانيات براغ، فضلاً عن اللِّسانيات التاريخية والمقارنة، وَهَذَا في نَظَرِنَا جَانبُ هَامُ مَا كان يَنبغي أن يُتَجَاوَز؛ لذا كان الأصح أن يَعود إلى ما أَلَّفهُ هلمسلف ذاته في هذه القضية، باعتبارها المسَلَّمة الأساسية التي منها اِنطلق في تحديد المنهج الذي اِختاره في سبيل إنشاء النَّظرية اللِّسانية الغلوسيماتيكية.

وهناك جانب آخر يَتَمثل في الغَرض الذي من أجله وَضَعَ هلمسلف النظرية هذه، فقد جَعَلَهُ مُحمد الصغير في الآتي من قوله: « والنَّسقية (الغلوسيماتيك) تنتصبُ على العكس من ذَلك دَاخل اللُّغة فهي تصدر منها وإليها ولا تخرج عن دائرة اللُّغة المنظور إليها على أنَّها حقل مغلق على نفسه، وبنية لذاتها، وهي تبحث عن المعطيات الثابتة التي تعتمد على الظواهر اللِّسانية، فهي تسعى إلى إبراز كل ما هو مشترك بين جميع اللُّغات البشرية مَهما كانت وتكون اللُّغة هي هي، مهما تبدَّل الزمن وتغيرت الأحداث»"[434]".

العبَارات الرئيسية في هَذه الفقرة، يُمكن تحديدها كالآتي: « داخل اللُّغة فهي تصدر منها وإليها»، و« على أنَّها حقل مغلق على نفسه وبنية لذاتها»، و« المعطيات الثابتة التي تعتمد على الظواهر اللِّسانية». أما بالنسبة للعبارة الأولى فلا نجد فيما كتب محمد الصغير تحديدًا واضحًا لمعنى اللغة أصلاً، فهل اللُّغة المرادة في السياق الغُلُوسيماتيكي هي اللُّغة الطبيعية أم اللُّغة الصُورية الاصطناعية؟ خاصة إذاَ علمنا بأنَّ اللُّغة المدروسة عند البنَويين جميعًا ليست هي الطبيعية، بل هي اللُّغة الظاهرة المصورنة المسَورة بالحُدُودِ التجريدية، وبتمام هذا يمكن بعدها التساؤل عن داخل هذه اللُّغة، وإذا تحقق هذا يمكن تباعًا الوقوف على معنى قوله: « تصدر منها وإليها ولا تخرج عن دائرة اللُّغة»، فالذي يتبيّن من هذا الكلام أنه يتصف بالغموض التام؛ إذ يتغذرُ على طالب اللِّسانيات إدراك دلالات ومعاني هذه العبارة الموجزة؛ لأنّ توضيح الأفكار

---

[433]- المَرجع السابق نفسه، ص 65.

[434]-المرجع السابق نفسه، ص65.

وتيسير المفاهيم على وفق الضوابط العلمية التي بها لا تُبخس النَّظرية حقها أمر مطلوب ومُقَدَّمٌ على مَا سِوَاه. هذا ما افتقرت إليه هذه العبارة والتي تليها في قوله: « حَقل مُغلق على نَفسه وبنيه لذاتها»، فأقل ما يُقال عنها أنها مفاهيم كبرى وأساسية في اللِّسانيات عمومًا، وفي الغلوسيماتيك خاصةً، ولكنَّها بحاجة إلى فَضل بَيان، فهي لم تحظ بالإيضاح والتفسير المطلوبين، وهما أمران مرتبطان بإيضاح معنى اللُّغة ابتداءً، إلاَّ أنه لم يحدث في هذا الفصل.

والشيء نفسه يَنطبق على قوله:« المعطيات الثابتة التي تعتمدُ على الظواهر اللِّسانية». فَمَا هذه المُعطيات الثابتة؟ الأفضل من هذا هو توضيح معنى المعطيات هل هي من جنس الوقائع التجريبية أم هي المعطيات الخاصة التي يضعها المنَظِّر من أجل صياغة النَّظرية اللِّسانية؟ وعلى فرض الثانية فيلزم أن تُعَيَّنَ صفتها، أهي بديهة أم مصادرة أم فرضية أم مُسلَّمةٌ؟ هذه كلُّها مطالبُ ضرورية و توضيحها أولى وأجدر، وإنَّما لم نفترض الاحتمال الأول لأنَّ الغلوسيماتيك تتبنى منهج الفرض والاستنباط وهو منهج لا يلتفت إلى المعطيات التجريبية إلاَّ ما دعت إليه الضرورة.

جـــ- سعَة الغُلُوسيمَاتيك والمبدأُ التَجريبي:

من جهة أخرى نَراه يَتطرَّقُ إلى الحديث عن سَعة النَّظرية الغلُوسيماتيكية واِشتمالها لسَائر العلوم الإنسانية وأن هذا راجع- بحسب سياق كلامه- إلى المبدإ التجريبي الذي صاغه هلمسلف، يقول في ذلك ما هذا نصه: « والنَّظرية هذه تهتم قبل كلِّ شيء باللِّسانيات فإذا ثبتت نجاعتها تُوسع بها إلى العلوم الإنسانية الأخرى، ولكي يمكن قبول نتائجها يجب أن تتفق والتجربة الفعلية، وقد أسسها هلمسلف على ما سمَّاه مبدأ ***l'empirisme*** التجربة الشاهدة، ولكي تتصف بهذه الخاصية يجب أن تكون خالية من كل تناقض وأن تتصف بالشمولية وتكون بسيطة سهلة الإدراك ما أمكن»"[435]".

تتضمن هذه الفقرة جُملاً من المبادئ والمقولات الجوهرية التي أسس لها هلمسلف كما هو معلوم، إلاَّ أنَّنا لا نُلْفيها أخذت حَقها من الدِّراسة والتفصيل كما هو مطلوب في سياق

---

[435]- المرجع السابق نفسه، ص66.

التعريف بأيِّ نَظرية، ولعل أهم ما أشار إليه هو قوله: «بأنَّ النَّظرية تهتم باللِّسانيات» إلاَّ أنَّنَا عند تأمل هذه العبارة يلُوحُ لنا التساؤل الآتي: هل النَّظرية الغلوسيماتيكية اِهتمت باللِّسانيات التي هي العلم أم باللُّغة التي هي موضوع اللِّسانيات؟ وبناءَ على هذا يتحدد سؤال آخر مشتق من الأول أيُّ منهما موصوف بالنجاعة ؟ هل نجاعة النَّظرية بحيث يمكن تعميم نتائجها على سائر العلوم التي تُسمى إنسانية أم نجاعة اللِّسانيات؟.

يترتب على هذا أمر آخر يتمثل في كون نجاعة اللِّسانيات مرهونة بنجاعة نظرياتها، وهذه بقيمة النتائج المتحصل عليها جرَّاء التجريب، وعليه يكون قوله: « والنظرية تهتم قبل كلِّ شيء باللِّسانيات» فيه نظر وبحاجة إلى تدقيق. أما أن تكون نتائجها تتفق والتجربـــة الفعلية، فإنَّه شَطْرُ من شَطْرِّي مفهوم النَّظرية لدى هلمسلف، وقد بيَّنَا ما مفهومها عنده، وأنَّ لها جـــانبًا صوريًا فيه تكون مطابقة لـــذاتها، وآخر تجريبيا، بحيث يكون الأول دالاً على هيئتها الاعتباطية، ويكون الثاني دالاً على هيئتها المطابقة"[436]"، وبَيّن من ذلك أيضاً أن الاعتباطية هي المقدمة عند هلمسلف بحكم طبيعة المنهج الفرضي الاستنباطي.

إنَّ حَصرَ مطابقة نتائجها مع الوقائع الفعلية عبر التجربة يُوهم بانعدام الجانب الصُّوري فيها، وهو الأهم عند هلمسلف، بالإضافة إلى الاعتقاد بأنَّها نظرية مؤَسَسة على المنهج الاستقرائي، وهو خِلاَفُ ما بُنيت عليه الغُلُوسيمَاتيك. أما فيما يتصل بالمبدإ التجريبي الذي وضعه هلمسلف، فقد اِكتفى بذكر شروطه الثلاثة وهي عدم التناقض، والشُمولية، والبَساطة، مع العلم بأنَّها مفاهيم أصول اِنفردت بها الغلوسيماتيك فلم يُعطِهَا حَقَّها من الشَرح والتفسير، ولا بيَّن كيف تشتغل داخل النسق النَّظري، وأيضاً كيف يتحقق شرط عدم التناقض والشمولية والبساطة وأيٌّ منها له الأولية في النسق النَّظري، وما طبيعة العلاقة التي تجمع هذه المبادئ الثلاثة، فعدم التناقض من طريق المخالفة هو الاِنسجام والاِتساق الدَّاخِلِيَينِ للنسق النَّظري بحيث لا تعارضُ فرضيةٌ فرضيةً أخرى.

وأما تفسير البساطة بسهولة الإدراك فهذا لا يتفِقُ والمعنى الإبستمولوجي لمفهوم البَساطة الذي يشترط في النَّظرية؛ لأنَّ مُرادَ الإبستمولوجيين- لسَانيين وغير لسانيين-من البساطة هو أن

---

[436] - *Voir, **Hjelmslev**, prolégomènes.p23.*

يكون النسق النَّظري مُشَكَّلاً من أقل عدد ممكن من البديهيات أو الفرضيات الأولية؛ بحيث تسمح بتقديم وَصْفٍ أو تفسيرٍ علميَينِ للظاهرة اللُّغوية وهكذا تُعمَّمُ. فليست البساطة عند هلمسلف هي سُهُولة الإدراك بَل هي مَقصُودة بمعنَاها الإبستمولوجي الصِرف كما هو بيِّن من ظاهر كلامه"[437]"، وهذا يتفق مع طبيعة المنهج الاستنباطي ذي التوجه الأكسيوماتيكي.

د- الاستقراء:

وبالعَودة إلى ما كتب محمد الصغير بناني، نُلفي له فقرةً تحدَّث فيها عن المنهج الاستقرائي، وأشار إلى كونه منهجًا اتصفت بِه الدِّراسات اللِّسانية التقليدية التي تقدَّمت على الغلوسيماتيك، كَتَبَ قائلاً: «فَالنَّظرية الاستقرائية التقليدية حَسب هلمسليف تدعى الانطلاق من الجزء إلى الكُلِّ (من المعطيات الخاصة إلى العامة) يعني القوانين المنطقية، فهي قبل كُلِّ شيء تلخيصيه تعميمية وهي لا تستطيع تُجاوز الظاهرة اللِّسانية الخاصة»"[438]". إنَّ حكاية نسبة الاستقراء إلى الدِّراسات اللِّسانية التقليدية أمرٌ وارد بامتياز لدى هلمسلف، وفيه دلالة واضحة على تحفظه من المنهج الاستقرائي الذي لا يَفِي بالغَرَضِ المطلوب في الجانب العِلمي في نَظَره، وقد خَصَّصَ له هلمسلف فصلًا"[439]" كاملاً بيَّنَ فيه أصوله ومَوادَهُ ودرجة صلاحيته في دراسة اللُّغة، ولكن ما يؤخذ على ما كتب محمد الصغير أنَّه لم يتطرق إلى البديل الذي قدَّمه هلمسلف إذ لا يتصور رَفضُ شيء ما ولا يُقدَّم بديلٌ عنه.

على هذا الأسَاس سيكون البَديل الذي قدَّمه هلمسلف هو المنهج الاستنباطي الذي يقابل الاستقراء، وقد بيَّن من جهته أصوله ونجاعته في دراسة اللُّغة، انطلاقاً من عكس القضية، أو بمعنى آخر؛ البدء بوضع أوليات بسيطة متصفة بالكلية بدلاً عن الوقائع الجزئية في عالم الخبرة؛ إذ نادرًا ما يُلتفت فيه إليها، وقد فصَّلنا في هذه الثنائية (استقراء واستنباط) في الفَصل الثاني، واتضح هناك بأن هلمسلف كان ميَّالاً لتوظيف الاستنباط في دراسة اللُّغة عِوَضَ الاستقراء،

---

[437] - *Voir Ibid, p29.*

وينظر أيضاً **كارل بوبر**، منطق البحث العلمي ص165 وص429.

[438] - **محمد الصغير بناني:** المدارس اللِّسانية، ص66.

[439] - *Voir,* ***Hjelmslev****, prolégomènes, p20.*

وهذا كلُّه مبنيٌّ على أقواله هو في المقدمات والمحاولات كما مَرَّ. فيكون محمد الصغير بهذا قد تخطى مَرحلة هامة في تكوين الغلوسيماتيك، فلم يعرِّج على المنهج الاستنباطي فيها، بل قَفَزَ مباشرةً إلى طريقة التحليل التي اعتمدها هلمسلف من زاوية مفهوم النَّص"[440]".

هـــ- الدَّليل اللِّساني والوَظيفة:

لقد لَخصَ محمد الصغير مقولة "الوظيفة" في سَطر واحد، واكتفى في بيانها «بأنَّها علاقة بين كلمتين»"[441]"، من غير توضيح لهذه العلاقات ولاما يتفرع عنها، وقد تقدَّم الكلام على أهمية العلاقات في الغلوسيماتيك فلا داعي لإعادتها هنا.

ويمضي في الحديث عن مقولات الغلوسيماتيك وهذه المرَّة مع أهمها، وهي الدَّليل اللِّساني وطريقة هلمسلف في تحليله له وتقسيمه إلى أقسام فرعية فهو لم يزد على ما قَاله غيرهُ من اللِّسانيين العَرب؛ إذ اقتصر على ذِكر أقسامه قائلاً: « والمضمون والعبارة (اللَّفظية) كلاهما له صورته ومادته مما يجعل من السَّهل تحليل صورة المضمون هذه إلى وُجوه للمضمون كما تحلَّل صورة العبارة إلى وجوه للعبارة، وهذه الوجوه تُسمَّى أصل المعنى في صورته الجزئية الصُغرى ***Pléremes*** وتقابل ***Cénemes*** أصل العبارة اللفظية في صورته الجزئية الصغرى»"[442]".

تدُّل هذه العبارة على درجة كبيرة من الوصف السطحي لأهم مَقولَةٍ لسانية هلمسلفية، وهذا بدَوره قد يَفَهَمُ منه القارئ بأنَّ ما تَمَّ ذِكرُه واُقتُصِرَ عليه هو غُفْلٌ من الخلفيات الفلسفية والمنطقية، والواقع بخلاف ذلك خاصة في هذا المسَّمى شكلاً ومادةً. ودَرءًا لأيِّ تكرار يحسن أن نحيل هنا إلى ما كتب هلمسلف في المقدمات والمحاولات. وفي النهاية يُشير محمد الصغير إلى ما أضافه هلمسلف على دي سوسير، ولكنَّه حَصَرَ ذلك كلَّه في كون هلمسلف وَسَّعَ تصور دي سوسير إلى أبعد الحُدود عَبر جَعله « الحرف وحدَة ملتبسة مستقلة عن الإنجاز الصوتي في سلسلة اللفظ»"[443]".

---

[440]- يُنظر **محمد الصغير بناني**، المدارس اللسانية، ص66.

[441]- المرجع نفسه ص67.

[442]- المرجع السابق، ص ص67، 68.

[443]- المرجع السابق نفسه، ص68.

لا يخفى على أي قارئ مُتمَّعنٍ مدى ضبابية وعدم وضوح هذه العبارة؛ إذ السؤال المشروع هنا، ما معنى أن يكون الحرف وحدة مُلتبسة مُستقلة؟ قد نُلفي للشطر الثاني من هذا السؤال إجابةً عنده، وهي قوله: مستقلة عن الإنجاز الصوتي في سلسلة اللفظ، وإن كان بحاجة إلى مزيد توضيح وبَيان، ولكنَّ الأمر مغاير لما في الشطر الأول منه، بمعنى آخر: بأي شيءٍ يكون الصوت ملتبسًا؟ وعلى العُموم يمكن إجمال أهم ما سَجَّلناه حَول ما كتبه محمد الصغير في شأن الغلوسيماتيك في الآتي:

لم يلجأ إلى ما ألَّف هلمسلف أصلاً، بل عوَّل على ما قيل عنه وعن نظريته، وقد صرَّح بذلك في مقدمة القسم الثاني من الكتاب بحيث قال: « ونعتمد فيها بالخصوص على ما جاء في قاموس اللِّسانيات لـــجان دي بوَا وجماعتـــه... لكن بالتصرف في ترجمتها إلى العَربية»"[444]". وبالفعـــل فكلُّ ما تطرق إليه لم يخرج عمَّا حكاه جان دي بوا ومن معه في القاموس"[445]". إن الاعتماد على مَرجع واحدٍ وهو ليس بأصلٍ جَعَلَ ما كتبه محمد الصغير شبه ترجمة لما وَرَدَ في قاموس اللِّسانيات.

الإشارات السريعة إلى مقولات الغلوسيماتيك ومن دون تقديم تعريفات تبيِّنُ مراميها ومكامنها، والشيء نفسه ينطبق على بعض المفاهيم العلمية المصاحبة لذلك من مثل :النَّظرية،الاستقراء والاستنباط، والبنية.. الخ مما ضعَّفَ عدم الوضوح وغلَّبَهُ.والاتكال على مثالٍ واحد فقط به حاول أن يُبَيِّنَ مقولة الوظائف عند هلمسلف.

بغَضِ النَّظَر عن كيفية معالجته للغلوسيماتيك يمكن القول بأنَّه حاول أن يُعَرِّجُ على كُلِّ ما قيل عن الغلوسيماتيك في أربع صفحات إلاَّ أنَّ هذا في جانب آخر يَدُلُ على الإيجاز المفرط، ممَّا انعكس سَلبًا على الفَصل كُلِّه وهو ما يؤكد لنا أنَّ ما كتبه محمد الصغير لم يخرج عن صنف الكتابة التمهيدية التي تغلب عليها السطحية في الطرح، وفوق هذا يحق لنا طرح السؤال الآتي: هل بإمكان القارئ المبتدئ في اللِّسانيات أن يحيط بالنظرية الغلوسيماتيكية ويَعيَ مضامينها ويتحقق لديْهِ تباعاً استيعابها كما هو مَرجُوٌّ؟ أو كما كان يهدف إلى ذلك محمد الصغير بناني

---

[444]- المرجع السابق نفسه، ص59.

[445] - *Voir* ***J.Dubois*** *et autres, Dictionnaire de linguistique et des Sciences des langages, p223-224.*

حين قال: «حتى نُمكن القارئ العَربي من استيعابها والاستعانة بها لفهم التُراث العَربي حقَّ فَهْمِه، ولإثراء دِرَاساتنا العَربية الحديثة وفتح مَجالٍ للمقارنة والتقريب بينَ النَّظريات»"[446]".

القِسْمُ الثَّانِي مِنَ الصِّنْفِ الأَوَّلِ:

5- اللسانيات النَّشأة والتطور:

يُعد كتاب: اللِّسانيات النَّشأة والتطور للأستاذ أحمد مومن"[447]"، من الكتب اللِّسانية التي أَرَاغَت تقديم جُمَلٍ من التصورات اللِّسانية، وكذا النَّظريات اللُّغوية التي عرفتها الحضارات الإنسانية عبر التاريخ للقارئ العَربي، والملاحظ عليه أنه اِتبع فيه مَسلكاً تاريخياً واضحاً على غرار كتاب روبز **Robins**" مُوجز تاريخ اللِّسانيـــات من أفلاطون إلى تشومسكي" إذ إنَّنَا نلمس صَدى لهذا الكتاب في كتاب أحمد مُومن.هذا وقد خَصص أحمد مُومن في كتابه المذكور فَصْلاً مُعتبرًا لمدرسة كوبنهاغن وجَعَله مُنحصرًا في ثلاث عشرة صفحة ضَمَّها أهم المحاور التي أُسست عليها الغلوسيماتيك. عموما يمكن إجمال تلك المحاور – والتي هي في أصل الكتاب عنوانات فرعية للفَصل- في الآتي: تمهيد، حياة هلمسلف، تاريخ نشأة الغلوسيماتيك، فحوى النَّظرية، نظام اللُّغة، المبادِئ العامة للغلوسيماتيك، منهج الدِّراسة، الخاتمة.

أ-التَّمهيد: فيه لخص أحمد مومن مضمون النَّظرية الغلوسيماتيكية، وأشار فيه إلى أنَّها من أشهر المدارس اللِّسانية الأوروبية، وكذلك تطرق بإيجاز إلى نظرة علماء اللِّسانيات إليها، واِختلافهم في حقيقتها، هل هي مدرسة أم مجرد نظرية لسانية"[448]"؟

ب- حياة لويس هلمسلف: تحت هذا العنوان تطرق الأستاذ إلى أهم المحطَّات العلمية في حياة هلمسلف، و بَيَّنَ بأنَّ له الفضل في تأسيس الغلوسيماتيك"[449]"، ولعل أبرز المحطَّات التي حوّلت فِكر هلمسلف وصَيَّرته مُنظِّراً في اللِّسانيات هي أفكار دي سوسير اللِّسانية، وكذا المنطلق الرِّياضي وقتئذٍ، يقول مُبَيناً ذلك « واِتصل خلال هذه الفترة بميي ***Meillet*** وفندريس

---

[446]- **محمد الصغير بناني** المدارس اللِّسانية، ص59.

[447]- **أحمد مُومن** اللِّسانيات النَّشأة والتطور. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط2005/2.

[448]- ينظر المرجع السابق، ص157.

[449]- ينظر المرجع السابق نفسه، ص157.

Vendryes، وتابع محاضراتهما في اللِّسانيات، كما تعرَّف خاصة على أفكار دي سوسير، ومناهجه التي ساعدته على إرساء دعائم نظريته العالمية الجديدة، الغلوسيماتيك»"[450]"، هذا فيما يخص المنطلقات اللِّسانية، أمَّا فيما يخص علاقته بالمنطلق الرِّياضي فقد قال ما هذا نصه: « ومما شك فيه أنَّ الرَّجُلَ قد تأثر كثيرًا بالمنطق الرِّياضي والمنهج العلمي السائد آنذاك، ولا سيَّمَا المنطق النَّمساوي لكارناب (***Carnap***)، وهذا ما نلحظه في الأُسس العقلانية التي بُنيت عليها نَظَرِيَتُه»"[451]".

إنَّ الإشارة إلى المنطلقات العقلانية للغلوسيماتيك وكَذَا التأثر المباشر بما أنتجته حلقة فيينا مُمثلةً في الكتابات الفلسفية والمنطقية والإبستمولوجية لردولف كارناب تحديدًا لهي من الأهمية بمكان؛ لأنَّها تُساعد في التَعّرف على المنابع الأولى للغلوسيماتيك بخاصة إذا عَلِمنَا أنَّ هلمسلف كان يَسعى دائماً إلى وَضْعِ نظرية لسانية ذات مُواصفات رِياضية جَبرية.

جـــ- نَشأة نَظرية الغلوسيماتيك: في جانب آخر قدَّم أحمد مومن نُتفاً من المراحل التأسيسية الأولى التي مرَّت بها الغلوسيماتيك ابتداءً من تخمر الفكرة الأولى عند كلٍّ من أولدال وهَلمسلف إلى غاية انعقاد المؤتمر الدَّولي الثالث للِّسَانيات عام **1936**"[452]"، كما كانت له إشارة إلى بداية التفرد اللِّساني للغلوسيماتيك وذلك عبر إنشاء المجلة الدَّولية للِّسانيات عام **1938** "[453]". وإجمالاً ما يمكن تسجيله على هذا العنوان هو غلبت السَّرد التاريخي الذي قد يفيد إفادة محدودة لكونه متاحًا في كتابات لسانية كثيرة، ولقلة الافتقار إليه. وهناك أمر آخر يتمثل في حديثه عن أهم المؤلفات التي صنعت النَّظرية اللِّسانية الغلوسيماتيكية، وأطَّرَهَا، يقول موضحًا ذلك: « فإنَّ مدرسة كوبنهاغن أو بالأحرى نظرية الغلوسيماتيك قدْ أخذت شكلها الحالي من مؤلفاتِه الثلاثة الآتية: مبادئ علم النَّحو... محاولة في نَظرية المورفيمات... مقدمة في نظرية اللُّغة، وإنَّ مؤلفه الشهير هو مقدمة في نَظرية اللُّغة»"[454]". إنَّ ما يعنينا في هذا الكلام هو

---

[450]- ينظر المرجع السابق نفسه، ص157.

[451]- ينظر المرجع السابق نفسه، ص158.

[452]- يُنظر: المرجع السابق نفسه، ص158.

[453]- يُنظر: المرجع السابق نفسه، ص158.

[454]- المرجع السابق نفسه، ص158.

الإشارة إلى أهمية "المقدمات"، وبالفعل فالكتاب هو النَّواة الأولى والأخيرة لنظرية هلمسلف اللِّسانية، ولكنَّ الأستاذ "أحمد مومن" لم يُوضح مضامين هذا الكتاب وما هي أهم فُصُوله، لاسيَّما وقد نبَّه على أهميته وعدد صفحاته"[455]"، فضلاً عن ذلك اِعتماده عليه في ستَة مواضع"[456]"من ذات الفصل المخصص للغلوسيماتيك. وإنَّما ألمحنا إلى هذا لأنَّ السياق يَتطلب منهُ ذلك، وكذا طبيعة الكتاب باعتباره مَدخلاً تمهيدياً لتفهيم اللِّسانيات للقرّاء العَرب يفرضُ على صاحبه تقديم بيانات وتعريفات لأهم المصادر اللِّسانية خاصة تلك التي تتضمن عَرضًا مُفَصلاً لأفكار لسانية هي نَظَرياتٌ قائمة بحدِّ ذاتها، وهذا نُلفيه متطابقاً مع كتاب "المقدمات" لهلمسلف.

د- فَحوَى النَّظَرية:

تَضمن هذا العنوان الفرعي بعضاً من خصائص الغلوسيماتيك، فبدأها بذكر المنطلقات المعرفية لها، فقال مشيرًا إلى ذلك: « جاءت هذه النّظرية لتتخلى عن الدِّراسات اللُّغوية المتأثرة بالفلسفة والأنثروبولوجيا، واللِّسانيات المقارنة، وتقيم لسانيات علمية مَبنية على أُسُسٍ ريَاضية وكُلية، تُعنى بوصف الظواهر اللُّغوية، وتحليلها وتفسيرها بطريقة موضوعية»"[457]". في هذه الفقرة من المصطلحات المفاهيم ما هو بَيِّنٌ، وهذه المفاهيم- العلمية، الأسس الرياضية، الكلية، الوصف، التحليل، التفسير- تقتضي بَياناً وتوضيحاً؛ لِكونها تكتنف دلالات ومعاني كثيرة، فهي تُعبِّرُ عن فِكرٍ أو مَنهج كَاملَين، فالاقتصار على ذِكرها مجردة من غير تفسير لمحتواياتها يعني من طريق آخر تجاوز محطَّات علمية بَارزة في الغلوسيماتيك.

"فالعلمية" بحاجة إلى تحديد المقصود منها في السِّياق الغُلُوسِيمَاتيكي، وَكَذَلِكَ الأُسُسُ الرِّياضية هي بدورها مُفتَقِرةٌ إلى وَقفةٍ تُبَيِّنُ لأيِّ شيءٍ هي مُرادَةٌ في فِكْرِ هَلمسلف، هَل هي مَأخوذَةٌ بِدَلَالَاتها الرِّياضية أَم هي مُحَوَّرةٌ بحَسَبِ مَا تُمليهِ المُنطَلَقاتُ المُنْتَقَاةُ لدى هلمسلف؟ والأمرُ نَفْسُهُ يَنْسَحِبُ عَلى مَفْهُومِ " الكُلِّية".

---

[455]- يُنظر المرجع السَابق نفسه، ص ص158، 159.

[456]- يُنظر هذه المواضع في ص163، 164، 165، 166.

[457]- المرجع السَابق، ص159.

أَمَّا فيمَا يتَّصلُ بمفاهيم الوصف، والتحليل والتفسير فهي أيضاً تتضمن في طَيّاتها منهجًا لسانياً قائماً؛ لأنَّ الوصف منهج واسع وعميق، وكذا التحليل والتفسير؛ لذا كان من المستحسَن شرح مَعاني هذه المفاهيم وبيان كيفيها الإجرائية وطريقة اِشتغالها في دِرَاسة الظواهر اللُّغوية عُمومًا ؛ إذْ بِبَيَانها تتبَّينُ دَرَجةُ الموضوعية في نظرية هلمسلف، على هذا لا تكون الإشارة العابرة أو السَريعة لهذه المفاهيم مفيدة للقَاريء المبتدئ خاصةً.

ثَمَّة قضية أخرى عالجها المؤلف تحت هذا العنوان، وهي مُميزات الغلوسيماتيك ،وملخص كلامه أنَّها نظرية اِتصفت بدرجة لا مثيل لها من التجريد النَّظري و تحديدًا على حدِّ قوله في مَجال التعريف والتصنيف والتنظيم"[458]"، من دون بَيان معنى التعريف والتصنيف والتنظيم، عِلْمًا بأنَّها في الأصل مفاهيم علمية وآليات إجرائية إبستمولوجية يَلْجَأُ إليها المنَظِّرُ وهو يُبَلِّرُ تصوُّره العلمي قصد وضعه في قالب نظري؛ بحيث يتحول بعدها إلى نظرية تسمحُ بوصف وتفسير ظواهر لغوية وغير لغوية، ولا بَيَّنَ كيف تشتغلُ دَاخل النَّسق النَّظري؛ لذا كان ممّا يُمليه السياق- على الأقل – تقديم توضيحَات أو تعريفات مُبَسطة لِهَذِهِ المفاهيم"[459]"إتمامًا للفائدة، وتنويرًا لذهن القارئ وتجهيزه لقراءة الكتابات التي تتبنى الطرح الإبستمولوجي في دِراسة النَّظريات اللِّسانية وهو أمرٌ نحن بحاجةٍ ماسَّةٍ إليه.

بوجه عام يمكننا اِستنباط مجموعة من الأفكار الجزئية مما هو متضمن في هذا العنوان، ولا بأس بذكرها مجملة تفاديًا للتطويل، من ذلك حديثه عن مجال اِهتمام الغلوسيماتيك، وكذلك التعريج على أهم المصطلحات التي تفردت بها نظرية هلمسلف، فضلاً عن تخصيص فقرة لطريقة دراسة الجملة في الغلوسيماتيك وذكر سماتها الأساسية"[460]"، وهذا كُلُّه لم يخرج عن الوصف السطحي والعبارات القصيرة، إلَّا أنَّ الشيء الذي يُحسب لَهُ أنَّ ما قدَّمه "أحمد مومن" مُستوحى من " المقدمات" لهلمسلف وإن كانت الإشارة إليه تَقِلُّ بالموازاة مع ما اِستوحاه منه.

---

[458]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص159.

[459]- يُنظر في هذا الصَّدد **كارناب رودلف**، البناء المنطقي للعالم. ص ص194، 195. **وروبير بلانشي-** المصادريات (الأكسيوماتيك) ص18، 29، 35، **ومحمود اليعقوبي:** معجم الفلسفة، ص164.

[460]- يُنظر **أحمد مومن:** اللِّسانيات النشأة والتطور، ص160،161.

هـــ- نظَامُ اللُّغة:

ربطاً بما تقدَّم، يُواصل أحمد مومن حديثه عن نظام اللُّغة في الغلوسيماتيك، فقد تطرق إلى ذِكر المرجعية اللِّسانية التي أسَّس عليها هلمسلف نظريته، وهي الأصول اللِّسانية السُوسيرية، تحت هذه اللفتة نجده يُشير إلى فرضية العَمل الأساسية في فكرِ هلمسلف اللِّساني وذلك في قوله: «وبالفعل، فقد نادى يلمسليف بما نادَى به دي سوسير من قبل، وهو أنَّ اللُّغة شكلٌ وليست مادة، وأنَّ المادة ليس لها معنى في ذاتها»"[461]. أهم عبارة في هذا النَّص الوجيز هي قوله:" اللغة شكل وليست مادة"، وكنَّا بيَّنا فيما سَبق في الفصل الثاني ما المقصود بها، ولكن مَا لم يُبَيِّنْهُ المؤلف هنا هو عدم الإشارة إلى كونها فرضية عَملٍ أساسية وُضعت لأجل الدَّفع باللِّسانيات نحو التقدُّم والتغلب على المأزق المنهجي والمعرفي الذي دَخلته في أواخر القرن التاسع عشر، إذ لا يخفى أنَّها فَرضيَةٌ سَمَحَت للِّسانيات منذ دي سوسير بإحداث منعرج لساني خطير تحولت على إثره اللِّسانيات من بَراديغم معيِّن إلى آخر جَديد.

إنَّ الالتفات إلى هذه الأمور يُعدُّ مَطلبًا ضَروريًا لتحقيق فَهْمٍ عميق لحقيقة اللِّسانيات، وَكَذلك النَّظريات التي حَاولت أن تقدِّم وَصفًا وتفسيرًا للظاهرة اللُّغوية؛ لأنَّ الكشف عن الأصول الأولى وتسليط الضوء عليها يُنيرُ لطَالبِ اللِّسانياتِ طَريق البحث الواعي والمدرِك لماهية أية فكرة أو تصورٍ في اللِّسانيات، كما يمَكِّنه من مَعرفة مَصَدرها وقيمتها العلمية أيضًا، فلا يُعجب بهَا وهو لا يَدري أصلها، ولا ما هي علَّة وَضعها.

وما قيل عن فرضية العمل الأساسية يقال عن المكَوِّنِ الأساسي للنَّواة الصلبة في الغلوسيماتيك، نَعنِي بذلك " المحايثة" فقد تكَلَّم عنها بما هذا نَصه: « وبهذا فإنَّ اللُّغة نظام من القيم وإنَّ مفتاح تحليل هذا الشكل هو اللِّسانيات المحايثة المتكاملة في ذاتها والمبنية على منهج استنباطي موضوعي»"[462]، على الرغم من أهمية هذه الفقرة، إلاَّ أنَّها لم تُعط حقها كما يجب؛ لاعتبارات في مقدمتها توظيفه لتلك المفاهيم الرئيسة في الغلوسيماتيك، فلا المحايثة، ولا كونها متكاملة في ذاتها، ولا الاستنباط فسَّرَ معانيها، بل اِكتفى في المفهوم الأول بوصفه متكاملاً في

---

[461]- المرجع السابق، ص161.

[462]- المرجع السابق، ص161.

ذاته، وأنه نقيض التسامي"[463]"، وهذه عبارات تفتقر إلى شرح وتفسير لقيمتها النَّظرية والإبستمولوجية في الغلوسيماتيك، وأيضاً لمحوريتها في اللِّسانيات البنوية عموماً؛ إذ لا يجب أنَّ ننسى أنَّ المحايثة هي الفرضية الجوهرية التي شكَّلَت النَّواة الصلبة للغلوسيماتيك، ومعلوم إبستمولوجيًا أنَّ الأصل في كل نظرية – بغض النَّظَرِ عن كونها لسانيةً أو غير لسانية- هو قيمة نواتها الصَّلبة؛ لذا كان بَيان مُكوناتها أمرًا لا بدَّ منه مادامت النَّظرية كلها متوقفة عليها.

أما فيما يتعلق بمفهوم الاستنباط فلَم يزد على وَصفه بالموضوعي، وقد بيَّنا حقيقة هذا المنهج العلمي ومكوناته وخطره، وخطواته وطريقة دراسة اللغة عن طريقه في الفصل الثاني بما يُغني عن إعادته هنا، بَيد أنَّنَا نوَّدُ أن نشير إلى أنَّ ذِكرَهُ في سياق الحديث عن مفهوم اللُّغة في الغلوسيماتيك لا يتوافق وتطلعات القارئ العربي للسانيات؛ إذ المفروض أن يجعَل له حَيزًا مُعتبرًا على الأقل يُعرب فيه عن أهم الخطوات المنهجية التي يتبعها الاستنباطيون، وما هي منطلقاتهم ومواقفهم من المناهج العلمية الأخرى والتي يتصدرها المنهج الاستقرائي، وما هي ثمرة توظيف الاستنباط في دراسة اللُّغة أو ظاهرة من ظواهرها فضلاً عن ذلك لماذا لجأ إليه هَلمسلف في وقت سَادت فيه النَّزعة الاستقرائية في الكتابات اللِّسانية؟.

كل هذه الأمور يحتاجها القارئ المبتدئ خاصةً، وربما المتخصص لأجل تحصيل صورة واضحة عن حقيقة وماهية المنهج العلمي الذي اتخذه هلمسلف في دراسة اللغة الإنسانية، أما أن يُكتفى بسَرد مصطلحات من غير بَيان دلالاتها فهذا من جنس الزيادة في الغموض في جهة، ويتعارض مع الأهداف المرجوة من التعرُّف على الكتابات اللِّسانية في العَالَم الغربي في جهة أخرى.

هذا، ونُلفي ضمن العنوان نفسه حديثًا عن العلامة اللِّسانية في الغلوسيماتيك فالملاحظ هناك أن أحمد مومن كان سَائرًا على نسق مُعظم اللِّسانيين العَرب في تطرقهم لهذه الثنائية، فَجُلُّ ما حَكَاه المؤلف يَنحَصرُ في التغيير الذي أحدثه هلمسلف على مُسمَّى الدَّال والمدلول؛ بحيث عبَّر عنهما بالتعبير والمحتوى"[464]"، كما أشار إلى التفريع الذي وَضَعَهُ هلمسلف لصعيد التعبير

---

[463] - يُنظر المرجع السابق نفسه، ص162.

[464] - يُنظر المرجع السابق نفسه، ص162.

وهو شكل التعبير ومادتُه، وشكل المحتوى ومادته"[465]"، وأردف ذلك بشيءٍ من الشرح لكيفية اِرتباط جزئيّ هذه الثنائية وَمَا تفرع عنها، علاوة على ضَرْب مِثَالٍ وَاحدٍ لبيان ذلك"[466]"، وقد اعتمد في ذلك على أسلوب واضحٍ وإن كان يَنقُصُهُ التَّفصِيل اللَّازم حتى يتحقق الفَهم الدَّقيق لهذه الثنائية اللُّغوية لكونها مفهوماً مَركزيًا في لسانيات هلمسلف.

و - المبادئ العامة للغلوسيماتيك:

يقول أحمد مومن: « يُعدُّ عَملُ يلمسليف أَوَّل مُحَاوَلة لتَأسِيس نَظرية لسَانية علمية وَصفية، وفق مُقدِّمات مَنطقية بَديهية، ومَبادئ مَعرفية تفسيرية...»"[467]"، هذا الكلام صائب ومُوافق لما هـــو مَوجـــود في كتاب "المقدمات" لهمسلف، إلَّا أَنَّهُ يحتاج إلى بَعض التفصيل؛ لأنَّ التعرف على كيفية تأسيس نظرية لسانية يتطلب تقديم مَفْهومٍ للنَّظرية من حيث هي، بَعيدًا عن ذِكْرِ أعراضها، فإذَا ما تحقق هذا الشرط يَلزم التَطرق إلى ما يَعرِضُ لَهَا مِن حيث القابليةُ للتطبيق أو عدمُه.

إنَّ الذي جعلنا نقول هذا هو ما أفاده تباعاً من ضرورة توافر "مقدمات منطقية بديهية ومبادئ مَعرفية تفسيرية" فهذه مفاهيم أساسية في كلِّ نسق نظري مجرد يروم حَصْرَ ظاهرة معينة بأسلوب علمي خالص، بيد أنَّ "أحمد مومن"، لم يقدِّم ما المقصود بالمقدِّمات المنطقية، هل هي المصادرات أم الأكسيومات أم هي الصياغة المنطقية للفرضيات ،نعني بذلك صياغة الفرضيات في قضايا منطقية مبرهن عليها؟ زيادة على هذا لم يُشر إلى كونها لها الأسبقية الوجودية على النسق ذاته؛ لأنَّها تُعد أولياته وشرطاً في تكونيه، هذا في جانب، وأيضاً أنها لا تقبل البرهان لاعتبارات في مقدمتها أنها موضوعة اعتباطاً أول أمرها بغرض تسهيل عملية تكوين النسق النَّظري، في جانب آخر. فَهذه المقدِّمات المنطقية حمَّالة لأوجه ولتخريجات متنوعة بحسب تنوع التيارات الإبستمولوجية في صناعة النظريات العلمية.

---

[465]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص162.

[466]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص162.

[467]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص163.

وَدَائماً مَع الفَقرة نَفْسِهَا تطرق إلى ذِكر " مبادئ مَعرفية تَفسيرية" والحق أنَّ قضية التفسير عند هلمسلف لم تكن بالصورة التي هي عليها الآن مَثَلاً في لسانيات تشومسكي ،ولكن على الرغم من ذلك فقد تكشف كتابات هلمسلف عن توجهٍ لساني يسعى إلى وَضع أسس علمية مَبنية على رؤية وصفية وتفسيرية، وكُنَّا قد بَيَّنَا ذلك في موضعه من الفصل الثاني، إلَّا أنَّ ما يمكن تسجيله على هذه الفقرة هو أن" أحمد مومن" لم يشرح معنى التفسير، ومعلوم أن التفسير باعتباره منهجًا علميًا له أصولُه كما له مَراتبه المتفاوتة من الأقل تجريدًا إلى أكثر تجريدًا"[468]"، وهذه هي المرحلة الأكثر علمية عند العلماء، وهو ما يتماشى مع روح المنهج الفرضي الاستنباطي كما مرَّ بَيَانهُ.

وفي الإطار نفسه، ينتقل "أحمد مومن" إلى الحديث عن "المبدإ التجريبي" وها هو ذا يكتفي بذكر مكوِّناته أو معاييرِه قـــائلاً: « ويجمع بين ثلاثة معايير: اللاتناقض... والشموليـــة... والتبسيط، وتكون هذه المعايير الأساسية لكلِّ التراكيب المنطقية»"[469]"، وتفاديًا لتكرار ما قلناه فيما تقدَّم من هذا الفصل، لا يَسَعُنا إلاَّ أن نُنوِّهَ – جُملةً- إلى أنَّهُ لم يكن مُخالفًا لغيره من اللِّسانيين العَرب في الحديث عن هذا المبدأ، فكما رَأينا؛ كُلُّ مَن كَتَبَ عن المبدأ التجريبي لم يتعدَّ قولُه حَدَّ الإخبار عن هذا المبدأ، وأنَّهُ يُشترط فيه عدم التناقض والشمولية، والبَساطة، من دون تحليله وبيان مرتكزاته الفلسفية والعلمية وكذا دلالاته ومقاصده في سياق الغلوسيماتيكي، علاوة على ذلك يتفق "أحمد مُومن" مع الكتابات اللِّسانية العَربية في قضية أحقية هذه المعايير في الأولوية، فكُلُّهم اِقتصروا على القول بأنَّ معيار اللاتناقض مُقَدّمٌ على معيار الشمولية، وهذا مقدَّمٌ على معيار البساطة"[470]"، من غير تفصيل ولا تحليل ولا بَيَانِ ما العلَّة في ذلك الترتيب عند هلمسلف، وما علاقته بالنَّظرية من حيث هي نسق مُجَّردٌ ومُغلق.

إنَّ ما صَادفْنَاه في المبدإ التجريبي نُصادفه جليًا في بحثه لهيئة النَّظرية الغلوسيماتيكية، فقد تطرق إلى هذا المبحث عند هلمسلف؛ بحيث قال: « عَزَا يلمسليف إلى نظريتهِ الغلوسيماتية

---

[468]- ينظر في معنى التفسير العلمي ومَراتبه، **محمد علي يُونس:** مدخل إلى اللسانيات ص48.

[469]- **أحمد مومن:** اللِّسانيات النشأة والتطور، ص163.

[470]- يُنظر المرجع نفسه، ص163.

خَاصِّيتين أَسَاسِيَتَينِ: الإحكام... والملائمة... فلكي تكون النَّظرية نَاجعة من الناحية المنطقية - في نَظر يلمسليف- لا بُدَّ أن تخضع لمعيار الإحكام أو الاتساق التَّام؛ أي: أن تكون النتائج الطبيعية لأيِّ قضية تابعة لمقدماتها المنطقية»"[471]". وبغض النَّظر عن ترجمته لمفهوم الاعتباطية بالإحكام والمطابقة بالملائمة وكذلك بغض النَّظر عن مُوازاته بين مَفهوم الاعتباطية لدى سُوسير والاعتباطية بالمفهوم الهلمسلفي نوَّدُ أن نركز نظرنا صَوب هاتين الخاصيتين الاعتباطية، والمطابقة، بوصفهما مَفهومَينِ بَارزينِ في الفكر التنظيري عند هلمسلف.

وَكَما هُو مَعرُوفُ من كلام هلمسلف في "المقدمات""[472]فإنّ النّظرية عنده مأخوذة بمعنَيينِ مما يترتب عليهما هيئتين تكون عليهما النَّظرية، فتكون النّظرية اعتباطية في حالة عدم التفاتها إلى الوقائع الجزئية، وهـــذا شرط يتحقق إذا توافرت النَّظرية على الاتساق والانسجـــام الدَاخليين لها، ممَّا يُسفِرُ عن صدق صوري وهذا بدوره يُنبئ عن خُلُوِّ الأوليات أو المقدِّمات المنطقية الأولى من كلِّ محتوى حَدسي، وقد بيَّناَ هذا في موضعه من الفصل الثاني، وحَيثُما كانت النَّظرية كذلك فهي اعتباطية، وتكون أيضاً متطابقة مع ذاتها بغض النَّظر عن المعطيات التجريبية. وهذه هي الطريقة الاستنباطية في صياغة الأنساق النَّظرية، وعليه فالنتائج المتوصل إليها جرَّاء هذا المنهج في التنظير لا تكون بالضرورة مشروطة بمطابقتها للوقائع الجزئية؛ لأنَّ معارضة هذه الوقائع للنسق النَّظري لا تشكل تهديدًا في هذا النوع من النَّظريات، باعتبارها وقائع قابلة لإعادة الصياغة النَّظرية بما يلاءم النَّواة الصَّلبة والمقدِّمات الأولية التي شيدت عليها النَّظرية.

على هذا الأساس لا نجد عند "أحمد مومن" شرحاً لحقيقية المطابقة (الملائمة)؛ لأنَّها قد تكون داخلية وهذا هو التناسب الدَّاخلي أو الانسجام المنطقي بين المقدِّمات المنطقية و النتائج المتحصل عليها، وقد تكون المطابقة خارجية، وهنا تكون تجريبية خالصة، وهكذا تتحدَّد الكفاية الأُنطولوجية للنَّظرية عمومًا، كما تبرز قضية التأثير المتبادل بين النَّظرية والواقع وقد تقدم الكلام عليها فلا داعي للإعادة. إذًا، الذي غاب عن هذه الفقرة هو التفصيل المطلوب

---

[471]- المرجع السابق، ص164.

[472] - *Voir,* ***Hjelmslev****. Prolégomènes, p23, 24, 25.*

لهذه المفاهيم الإبستمولوجية الجديرة بالاهتمام والبحث الدَّقيق؛ لكونها قضايا إبستمولوجية ولسانية مجهولة لدى جمهور عريض من الطلبة إن لم نقل من بعض المتخَصِصِين كَما توحي بذلك بعض الكتابات اللِّسانية العَربية.

ز- مَنهجُ الدِّراسَة:

عند قراءتنا لما كتب تحت هذا العنوان، نلفي كلاما صائبا يفيد في بابه؛ لأن "أحمد مُومن" تطرق فيه إلى ذكر الأصول العلمية والفلسفية والمنهجية، ولم لا الإبستمولوجية التي اعتمد عليها هلمسلف في بناء نظريته اللِّسانية، وبالفعل فقد كان تأثره واضحا بأعمال حلقة فيينا، بخاصة الأعمال المنطقية التي تُنِّمُ عن توجه إبستمولوجي متميز، فقد بيّن الأستاذ " أحمد مومن" شيئا معتبرا من تلك الأصول بما هذا نصه: «يرمي المنهج الغلوسيماتي إلى دراسة علمية على منوال العلوم الدقيقة، وبعبارة أخرى، إنه يهدف إلى أن يكون موضوع اللِّسانيات علما بحتا وفق تصورات حلقة فيِّنا... أي: الفلسفة الوضعية المنطقية التي طوَّرها "أوغست كونت" والتي لا تدرس إلاَّ الظواهر اليقينية مبتعدة عن كل تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة»"[473]".

في هذه الفقرة إشارات هامة جدًا يمكن اعتبارها مَفاتيح تساعد القارئ على العَودة إلى هذه الحلقة والاطلاع على طريقتها في العلم ونظرتها إلى الظواهر على اختلافها، فهي إذًا إحالات مُفيدة ومشجعة على مزيد الاِطلاع والبحث خاصة لمّا ثنى ذلك بإيراد الخطوات المنهجية لحلقة فيِّنَا، وقد ذكر أهمها مثل النزعة المضادة للميتافيريقا والمبدأ التجريبي"[474]"والوصف التركيبي، وترجمة اللُّغة العلمية إلى علم الجبر"[475]"، هذه الخطوات نجدها ماثلة فما كتب هلمسلف في المقدمات والمحاولات. بناء على هذا يمكننا القول بأنَّ هذا العنوان كان موفقًا فيه إلى حدٍّ ما.

---

[473]- **أحمد مُومن:** اللِّسانيات النَّشأة والتطور، ص164.

[474]- يُنظر المرجع نفسه، ص164.

[475]- يُنظر المرجع السابق، ص165.

وحتى لا نقع في التطويل الذي يؤدي حتمًا إلى تكرار معظم المبادئ التي درسها اللِّسانيون العرب، وتقدم ذكرها هنا، يحسن بنا أن نكتفي باختصار ما تبقى من كلامه حول الغلوسيماتيك، فبعد تناوله لأثر حلقة فيينا في هلمسلف انتقل إلى الحديث عن النَّصِ"[476]"باعتباره مفهومًا مركزيا في الغلوسيماتيك ثم توقف بعض الشيء عند طريقة هلمسلف في التحليل الذي ينطلق من الكل إلى الجزء فالأقل منه، حتى انتهاء التحليل"[477]"، ثم أَردَفَ ذلك كله بذكر هدف الغلوسيماتيك المتمثل في «إرساء قواعد كلية يستنبط من خلالها الباحثون قواعد خاصة بكل اللُّغات في آن واحد»"[478]".

وفي الخاتمة ذِكر لشيء من المآخذ والانتقادات التي وُجهَت صوب الغلوسيماتيك، وما قيل هناك لم يكن ليزيد عن نقل لعبارات تداولتها الكتابات اللِّسانية العَربية من قبيل: غلبت التجريد والاستعانة بمصطلحات غربية والمنفرة، والميل إلى الصياغة الرياضية"[479]"، وغير ذلك مما هو مشهور لدى اللِّسانيين العَرب.

6 - عِلمُ الأُسلوب وَالنَّظريَة البنَائية:

لقد خصص الأستاذ "صلاح فضل" في كتابه المسمى "بعلم الأسلوب والنَّظرية البنائية""[480]"حيزًا للحديث عن نظرية هلمسلف اللِّسانية، واختار لهذا الفصل عنواناً فرعيًا هو:

---

[476]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص166.

[477]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص167.

[478]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص167.

[479]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص168.

[480]- **صلاح فضل:** علم الأسلوب والنظرية البنائية، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللُّبناني، بيروت، ط01، 1428،2007.

"مدرسة كوبنهاجن""[481]" تناول ضمنه بعضا من الأفكار والتصورات اللِّسانية التي عُرفت بها اللِّسانيات الغلوسيماتيكية. إنَّ تتبع هذا الفصل قراءة كشف لنا عن جملة من الملاحظات التي سَنأتي على ذكرها في مَواضعها. وها هنا أمرٌ لابدَّ أن ننبه عليه والذي يتمثل في كون الأستاذ لم يضع لهذا الفصل عناوين فَرعية تُسعف القارئ في ترتيب الأفكار المطروحة فيه، على هذا ستكون العنوانات التي توضع هي من اِستنباطات توصلنا إليها جرَّاء قراءة الفصل ليس إلا، ومنه يكون تأطيره على الهيئة الآتية:

- تمهيد مجمل حول الغلوسيماتيك.
- العودة إلى ما قبل الغلوسيماتيك.
- العودة إلى بروندال.
- مَنهج التحليل.
- العَلاقات.
- النَّظرية.

هذا كلُّ ما بَدَا لنا من قراءتنا له، وهَذَا كلُّه شَغلته خمس صفحات ونصف صفحة فقط.

أ- التَّمهيد:

فأهم ما فيه هو الكلام على أنَّ أصول البحوث اللِّسانية الدانماركية لها تقاليد عريقة في الجانب التقعيدي تحديدًا، هذا في جهة، وفي جهة أخرى تطرَّق إلى الحديث عن مدرسة كوبنهاغن باعتبارها غير خارجة عن التقاليد الدَّانماركية إلَّا أنَّها اِستطاعت أن تضيف أشياء عَصرية في دِراسة اللُّغة، من ذَلك أهـــم مبادئ دي سوسير وهو البنائية"[482]"، ثم انتقـــل ليتكلم

[481]- ينظر المرجع نفسه، ص418.

[482]- يُنظر المرجع السَابق، ص418.

عن كلٍّ من بروندال وهلمسلف باعتبارهما اللّذين أسَسَا لما يسمى الغلوسيماتيك"[483]"، ثم خَصَّص كلامه لبروندال كونه العالم اللساني الذي كان يسعى إلى اِكتشاف المبادئ المنطقية في اللُّغة"[484]".

حتى لا نقع في تتبع كل كلمة في التمهيد، نوَّدُ فقط أن نُشير هنا إلى أن ما ذكرهُ الأستاذُ في هذا التَّمهيد الإجمالي حَول الغلوسيماتيك لم يكن فيه مستقلا؛ بل كان كلُّ كلامه فيه مستوحى مما كتب موريس لوروا ***Maurice Leroy*** في كتابه التيارات الكبرى للسانيات الحديثة"[485]"، ممَّا يعني أن الأستاذ كان تابعا بصورة جلية إن لم نقل مترجمًا لكلام موريس لُوروا. ودليل قولنا هذا هو عدم توضيحه لعبارات ومصطلحات وظَّفها في التمهيد وهي في الأصل عند لوروا ***Loroy***، من ذلك قوله: «ولكن برُوندال يعتمد في بحوثه على هذا المعيار المبدئي، وهو "اِكتشاف المبادئ المنطقية في اللُّغة" إذ إنَّ الهدف من فلسفة اللغة عنده هو بحث عدد من المقولات اللُّغوية وتعريفاتها، ولو أمكن البرهنة على أنَّ هذه المقولات هي نفسها في جميع الأحوال- بالرغم مما قد يجد من تنويعات-لَعُدَّ هذا إضافة عظيمة القيمة في مَجال تحديد خصائص الروح الإنساني»"[486]".

كما هو جَلي في هذه الفقرة، وَرَدَت مصطلحات وعبارات تحتاج إلى توضيح، فهي مذكورة أو منقولة حرفيا من دون تفسير لمضَامينها، منها: المبادئ المنطقية في اللغة، فلسفة اللغة، المقولات اللغوية، تعريفاتها، البرهنة على أن هذه المقولات هي نفسها في جميع الأحوال خصائص الروح الإنساني"[487]" فتحت كلِّ مصطلح من هذه المصطلحات والعبارات من الدلالات والمعاني ما هو معلوم، وحاجتنا لمعرفة هذه المفاهيم وضبطها كما هي مأخوذة في سياقاتها وعند أصحابها، هي من الأهمية بمكان؛ لأنَّ الاقتصار على مجرد النقل - كما هو الحال مع صلاح فضل هنا- لا طائل من ورائه مَا لم تردف ببيان واف لأصولها وما تنضوي عليه من

---

[483]- يُنظر المرجع السَابق نفسه، ص418.

[484]- يُنظر المرجع السَابق نفسه، ص418.

[485] - *Voir,* ***Maurice leroy****, les grands courants de la linguistique moderne p90.*

[486]- **صلاح فضل:** علم الأسلوب والنَّظرية البنائية، ص418.

[487]- يقارن بما وَرَدَ في كتاب **لوروا موريس:** *les grands curants de la linguistique moderne. P90*

فكر فلسفي ومنطقي، قبل أن تقـــدم في صياغة لسانية مما يعني أن النقل لا يخدم الغرض المرجو من تلقي اللِّسانيات طالما كان هناك تجاوز لذكر مقدماتها وأولياتها، والكشف عن خصائص المنهج الذي أصّل لها.

ب- العودة إلى ما قبل الغلوسيماتيك:

في الفقرة التي تلت التمهيد المجمل تطرق "صلاح فضل" إلى الكلام عما قبل اللسانيات الغلوسيماتيكية، والغريب أنه لم يكتف بدي سُوسير بل اِنساق بعض الشيء في الحديث عن اللِّسانيات التي كانت قبل دي سوسير، مما يعني أن الفقرة هذه تصلح للتعبير عن قضية"[488]"لسانية واحدة لا غير وهي المنعرج اللِّساني الذي حدث في أواخر القرن التاسع عشر لأنه ركز فيها على التغيِّر الذي حدث في بداية القرن العشرين، وظهور مفهوم جديد للغة ثم النَّظر إليها نَظرة آنية مؤقتة"[489]"؛ وهكذا مع فكرتي اللغة والكلام وما يتمثل في الأولى من نظام بنائي متماسك"[490]"وغير ذلك.

بناءً على هذا يحق طرح السؤال الآتي: ما الغاية من العَودة إلى المنعرج اللِّساني قبل دي سوسير أو عما تزامن مع بروز أفكاره اللِّسانية؟ ثم ما علاقة هذا بالنظرية الغلوسيماتيكية, وهو لم يحل إلى ما يربط بينهما، ولا بيّن موضع ذلك؟ وإنْ كَانَ وَلا بُدَّ، فينبغي – على الأقل- مُراعاة التسلسل الزمني لظهور الأفكار والتصورات اللِّسانية ونموها حتى يحصل حسن الترتيب وتتحقق سهولة الاستيعاب لدى القارئ العربي للسانيات، فتكون البداية مع بروز الأفكار الجديدة للسانيات ممثلة بدي سوسير ثم مَا طَرَأَ عليها من تطويرات وتجديدات خلال الفترات الزمنية التي أعقبتها حتى زمن ظهور الأفكار اللِّسانية الغلوسيماتيكية التي وضعها كل من بروندال وهلمسلف.

---

[488]- يُنظر **صلاح فضل**: علم الأسلوب والنظرية البنائية ص418.

[489]- يُنظر المرجع نفسه، ص419.

[490]- يُنظر المرجع السابق، ص419.

جـــ- العودة إلى بُرونَدال:

يتابع "صلاح فضل " حديثه عن الغلوسيماتيك بالعودة ثانية إلى بروندال، حيث قال: «وقد جَهَدَ بُروندال بصفة خاصة في شرح الأبنية الصرفية الكبرى لتطابق المقولات التي يعبر عنها في علاقاتها الأساسية وتنظيمها في لوحات محددة، فهو مثلا يعتمد على المبدإ الثنائي الوظيفي، فيميز بين السلب والإيجاب- وهي مصطلحات تنطبق على أية أضداد – كما يقيم ثنائيات أخرى بين المفرد والجمع والماضي والحاضر، ثم لا يلبث أن يضيف مصطلحاً ثالثا هو المحايد أو الصفر، ويصل عن طريق دراسة توَافُقاتها إلى فكرة التركيب ووَضع هياكل تقوم عليها الأنظمة الصرفية»"[491].

ما يسجل على هذه الفقرة هو أنَّها مأخوذة من كتاب لوروا" ***Leroy***"[492]"، وقد تصرف فيه إصلاح فضل كما بَدَا له، فلا هي ترجمة لنَّصِ لُوروا، ولا هي مُحالة إلى المصدر الذي أخذت منه بل على العكس أحال إلى كتاب هلمسلف " المقدمات"؛ بالإضافة إلى الذي ذكرناه تتضمن الفقرة في أصلها الفرنسي جملة من المصطلحات وهي نفسها المنقولة هنا، ولكن لا توجد أدنى إشارة توضيحية إلى معَانيها، وما تدل عليه في سياقاتها التي ترد فيها، وهذه المصطلحات هي : الأبنية الصرفية الكبرى، علاقاتها الأساسية، لوحات محدَّدة، الثنائي الوظيفي، المحايد أو الصفر، فكرة التركيب، هياكل....إلخ، فكَمَا هو ظاهر تعد هذه المصطلحات مفاتيح لفهم حقيقة تصور بروندال اللِّساني، إلَّا أنها نقلت غفلا عن البيان، فعلى سبيل المثال: العلاقات الأساسية في تعبيره هذا، لا يوجد ما يدل على حقيقتها، لأنه لم يحدد نوع العلاقات، وإنما وصفها بالأساسية، وفرق شاسع بين أن نحكم على شيء ما بأنه أساسي، وأن نحدد جنسه وأصله الذي به يحدث التمييز عن غيره، وأيضا قوله: المحايد أو الصفر فالأمر سيّان، ما هذا المسمى محايدا أو صفرا؟ فلا نجد ما يبين لنا ما المقصود به في فكر بُروندال على الأقل"[493].

---

[491]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص419.

[492] - *Voir, **Leroy**, les grands courants de la linguistique moderne, p90.*

[493]- يُنظر شرح تصور بُروندال اللِّساني في **بارتشت بريجيته**، مناهج علم اللّغة، من ص221 إلى ص225.

وعلى العموم ليس بمقدور أي قارئ عربي مبتدئ في حقل اللِّسانيات أن يفهم مضمون هذه الفقرة إلَّا بعد عناء كبير، إمَّا لغرابة المصطلحات الموظفة، وإمَّا لعدم التوضيح والشرح المطلوبين في الكتابات التعريفية باللِّسانيات، وجائز ألاَّ يفهم وألاَّ يستوعب أصلاً ما كتب"صلاح فضل" في هذا الفصل المخصص للغلوسيماتيك نظرا لغلبة الغموض عليه.

في الفقرة الموالية ينتقل صلاح فضل ليتكلم على ما أضافه هلمسلف على بُروندال وذلك عبر «تنمية نظرية لغوية متامسكة هي التي أعطت لمدرسة كوبنهاغن ما تتمتع به من تأثير في الفكر اللُّغوي الأوربي المعاصر»"[494]"، ثم بيّن أن منطلق هلمسلف هو الرفض التام لكل دراسة لسانية اتخذت العلوم التي ليست لسانية قاعدة لها، مثل: الفيزيولوجيا والسيكولوجيا، والسوسيولوجيا، وغيرها مما يترتب عليه دعوة هلمسلف إلى « ضرورة اعتبار علم اللُّغة ...على أنَّه كِيان قائم بذاته وبنية مستقلة في نفسها»"[495]"، وظاهر جدًا أنَّ "صلاح فضل" لم يزد على الوصف السطحي والسرد التاريخي الذي لا يُرجى منه أن يكشف عن حقيقة المرجعيات الفلسفية والمنطقية والمنهجية العلمية المستند إليها في ذلك لأجل الوصول إلى صياغة هذه الأفكار التي تنص على أن علم اللغة أو اللِّسانيات يجب أن تحظى باستقلالية تامة عن سائر العلوم المتقاطعة معها، علماً بأن هناك إشارات واضحات إلى هذا الأمر في مواضع مختلفة من كتابيّ هلمسلف، المقدمات والمحاولات، كما بيّناه في محله من الفصل الثاني.

د- منهج التحليل:

سَيرًا على الخُطى نفسها يخصص الأستاذ صلاح فضل فقرة وجيزة للحديث عن الطريقة التي اعتمدها هلمسلف في دراسة اللُّغة وكان "صلاح فضل" قد حصرها في منهج التحليل، قال في ذلك: «ويؤكد هذا الباحث أنَّ أية عملية ما تتبع نظامًا يجعل من الممكن تحليلها ووصفها باستخدام عدد محدود من المبادئ ذات القيمة العامة، وعلى أساس هذا التحليل يمكن تصنيف العناصر المكوِّنة لها طبقا لإمكاناتها في التوافق والتخالف، للوصول إلى حساب عام مستقصٍ

---

[494]- **صلاح فضل:** علم الأسلوب والنظرية البنائية، ص419.

[495]- المرجع نفسه، ص419.

لجميع حالاتها، وبهذا تتجاوز مستوى الوصف الأولي؛ لتخضع لعلم النُّظم الدقيق العامة، وتصلح لبناء نَظرية تتوقع جميع الاِحتمالات وتسدُّ حاجاتها»"[496]".

حقيق على أي قارئ متمعن أن يطرح جملة من الأسئلة هذا ذكرها: ما هو المقصود بالعملية؟ خاصة وقد جعلها بصيغة التنكير مما يفيد الإطلاق. وعن أيِّ نظام يتكلم؟ هل هو النظام اللِّساني أم النظام الاجتماعي وهلم جرًّا، مادام هو الآخر قد ورد بصيغة التنكير، وإذا كانت العملية من الممكن تحليلها ووصفها على حد قوله، فإنه يترتب على هذا سؤال آخر: لم يُبيِّن أصلاً ما هذه العملية فكيف يمكن وصفها وتحليلها؟ وأما المبادئ ذات القيمة العامة فهي الأخرى عبارة تفترض سؤالًا وجَيهًا، ماذا يعني صلاح فضل بلفظ المبادئ، فهل هي الأوليات أم البديهيات أم المصادرات أم الفرضيات التي عادة ما يضعها المنظِّرون بغية بناء نسق نظري أم هي أمر آخر غير الذي ذكرنا؟ لا ندري ماذا يقصد بهذه المبادئ العامة.

والأغرب أنَّ الأستاذ لم يوضح ما معنى التحليل من الأساس فكيف يكون سائغًا أن يُبنى عليه وهو ما يزال أمرا مجهولا لدى القارئ؟ وحتى لا نَسترسِلَ في طرح الأسئلة، نقول: ما قدَّمناه من أسئلة حَول العبارات المذكورة ليس يختلف عن الباقي منها، وهي قوله: تصنيف العناصر المكوِّنة لها، والتوافق والتخالف، والحساب العام، ومستوى الوصف الأولي، وعلم النظم الدقيق، وقوله: تصلح لبناء نظرية، والتوقع، والاحتمالات، فهذه العبارات كلها تفتقر إلى شرحٍ وبيان ضَرُورِيَينِ حتى تسهل عملية الفهم وكذا الاستيعاب لدى القارئ العربي التائق إلى معرفة لسانية دقيقة وحقيقية تعكس أفكار وتصورات أصحابها الأوائل.

هـــ- العَلاقات:

بعد ما قابل في فقرة مُوالية بين ثنائية دي سوسير لسان/كلام التي صارت عند هلمسلف ثنائية نظام/عملية راح يتحدث عن العلاقات التي هي الشغل الشاغل في نَظرية هلمسلف اللِّسانية، فقال عنها ما يلي: « وإذا كانت العملية تتكون من عناصر تتألف في تراكيب مختلفة، فإنَّ هذه العناصر ذات علاقات خاصة فيما بينها، ولكلٍّ منها علاقة محددة

---

[496]- المرجع السابق، ص420.

بالمجموع وهذه العلاقات التي يتوقف بعضها على بعض الآخر هي الشيء الوحيد القابل للوصف العلمي»"[497]"، وإذا كان صـــلاح فضل قد بيَّن بأنَّ العملية هي ما يُعرف لدى دي سوسير بالكلام فإنَّ ما عقبها من اِعتبارها مكوَّنة من عناصر متآلقة في تراكيب مختلفة جعلها لا تبدو واضحة كما هو متوقع؛ لأنَّه لم يحدد ما طبيعة هذه العناصر و لم يعرب عن جنسها أو نوعها، وهذا الإطلاق يشوش ذهنَ القارئ أكثر مِمَّا يُنيرهُ.

بالإضافة إلى هذا فقد أسند إلى هذه العناصر علاقات خاصة، ويكون بذلك قد ضاعف من حدَّة التعميم و أكدَّه، مما يترتب عليه الإطلاق الذي يحتاج إلى ضبط وتخصيص وَهُما مفقودان هنا؛ لأنَّه لم يوضح أصلاً ما هذه المسماة عناصر، فكيف وصفها بأنَّها ذات علاقات خاصة؟ ومن جانب آخر من أين حصلت لها الخصوصية، وكيف تحصل داخل النَّسق اللُّغوي؟

ما يمكن قوله هو أن الأستاذ صلاح فضل غلّب الأسلوب السَّردي التاريخي،كما يمكن وصف كلامه بالموجز المركز الذي جمّع فيه بعض مبادئ وقضايا اللِّسانيات الغلوسيماتيكية في فقرات وجيزة جدًا هي عند التحقيق لا ترقى إلى مصاف الكتابات اللِّسانية التي يمكن الرُّجوع إليها في التعرف على الغُلُوسيماتيك. ولَعَلَّ من أهَمِ الأسباب في ذلك هو هذه العبارات المصاغة بصيغة التنكير ممَّا يُفرزُ جملةً من الأسئلة المشروعة.

و - النَّظرية:

سَيرًا على الخُطى نفسها، يتحدث صلاح فضل هذه المرَّة عن النظرية وشروطها عند هلمسلف ولكنَّنا عند قراءة الفقرة المخصصة لذلك لا نجد فيها ما يدُّل على ذلك، فكُلُّ ما نص عليه هو الآتي: «...لا بُدَّ للنظرية عنده من أن تكون عفوية ومناسبة، بمعنى أنها ينبغي أن تعتمد على أشد المبادئ عمومية وَبَسَاطة، وليس من الضروري أن تعتمد على أكبر عدد من البيانات التجريبية؛ حيث إنَّها مستقلة عن أيِّ تجربة، والبيانات التجريبية لا تعزز النظرية نفسها وإنما إمكانات تطبيقها؛ وما لا تنطبق عليه النظرية يعد ببساطة أمرًا غريبا عليها»"[498]".

---

[497]- المرجع السابق، ص420.

[498]- المرجع السابق نفسه، ص421.

رأينا فيما تقدم أنَّ النظرية من حيث هي لا يُحكم عليها بذلك إلاَّ بتوافر شروط ومبادئ وضوابط نصّ عليها علماء هذا الشأن، وبالفعل فقد بيَّن هلمسلف ذلك؛ بل خصص له فصلا كـــاملا ناهيك عن فقرات أُخر في مواضع متفرقة من المقدمات خاصة. في حين عندما نَعودُ إلى ما كتب "صلاح فضل" فإنَّنا لا نَثقف ما يشير إلى ذلك، بل على النقيض منه، يغلب على هذه الفقرة - وحق النظرية بكل مراحلها التكوينية ألَّا تختزل في فقرة- التجميع لمراحل كبرى متعلقة بصناعة النَّظرية الغلوسيماتيكية ومَراحل تشكلها وأيضًا كفياتها الوصفية والتفسيرية والتوقعية والأنطولوجية، وفوق هذا كلِّه نواتها الصلبة والتي هي الحجر الأساس في كلِّ تفكير نظري لغوي أو غير لغوي.

بناءً على ذلك ستكون مفاهيم من قبيل النظرية، والعفوية، والمناسبة، والبَساطة، ومستقلة عن التجربة، والتعزيز، كُلُّها مفاهيم جوهرية، بل هي ضوابط وشروط مصاغة إبستمولوجيًا ينبغي توافرها في كلِّ نسق نظري عموماً، وفي نسق النظري الغلوسيماتيكي خصوصًا. فقوله: "عفوية ومناسبة" هو ما اِصطلح عليه هلمسلف في المقدِّمات بالاعتباطية والمطابقة؛ أي: أن تكون النَّظرية في جانبها الصوري اعتباطية وفي جانبها الواقعي مطابقة وهما طوران بارزان فيها غلوسيماتيكياً، إلاَّ أنَّ صلاح فضل ما بيّن متى تكون النظرية الغلوسيماتيكية عفوية، ومتى تكون مناسبة على حدِّ تعبيره ومعلوم بأنَّ هذه مسألة هامة في اختبار صدق وصحة النظريات والمفاضلة بينها.

وهكذا الأمر مع مفهوم "البساطة"، وهو أن تكون النَّظرية بسيطة أكثر من كونها مُعقدة، وهذا بدوره يسمح لها بأن تكون كفايتها التفسيرية عاليةً، فتكون تباعاً توقعاتُها ممكنة جدًا. أما مسألة اِستقلال النظرية عن التجربة فهي أيضا إحدى المسائل العويصة في إبستمولوجيا اللِّسانيات والتي تواجه الأنساق النَّظرية بما في ذلك الغلوسيماتيك التي بُنيت على المنهج الفرضي الاِستنباطي وهذا ما يعبِّرُ عنه الإبستمولوجيون بالكفاية الأنطولوجية للنظرية؛ أي: مقدرتها على اِحتواء الواقع المعارض لنواتها الصلبة؛ لذا يكون قوله: "أمراً غريبًا عليها" قولاً ناقصاً يحتاج إلى تتميم، أو بعبارة أخرى؛ لّما لم تنجح النظرية في احتواء الواقع التجريبي يلجأ المنظر إلى تقنية الصورنة، وهي إعادة صياغة الواقع الفعلي بما يتناسب مع النسق النظري المجرد.

وحتى لا ننساق خلف كلِّ لفظة في الفقرة، وتفاديًا للوقوع في تَكرار أشياء تقَّدم ذِكرُها، نُفضل الاِكتفاء بهذا القدر، فقط نَوَدُّ أن نشير إلى أن صلاح فضل في الفقرات المتتالية حاول أن يعرض شرحا لأهم المقولات الغلوسيماتيكية،وهذه المقولات هي بنية اللغة والوظائف، ومستويات اللغة"[499]"، ثم أتى على ذِكر هذه المستويات وهي باختصار: الهيكل والقاعدة والاستعمال، بالإضافة إلى مفهوم الكلام، ثم ما يترتب على هذه المستويات من علاقات مختلفة ومتنوعة"[500]"، إلا أنَّ اللَّافت للنَّظر في هذه الفقرات هو أنَّ صلاح فضل كان فيها مترجمًا أو ناقلاً لما وَرَدَ في كتاب رولان بارث ***R.Barthes*** مبادئ السيميولوجيا ***Eléments de Sémiologie*** فقد خصَّ رولان بارث لهذا الأمر صفحتين"[501]"بيَّن فيهما أهمية تقسيمات هلمسلف هذه، و أثرها في البحث السيميولوجي، فما كان على صلاح فضل إلاَّ نقل ما كتب بارث دون تعليق أو توضيح، بخاصة إذا علمنا أن صلاح فضل قد رجع إلى كتاب المقدمات في ثلاثة مواضع"[502]".

خلاصة الأمر هي أنَّ الأستاذ صلاح فضل لم يُشر أصلًا إلى الأصول الفلسفية والمنطقية - خاصة حلقة فيينا- للنظرية الغلوسيماتيكية، كما لم يقدم نماذج عملية لها، بالإضافة إلى هذا توظيفه لأسلوب اتسم بشيء من الغموض، مما اِنعكس سلباً على ما كتب عن الغلوسيماتيك، فضلاً عن السرد التاريخي في بعض المواضع، والحق أنَّ هذا يتعارض مَعارضة صريحة مع تطلعات القارئ العربي للسانيات التائق لتحصيل معرفة حقيقية ودقيقة لنظرية لسانية سَادت في فترة من فترات تاريخ اللِّسانيات في العالم الغربي، وأثَّرت كما هو حال أخواتها من نظريات في الحقل نفسه ورُبَّما تجاوزته إلى حقل النقديات والسرديات والسيميائيات.

الصنف الثاني:

---

[499]- يُنظر المرجع السابق، ص 422.

[500]- يُنظر المرجع نفسه، ص ص422، 423.

[501] -*voir.**Roland Barthes**.Elements de sémiologie .in communications.4.1964.p94 -95.*

[502]- يُنظر **صلاح فضل:** علم الأسلوب و النَّظرية البنَائية.من ص419، إلى ص 421.

تقدمت الإشارة إلى كون كتابات هذا الصنف معمقة وتميزت بالطرح الإبستمولوجي، وكنَّا بيّنا أن كتاب "المنوال النحوي العربي" للأستاذ عز الدين المجذوب هو الوحيد الممثل لهذا الصنف بحسب اِطلاعنا، وعلى العموم يمكن مباشرة دراسة هذا الكتاب على النحو الآتي:

7- المنوال النحوي العربي:

يقول الأستاذان إسماعيلي علوي، ومحمد الملاَّخ في كتابهما المشترك عن كتاب عز الدِّين المجذوب" المنوال النحوي العربي""[503]"بأنه سعى فيه « إلى تدارُك هفوات القراءات النقدية للتراث النَّحوي العربي اِعتمادًا على إطار نظري، بدونه لا يمكن صناعة تأويل مثيل للتراث النحوي، وتوضيح علاقته باللِّسانيات وبالتالي علاقتنا به»"[504]"فهذا الكلام صحيح لا مرية فيه؛ إلا أنَّهما نَظَرَا إلى هذا الكتاب نظرة كلية تتجلى في علاقة الدِّراسات النقدية للنَّحو العربي بالدِّراسات اللِّسانية الغربية،والسبل الكفيلة إلى تقيمه علميا. إلا أن الذي يهمنا من كتاب عز الدين المجذوب هذا، هو جانبه الإبستمولوجي وأيضا مقاربته للتراث النحوي بالنظرية الغلوسيماتيكية لهلمسلف. والحق أن هذا الكتاب يعد فريدا في بابه بالمقارنة مع الكتابات اللسانية العربية التي تلقت الغلوسيماتيك، فقد اِنتهج فيه صاحبه طريقا إبستمولوجيا وعلميا في عرض نظرية هلمسلف ومقاربتها؛ لذا لم يكن يشبه ما تقدم من الكتابات اللِّسانية التي وقفنا عليها.

فمن قراءتنا لكتاب المنوال النحوي – وعلى طول ثمان وثمانين وثلاثمائة صفحة- تبين لنا أن عز الدين المجذوب كان يتأرجح فيه بين قطبين بارزين هما: قطب التراث النحوي والانتقادات التي وجهت إليه باعتبارها قراءات تسعى إلى تجديده، وقطب لساني هلمسلفي خالص باعتباره المرجعية النظرية وحتى الإجرائية لبيان ضعف القراءات العربية للنحو، هذا في جانب، ولبيان ملائمة الغلوسيماتيك لإعادة قراءة هذا التراث النحوي عموما في جانب آخر،

---

[503]- **عز الدِّين المجذوب:** المنوال النحوي العربي، قراءة لسانية جديدة، كلية الآداب سُوسة، دار محمد علي الحامي، تونس، ط01/1998.

[504]- **إسماعيلي علوي، وأمحمد الملاَّخ:** قضايا إبستمولوجية في اللِّسانيات، ص197.

وهذا كله يستند إلى منطلق نظري إبستمولوجي سار عليه عز الدين المجدوب من بداية الكتاب إلى نهايته، نعني بذلك ثنائية الفرضيات العامة والمنوالات.

ولكن قبل الشروع في الفحص لا بد من الإشارة إلى أننا لا نروم دراسة فصول و مباحث الكتاب كله؛ لأن عملا من هذا القبيل يخرجنا عن مقصدنا الذي حددناه بتلقي نظرية هلمسلف الغلوسيماتيك لا غير؛ لذا ستكون قراءتنا لمـــا كتب عز الدين المجذوب موجهة صوب الفصلين اللذين فيهما أعرب عن التوجه الغلوسيماتيكي بما له وعليه، وأيضا باعتباره عالج فيهما جوهر الغلوسيماتيك معرفيا وإبستمولوجياً ومنهجيا، وهذان الفصلان أو كما عبّر عنهما بالقسمين، هما القسم الأول والباب الثاني منه خاصة"[505]"والقسم الثاني خاصة المحور الثاني منه"[506]".

وهاهنا أمر آخر ينبغي بيانه وهو أن الأستاذ عز الدين المجذوب في كتابه:"المنوال النحوي العربي"، انطلق من فرضية إعادة قراءة النحو العربي عموما، وأن قراءته مرهونة بالوقوف على الفصل المنهجي بين ثنائية الفرضيات العامة والمنوالات على اعتبار أنَّ هذه الفرضيات العامة من خصائصها أنَّها متصفة بالكلية وهي مصاغة لتكون بين جميع الألسن البشرية مشتركة. وعلى العكس من ذلك يتميز المنوال عموما بوصف الخصوصية فيكون مقتصرا على لسان دون سواه، مما يفسر ارتباطه بالفرضيات العامة باعتباره جزءاً منها، فهو يعكسها انعكاسا إيجابيا"[507]"، ويصاغ داخل لسان معين بحيث لا يمثل إلا ذلك اللِّسان، من هذا المنظور نلفي عز الدين المجدوب يلجأ إلى نظرية هلمسلف الغلوسيماتيك كونها حققت هذا الفصل إبستمولوجياً؛ لذا استطرد في عرض مقولاتها وخطواتها المنهجية والتي طبعها الأسلوب الإبستمولوجي الخالص، وفعلا لقد وقف الأستاذ المجذوب على مباحث لسانية تطرق إليها هلمسلف، و لم يتوقف عندها غيره من اللِّسانيين العرب وهنا ممكن المفاضلة.

---

[505]- يَنظر **عزالدِّين المجذوب**: المنوال النحوي العربي، ص49.

[506]- يُنظر المرجع نفسه، ص 126.

[507]- يُنظر المرجع السابق، ص84.

هذا كله جعله يرى بأن النهوض بالتراث النحوي العربي لا مناص له من اتخاذ هذه الطريقة لكأنَّهُ يؤكد لنا بأن تطوير التراث ومحاورته ودراسته بعمق ووعي تامّين لا طريق له إلا طريق الفصل بين الفرضيات العامة والمنوالات على الصيغة الهلمسلفية"[508]"، وهو شرط علمي وإبستمولوجي في نظره غاب عن تلك القراءات النقدية للنحو العربي التي قدمها اللِّسانيون العَرب وتكفل "المجذوب" بنقدها.بناءً على ذلك ستكون قراءة "المجذوب" للنَّظرية الغلوسيماتيكية محددة معالمها إجمالاً كالآتي:

المعلم الأول:

يَبدأ من الصفحة التاسعة والأربعين إلى الصفحة السابعة والخمسين، تتبع فيها "المجذوب" أفكار هلمسلف الإبستمولوجية في كتابه "المقدمات" وتميزت هذه القراءة بشيء من شبه الترجمة لأقوال هلمسلف.

المعلم الثاني:

يبدأ من الصفحة السابعة والخمسين إلى الصفحة الثامنة والتسعين، حاول فيها قراءة الغلوسيماتيك وإسقاطها على التراث النحوي العربي وكان ذلك من زاويتين هما: الزَّاوية الإبستمولوجية الخالصة والزَّاوية اللسانية الخالصة.

المعلم الثالث:

يَبدأ من الصفحة الثامنة والتسعين إلى الصفحة التاسعة بعد المائة، هنا ندخل مع "المجدوب" مرحلة أخرى من مراحل قراءته للغلوسيماتيك، وهي مقاربته لها بالتراث النحوي العَربي، وقد حاول تقديم جانب تطبيقي للغلوسيماتيك.

المعلم الرَّابع:

---

[508]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص12.

يبدأ من الصفحة السادسة والعشرين بعد المائة، إلى الصفحة الواحدة والثلاثين بعد المائة، ويعد هذا المعلم بمثابة إجابة على إشكالية شروط تحديد موضوع العلم، وكان "عز الدين المجذوب" قد اتخذ في ذلك هلمسلف مرجعاً له، لبيان علة ضعف القراءات النقدية العربية للنحو العربي.

وَسَيرًا على هذا النسق يمكننا أن نُباشِرَ عملية فحص هذه المعالم وما احتوته من موضوعات لسانية على التفصيل.

أ- **أمَّا المعلم الأول**، فقد تطرق فيه المجذوب إلى جملة من القضايا اللِّسانية ذات الصِّلة بالبُعْدِ الإبستمولوجي، وأهمها:

1- 1- الفَرضيات والمنوالات عُمومًا:

في ثنايا هذا العنوان يعالج "عز الدين المجذوب" أصل التمييز بين الفرضيات العامة والمنوالات وأرجع ذلك إلى فلسفة العلوم والمنطق"[509]"، ولكن الأمر الهام عنده هو دُخول هذا التَميز إلى البُحوث اللِّسانية، وكان قد أوضح بأنَّ أول من قام بذلك هو اللِّساني هلمسلف في كتابه "المقدمات"، فقال ما هذا نصه: «ولكن أول من أدخل هذا التمييز إلى علم اللِّسانيات هو فيما نعلم لويس هيلمسليف في كتابه مقدمة لنظرية اللُّغة... وليس معنى قولنا إنّه أول من مَارَسَ صياغة الفرضيات العامة في علم اللِّسانيات أو صياغة المنوالات، فذلك أمر قد سبقه إليه علماء اللِّسانيات منذ القرن التاسع عشر... ولكن هيلمسليف أول لساني وَعَى بهذه الثنائية من الناحية الإبستمولوجية وصاغها صياغة واضِحة»"[510]".

فهذه إشارة إلى مفهوم إبستمولوجي وهو الفرضيات عامة وكذا المنوالات عند هلمسلف، فلا نجد لها ذكرًا في الكتابات اللِّسانية التي تقدَّم فحصها، مما يعني أن كتاب المنوال النحوي العربي آثر فيه صاحبه طريقاً إبستمولوجيًا معمقًا، وهو كذلك كما سيأتي لاحقًا في

---

[509]- يُنظر المرجع السابق، ص49.

[510]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص49.

موضعه، ثم أعقب هذا التمهيد بترجمة لهلمسلف"[511]"، ولم يكن في ذلك متميزاً عمَّا كتبه الباحثون الذين تقدّم ذِكرهُم.

1- 2- ثنائية الفرضيات والمنوالات وَرَدت في سياق عرض نَظرية الغلوسيماتيك:

يُعالج الأستاذ "عز الدّين المجذوب" تحت هذا العنوان الفرعي وُرُود ثنائية الفرضيات والمنوالات كما هي مَعرُوضة عند هلمسلف، ولكن قبل أن يشرع في ذلك مَهَّدَ بتمهيد مُختصر جدًا لقضية غرابة مصطلح "الغلوسيماتيك"، كما أشار إلى أصل وضعه واشتقاقه من اللُّغة اليونانية"[512]"، وأشار أيضاً بصورة إجمالية إلى موقف هلمسلف من الدِّراسات اللِّسانية التي تقدمت على مَشروعـــه اللِّساني باعتبارها أعمالاً لم تصلْ إلى درجة « بناء نظرية علمية بأتم معنى الكلمة»"[513]"، وهو في هذا التمهيد لم يكن خارجًا عن نسق الكتابات اللِّسانية العَربية التي تطرقت إلى هذه المسألة.

1- 3 – مُناهضة التجريبية:

أهم ما تميز به هذا المبحث هو قراءة سطحية ومُوجزة لمنهج كتاب هلمسلف المقدمات"[514]"، وعلى الرغم من ذلك كانت له إشارات هامة فيما يتعلق بالمستوى المعرفي الخالص في فكر هلمسلف وهو رفضه للمذهب التجريبي، يقول في ذلك: «ولعل أهم ما يميز هيلمسليف على المستوى المعرفي الخالص هو مناهضته للتجريبية بمختلف أشكالها سواء بمعناها البدائي...أو كتيار فلسفي شهر بتبجيله للمعطيات على الفرضيات في النظرية العلمية»"[515]"، في هذا النَّص من المَعَالم العامة ما هو واضح؛ لأنَّ بيان المنطلق المعرفي لهلمسلف يُعد أمرًا هَاماً جدًا لمعرفة الأسباب والدَواعي التي جَعلت منه يَنحو هذا المنحى في التأصيل اللِّساني ،كما يكشف أيضًا عن خصوصية الخلفية المنهجية التي سار عليها، وما هي مصادراته التي صَادر عليها في سبيل تقديم تصور لساني متماسك ومنسجم، مما يعني في جانب آخر ضرورة تسليط

---

[511]- يُنظر، المرجع السابق نفسه، ص50.

[512]- يُنظر، المرجع السابق نفسه، ص52.

[513]- يُنظر، المرجع السابق نفسه، ص52.

[514]- يُنظر، المرجع السابق نفسه، ص52.

[515]- المرجع السابق نفسه، ص52.

الضوء على الخطوات المنهجية التي استند إليها هلمسلف في ذلك، وهي المنهج الاستنباطي الذي يترتب عليه تحفظ واضح من المنهج الاِستقرائي، يقول عز الدِّين المجذوب في هذا الصدد: «...إنَّه يُلِّح ...على أن المعطيات وحدها والاستقراء الذي يلهج بذكره كثيرون لا يمكّنان من معرفة علمية حقيقية، مصادرته الأولى تقول بأولوية الفكر على معطيات التجربة المباشرة العلمية، وتجعله من أتباع العقلانيين بداية من ديكارت... »"[516]".

والحق أنَّ هذا الذي تطرق إليه عز الدِّين المجذوب شيء تفرد به بالموازاة مع الكتابات التي تقدَّمت دراستها؛ لأنَّنا لا نجد فيها ما يُبيِّنُ هذه المنطلقات الإبستمولوجية والمنهجية التي كوَّنت فكر هلمسلف، ممَّا يكشف بدوره عن جوانب أساسيـــة وحضورها قوي في أي تفكير نظري سَواء تعلق الأمر باللغة أم بغيرها؛ فالشروط: الفلسفي والمنطقي والإبستمولوجي وكذا المنهجي هي من الأساسيات في كلِّ تفكير علمي جَاد.

1- 4- صياغة النظرية العلمية:

تميز فحص المبدإ التجريبي الذي صاغه هلمسلف عند المجذوب- بالإضافة إلى تعريفه والاستشهاد لذلك بفقرة من المقدمات- بشيء من التدقيق الذي لم نلفه في الكتابات اللِّسانية العَربية وهو ذكره لعلة الترتيب الذي نصّ عليه هلمسلف من كون عدم التناقض هو المقدّم على الشمولية والشمولية مقدّم على البساطة، يقول موضحًا ذلك: « وتَبرز المفارقة التي يُقرُّ بها هيلمسليف في آخر الشاهد في ترتيب الشروط حيث نلاحظ أن شرط عدم التناقض وهو شرط نظري يعلو على شرط الشمول (أي: شمول عدد ما من المعطيات الاختبارية) وهو اختباري»"[517]".

يُعد قوله "وهو شرط نظري" مفتاحًا لفهم مغزى هذا الترتيب الذي وضعه هلمسلف ،مما يعني أنه لم يضعه وضعًا عشوائياً، وإنَّما هو أمر مُسطر لَه باعتبار أنَّ المنهج الفرضي الاستنباطي يستدعي شرط عدم التناقض، وهذا بدوره يُعزز الجانب التجريدي في الَّنسق النظري الذي أطر الغلوسيماتيك؛ لأنه لو وضع عدم التناقض في المرتبة الثانية بعد الشمولية لكان ذلك

---

[516]- المرجع السابق نفسه، ص53.

[517]- المرجع السابق، ص54.

قدحًا كبيرًا في بنية النسق النظري للغلوسيماتيك، فيلزم عنه القول بالاستقراء وهو قد فَرَّ منه وطَرحه؛ لذا كان عدم التناقض مقدّما على الشمولية، باعتبار أنَّ الصدق الصوري هو المقدَّم في النَّمط الاستنباطي على الصدق التجريبي.

1- 5- مَوقف هلمسلف من الاستقراء:

من هذا المنظور يتحدد موقف هلمسلف من الاستقراء، وقد وضَّح ذلك عز الدَين المجذوب لكونه كان معتمداً في عرض نظرية هلمسلف على كتابه "المقدمات"، وهذه ميزة مضافة ينفرد بها كتاب "المنوال النحوي العَربي" عن سائر الكتابات اللِّسانية العَربية المتقدمة؛ لأنها لم ترجع في جميع ما تطرقت إليه إلى ما كتبَ هلمسلف، بل إما عن طريق الفهم الخاص وإمَّا عن طريق كتابات عربية أخرى كانت واسطة في ذلك مما انعكس سلبًا عليها، وتلك هي نقطة ضعف الكتابات السابقة في نَظَرنا.

يقول المجذوب في بيان موقف هلمسلف من الاستقراء، ما هذا لفظه: « وتبرز المفارقة أيضاً في الفصل الرابع الذي عنوانه نظرية اللغة والاستقراء ... حيث يوضح أن تسليمه بمبدأ التجريبية على النحو الذي حدَّدهُ، لا يجعله عبدًا أو أسيرًا لمنهج الاستقراء إذا فَهمناَ من الاستقراء أنَّه الانتقال المتدرج من الخاص إلى العام»"[518]". إنَّ الذي جعلنا نحكم على هذا الكتاب بالتفرد في مباحث كثيرة في دراسته للغلوسيماتيك هو هذا التطابق التام بين أقوال "عز الدِّين المجذوب" وما قاله هلمسلف في المقدمات خاصة، واستمر هذا الأمر على طول صفحات الكتاب؛ إذ يمكن عدُّ ذلك ترجمة لفصول كتاب المقدمات وهو ظاهر جدًا لمن تصفح كتاب المنوال النحوي العَربي.

هذا دليل على الحرص الشديد على نقل المعلومة من مصدرها وعلى لسان أصحابها، كما يكشف عن تتبع دقيق لأفكار هلمسلف اللِّسانية، والإبستمولوجية، والمنطقية، والفلسفية. إنَّ هذه الطريقة جعلته يعلو في دراسته للغلوسيماتيك على الكتابات اللِّسانية العَربية التي درَسْنَاها فيما تقدَّم من هذا الفصل، إذًا رفض المنهج الاستقرائي أو على الأقل التحفظ منه من

---

[518]- المرجع السابق نفسه، ص54.

قبل هلمسلف، سيُوصله إلى اِنتهاج منهج آخر بديل عنه، وهو الاستنباط، وقد اِستشهد لذلك عز الديّن المجذوب بكلام لهلمسلف من المقدمات"[519]"، كما علَّق عليه بقوله: «وتبرز كذلك هذه المفارقة التي قصدها هيلمسيلف للفت النَّظر إلى أولوية الفرضية على معطيات التجربة المفترضة»"[520]".

1- 6- علاقة النَّظرية اللِّسانية بالواقع:

يواصل الأستاذ "عز الديِّن المجذوب" عرض نظرية هلمسلف اللِّسانية وفي هذا المبحث اِنطلق يتحدث عن النَّظرية من حيث هي، وقد حدَّد مصدر صياغة النَّظرية عند هلمسلف من قول هلمسلف ذاته؛ وهو أيُّهما يحدد الآخر ويكيّفه النظريةُ أم مادة الدرس"[521]"؟ وعلى سبيل الدَّقة والتوضيح يقول عز الدِّين المجذوب في هذا الشـــأن : « ولّما كان هيلمسليف لا يرتضي التعريف الشَائع لم يرتض هذا التصور لعلاقة معطيات التجربة بالفرضيات. إنَّه لا يُنكره تماماً، ولكنَّه يعتبر أنه أعقد مما يتصوره العموم، ويفهم من أقواله أن علاقة معطيات التجربة المفترضة بالنَّظرية ليست علاقة مُباشرة، أو قُلْ: إن النظرية العلمية عنده سُلّمية (***Hiérarchie***) من الفرضيات، بعضها ليس له علاقة مباشرة بالمعطيات وبعضها له علاقة مباشرة بها»"[522]".

إن هذا القول يتضمن وعيا تاما بحقيقة وجوهر النَّظرية من حيث هي نسق مكتفٍ بذاته، منغلق على مكوناته، وهو كلام يوحي بمعرفة ودرَاية عميقتين بالمنطلقات الإبستمولوجية في صناعة النظرية الغلوسيماتيكية؛ لأنه لم يكتف بسرد تعريفات حول النَّظرية؛ بل بيّن بأن النَّظرية عند هلمسلف ليست مجموع فرضيات تبحث عن الصدق التجريبي فقط، بل هي نسق أو كِيان مجرد يؤثر في الواقع تارة من طريق مباشر وهي القناة التي تصل الفرضيات بالتجربة، وتارة من طريق غير مباشر بحيث تتعالى الفرضيات العامة على عالم الخبرة، وهكذا يأخذ مفهوم النظرية عند هلمسلف أبعادًا أخرى لم تكن مَعهُودة في الدِّراسات اللِّسانية التي تقدمت على

---

[519]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص55.

[520]- المرجع السابق نفسه، ص55.

[521]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص56.

[522]- المرجع السابق نفسه، ص56.

الغلوسيماتيك، خاصة لسانيات بلومفيلد"[523]" التوزيعية، هذا في جهة، وهناك جهة أخرى تتعلق بما كتب عز الدِّين المجذوب وهي – كما سبق وأن قلنا- فَهمه لجوهر الغلوسيماتيك بخلاف ما عهدناه لدى اللسانيين العَرب الذين أتينا على فحص كتاباتهم.

1- 7- مُستويَا النَّظرية:

يُفَصِّل "المجذوب" تحت هذا العنوان الفرعي في مستويي النَّظرية بالمفهوم الهلمسلفي، والمعلوم من مذهب هلمسلف أنَّ النَّظرية عنده متصفة بوصفين هما: الاعتباطية، والمطابقة، ومن دون تكرار ما تقدم ذكره نشير هُنا إلى كون المجذوب قد استثمر هذا التمييز الذي وضعه هلمسلف من جانبين:

أحدهما: عَدُّ هذا التمييز تدرجًا أو سُلّمية في تشكيل النَّظرية عند هلمسلف و لم يكن في ذلك مجانباً للصواب، بل اِقتفى أثر هلمسلف"[524]" في نعت النَّظرية بالاعتباطية، إذا كانت متسقة ومنسجمة داخليا، وهو ما يعبر عنه علماء المنطق والرياضيات الأكسيوماتكية بالصدق الصوري، وفيه تكون النَّظرية متعالية على الوقائع التجريبية، ونعته لها أيضا بالمطابقة باعتبار جانبها العملي، وهو علاقتها بالوقائع التجريبية.

ثانيهما: اِستثماره لهذا التمييز (الاعتباطية والمطابقة) بما يتوافق مع منطلقه الرئيس وهو الفصل بين الفرضيات العامة والمنوالات، على هذا الأساس ستكون النَّظرية في هيئتها الاعتباطية عند هلمسلف هي ما يقابله عند"المجذوب""[525]" بالفرضيات العامة؛ لكونها متصفة بالكلية وهذا كفيل بأن يجعلها في معزل عن الوقائع التجريبية وبكون صدقها مقترنا بالصدق الصوري فقط.وستكون النَّظرية في هيئتها المطابقة عند هلمسلف هي ما يقابله عند "المجذوب" بالمنوالات؛ لكونها متصفة بالجزئية أو الإجرائية، وهذا كفيل بأن يجعلها مندمجة في الوقائع التجريبية وقابلة لأن تعرض عليها تطبيقا، فصدقها مرهون بالتجربة الفعلية، قال المجذوب في هذا الصدد: « ولاشك أنَّ القارئ اِنتبه إلى أن هذا التمييز الذي يقيمه هيلمسليف بين ما يسمِّيه

---

[523]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص54.

[524]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص56.

[525]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص56-57.

نظرية ومُبرهنات... من ناحية، وفرضيات(من بينها القوانين العلمية) من جهة أخرى هو التمييز الإبيستمولوجي الذي نعتمده في هذا العَمل بين الفرضيات العامة والمنوالات، وإن كان هيلمسليف لا يستعمل لفظ ***Modèle***. ولا تمثل كلمة مبرهنات نقضًا لقولنا»"[526]".

وبهذا العَمل تتضح الكفاية الأنطولوجية للنظرية في نوعية العلاقة التي تربطها بالواقع أو بعدم ذلك، وهذه ميزة أخرى مفقودة في الكتابات اللِّسانية العَربية التي فحصناها مما يؤكد لنا بأنّ ما كُتب عن الغلوسيماتيك يسير في طريق ليس هو الطريق الذي سارت فيه النظرية الغلوسيماتيكية، وهذه مفارقة أو فجوة عظيمة في تلقي النظريات اللِّسانية في الثقافة العربية المعاصرة.

ب- المعلم الثاني:

وفيه عالج عز الدِّين المجذوب مجموعة ما المسائل اللغوية ذات الصلة بالغلوسيماتيك، وحاول على إثر ذلك إسقاطها على الموروث النحوي العربي. وكما أشرنا فيما تقدم أنه عالج ذلك من زاويتين الأولى إبستمولوجية والثانية لسانية خالصة.

2- 1- الزَّاوية الإبستمولوجية:

أول ما بادر به المجذوب في هذا الصدد هو عرض مصادرته النَّظرية والممثلة في الفصل بين الفرضيات العامة والنوالات، وكان منطلقه الإبستمولوجي في ذلك هو الآتي من كلام هلمسلف في المقدِّمات: « تسمح النَّظرية باستنتاج مبرهنات ثم إنَّ النَّظرية والمبرهنات المستخلصة منها تسمح بدورها بإقامة فرضيات (من بينها القوانين) لا يمكن القول بصحتها، بعكس المبرهنات إلَّا بعد اِستيفاء شروط إثباتها»"[527]"،من هذا المنظور يكون "المجذوب"هنا باحثا عن مسوغ به يتمكن من جعل تمييز هلمسلف خاصة والنظرية الغلوسيماتيكية عامة صالحة لأن تكون نظرية لسانية تسقط على النَّحو العربي بغرض قراءته قراءةً لسانية جديدة، وأيضًا بغرض الوقوف على عيوب الدِّراسات والبحوث النقدية العَربية التي طالت النحو العَربي.

2- 1-1 - أهمية التمييز بين الفرضيات والمنوالات:

---

[526]- المرجع السابق نفسه، ص57.

[527]- المرجع السابق، ص57.

إنَّ قراءتنا لهذا المبحث أفضت إلى استنباط جملة من التصورات والأفكار اللِّسانية والإبستمولوجية باعتبارها كلها مؤسسة على الفصل المنهجي بين الفرضيات العامة والمنوالات الذي نصَّ عليه عز الدِّين المجذوب. ولعل أهم شيء مترتب عليه هو تحديد خصائص المنهج العلمي الحديث"[528]"؛ لذا تمكن أهميتهُ في نظر الكاتب -بالإضافة إلى ذلك- في تمييز الممارسات العلمية المتقدمة عن الممارسة العلمية الحديثة"[529]"لخُلُوِّ الأولى من ثنائية الفرضيات والمنوالات.

كما تتجلى ثمرة هذا التمييز في نظره أيضًا في المساعدة على قراءة وفهم أفضل لتاريخ اللّسانيات"[530]"، فقد عَمِدَ المجذوب إلى جَلب أمثلة من تاريخ اللِّسانيات بغرض بيان أهمية وخَطَر هذا الفصل المنهجي بين الفرضيات العامة والمنوالات، وبيان أثره وفعاليته في تحديد البدايات الفعلية للفكر اللِّساني العالمي وفي أوربا. فهذا التمييز بالنسبـــة إليه أداة إجرائية فعَّالة في إزاحة الغموض عن أول مَن بدأت معه البحوث اللِّسانية بمفهومها الحالي"[531]"، فكانت الأمثلة التي سَاقها مختلفة من حيث منطلقُها وخلفياتُها ولكنَّ الحَسْمَ في هذا الخلاف بين الذين أرَّخُوا للسانيات هو التزام الفَصل بين الفرضيات والمنوالات كما يرى عز الدِّين المجذوب. يقول في هذا الإطار: «ليس غَرَضُنا الانتصارُ لموقف على آخر، ولكننا نريد أن نبين أن اعتماد الثنائية المذكورة أعلاه، يَسْمَحُ بتفهم خلفيات مُخْتَلَفِ المواقف، ويكشف بينها نقاط الْتقاء و وَشائج غير متوقعة من الوهلة الأولى»"[532]".

وكذلك يترتب على هذا التمييز عند "المجذوب" التمكن «من فَهْم نقد اللِّسانيين الغربيين لتراثهم النّحوي، وتعيين أخطاء ما يُسمَّى بالنَّحو التقليدي ***Grammaire Traditionnelle*** فنقول في صياغة أولى: إنّ افتقار النّحاةِ الغَربيين القُدامَى إلى نِظَام من الفرضيات العامة المتناسقة هو الذي يُفسِّرُ الأخطاء التي وقعوا فيها في وصف ألْسنتهم، وخاصة

---

[528]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص58.

[529]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص58.

[530]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص57.

[531]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص59.

[532]- المرجع السابق نفسه، ص59.

عند وصف الألسنة الغربية عنهم، وعلى هذا الأساس نقول: إنَّ اِعتمادنا هذه الثنائية من شأنه أن يُجنِّبنا إسقاط عيوب النَّحو الأوروبي على النحو العربي، ويُجنِّبَنا المماثلة المطمئنة بين النحو العربي والنحو الأوروبي»"[533]".

إنَّ الذي يُفْهَمُ من هذا الكلام هو أنَّ عدم وضوح التوجهات النحوية القديمة الغربية والعربية على حدِّ سواء، وحتى بعض البحوث اللِّسانية العَربية الحديثة والتي انتقدها المجذوب يعود في رأيه إلى اِفتقاد هذه الأنحاء كلِّها إلى مفهوم الفرضيات العامة المتسقة، وكذا المنوالات الإجرائية باعتبارها مشتقة منها، وهنا مكمن ضعف البرامج النِّحوية القديمة في القارة الأوروبية خاصة. وإذا كان هذا هكذا فإنَّ القاعدة هذه تنطبق على التراث النَّحوي العَربي كما يعتقد ذلك عز الدِّين المجذوب؛إذ بوَضع هذه الثنائية يتمكن المشتغل في حقل اللِّسانيات وكذلك قراءة التراث النَّحوي"[534]"من تحديد ما المقصود بهذا المسمَّى تراثاً نحويًا.

بناءً على ذلك ستكون هذه الثنائية بالنسبة للمجذوب أَمرًا ضَروريًا وَشَرطًا مَنهجيًا وإبستمولوجيا «لإقامة تبويب أَوَلي للتراث النَّحوي العَربي يستند إلى خلفية نَظرية متينة»"[535]"، وهي الخلفية الغلوسيماتيكية باعتبارها منطلقا قويا إنْ على الصعيد المنهجي وإنْ على الصعيد الإبستمولوجي وإنْ على الصعيد النَّظري فيما ذهب إليه المجذوب. بالإضافة إلى هذا تمكن هذه الثنائية من تحديد المجَال الذي تحركت فيه أهم القراءات اللِّسانية النقدية للنَّحو العَربي، وبالفعل- كما يُفهم من كلام المجذوب- فإنَّها كُلُّها لم تخرج عن المجال الإجرائي"[536]"، ممَّا يدل دلالة واضحة على سمت تلك الأعمال بأنها كانت موجهة صَوب دراسة المنوال بمعزل عن الفرضيات العامة، وهو أمر يتعارض صراحة مع الثنائية التي أصَّلَ لها المجذوب، كون المنوالات تعكس الفرضيات العامة اِنعكاسًا إيجابيًا"[537]".

---

[533]- المرجع السابق نفسه، ص60.

[534]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص61.

[535]- المرجع السابق نفسه، ص ص61-62.

[536]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص62.

[537]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص84.

وعلى هذا الأساس يكون التجديد في التراث النحّوي مرتبطا برباط وثيق مع الخلفية النَّظرية التي وَضَعها هلمسلف في نظريته الغلوسيماتيك، وهو أمر في نظره"[538]"غاب عن القراءات التي أراغت تجديد التراث النَّحوي العربي. وقبل إنهاء الجانب الإبستمولوجي من المعْلَم الثاني لا بأس من الإشارة إلى أنَّ ثمار هذا التمييز الذي وضعه هلمسلف مكنَّهُ من تجاوز دي سوسير"[539]" في كثير من القضايا النَّظرية، كما سَمَحَ بتعديل بعضها بما يتلاءم والطرحَ العلمي الحديث. وعليه يجوز لنا القول بأنَّ عز الدِّين المجذوب كان دقيقًا في دراسته ومقاربته للنَظرية الغلوسيماتيكية، وواعيًا بخلفياتها الفكرية والإبستمولوجية وكذا المنهجية.

2- 2- الزاوية اللِّسانية:

انطلاقاً من التنبيه الذي هذا نصه « اعتماد المنطلقات الإبيستمولوجية لهيلمسليف لا يلزم بتبني فرضياته حول اللُّغة»"[540]"، ندخل مع المجذوب طورًا آخر من أطوار دراسة الغلوسيماتيك ومقاربتها، وهو دراسته اللُّغة من حيث هي بنية برؤية غلوسيماتيكية خالصة، ويتجلى هذا الأمر في كتاب المنوال النَّحوي العَربي في المباحث الآتية:

2- 2-1 – عَرضُ فَرَضِيات هَيلمسليف المتعلقة بنية اللُّغة"[541]":

ضمن هذا العنوان، قدَّم عز الدِّين المجذوب قراءة مسحية للفصول التي خصصها هلمسلف لهذا الشأن، وحدَّدها من الفصل الثامن إلى الفصل الخامس عشر باعتبار هذه الفصول مُمثلة لمرحلة تنظيرية أخرى في دراسة اللُّغة. وعلى هذا الأساس ستكون أهم المحَّطات المعالجة تحت هذا العنوان هي التحليل والتعريفات العلمية ودراسة طبيعية العلاقات الكائنة بين المكوِّنات الأساسية لبنية اللغة.

---

[538]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص62.

[539]- ينظر، المرجع السابق نفسه، ص ص89-90.

[540]- المرجع السابق نفسه، ص90.

[541]- المرجع السابق نفسه، ص ص90-91.

2- 2-2- أدواتُ التحليل: الجهاز المفهومي والاصطلاحي

اِحتوى هذا العنوان على مباحث هامة في إبستمولوجيا اللِّسانيات عُمومًا، وإبستمولوجيا الغلوسيماتيك خصوصًا، من ذلك:

2- 2-3- نظام التعريفات:

جُلُّ ما تطرق إليه المجذوب هنا لم يزد على الوصف لما ورد في كتاب المقدِّمات لهلمسلف والفصل الثامن منه خاصةً، فقد أشار إلى ما اشترطه هلمسلف في « نَظرية اللُّغة التي تحقق الشروط الإبيستمولوجية التي سبق توضيحها أن تدّقق المفاهيم التي نستعملها بأقصى قدر حتى تكون منطلقاتها صريحة، ويكون ذلك بتحديد شكلي ***Formel*** لنظام متناسق من التعريفات»"[542]"، وبالفعل فقد اِتخذ هلمسلف هذا العمل على عاتقه، وقد تجلى ذلك في الملحق الذي وضع آخر كتاب المقدِّمات، إِذْ ضَمَّ ثمانية ومائة مُصطلح"[543]"علاوة على تخصيصه كتاباً آخر"[544]"حَشَرَ فيه كَمًّا معتبرا من المصطلحات اللِّسانية ذات التوجه الغلوسيماتيكي، والتي كان الغرض منها البرهنة على أن اِنسجام النَّظرية اللُّغوية مشروط بانسجام واِتساق جهازها الاِصطلاحي و المفهومي، وهذه إحدَى القضايا الإبستمولوجية الهامة في اللِّسانيات الغلوسيماتيكية.

2- 2-4 - مبدأ التحليل:

عالج الأستاذ المجذوب في هذا المبدإ أمرين لِسَانيينِ غلُوسيماتيكيين بارزين عند هلمسلف وهما: **أولاً:** نقد النَّزعة الواقعية الساذجة خاصة فيما له صلة بمنهجية التحليل التي أصلَّت لها، والمتمثلة في جَعل« التحليل مُجرد تجزئة شيء ما إلى أقسام هي بدورها أشياء أو كِيانات مادية ثم تقطعَّ هذه الأشياء التي حَصَلنا عليها بعد عملية التجزئة الأولى إلى أقسام هي بدورها أشياء من حجم آخر وهكذا دَوَالَيك»"[545]"، هذا التصور التحليلي بَدَا لهمسلف تصورًا سَاذجًا مُنعمسًا في الواقع المادي، وعليه فالبديل المقترح عِنده هو أنَّ« نظرية اللُّغة ينبغي لها أن تعتمد

---

[542]- المرجع السابق نفسه، ص92.

[543] *Voir,* ***Hjelmslev****, Prolégomènes p164.*

[544] *Voir,* ***Hjelmslev****, Résumé d'une théorie du langage (http:// résumé.univ- rennees 1.fr).*

[545]- **عز الدِّين المجذوب**، المنوال النَّحوي العربي، ص ص93، 94.

على قدر كبير من التجريد يكون أساسًا للبحث حتى يكون التحليل مطابقاً للمعطيات التي يباشرها»"[546]"، وهو ما عبّر عنه بمصطلح "النَّص".

يتجلى هذا التحليل المجرد الذِّي يَدعُو إليه هلمسلف في الأمر **الثاني** الذي عالجه المجذوب ضمن هذا العنوان، ونعني به دراسة العلاقات التي تقيمها المكوِّنات بَدلاً عن المكوِّنات ذاتها. وبهذا يكون المجذوب قد تطرق إلى قضية بالغة الأهمية في لسانيات هلمسلف وإبستمولوجيته؛ يقول المجذوب في ذلك: « أما هيلمسليف فيتنكب هذا الرأي، ويُعلن بقوة أنَّ الأشياء ومختلف الكيانات المادية وما يوجد فيها من عناصر وأقسام لا توجد إلَّا بمقتضى ما يُوجد بينها وبين أقسامها من علاقات مُجرَّدة، وهو في هذا الموقف مَنطقي مع مواقفهِ الإبيستمولوجية السابقة»"[547]".

إذاً، فالميزة الأساسية التي ميزت دراسة المجذوب لهلمسلف هي كونه فصَّل تفصيلا منهجيًا لمقولات الغُلوسيماتيك كما عَرَضَها هلمسلف وذلك واضحٌ جدًا فيما أعقب هذه الفقرة؛ إذ نُلفيه مُتتبعًا لأقوال هلمسلف في المقدمات، في خصوص العلاقات المجردة التي قدمها هلمسلف على المكوِّنات نفسها، وعلى المنوَال ذاته يواصل المجذوب دراسته لما تبقى من العلاقات المجردة.

ولكن طَلَبًا للاختصار نُفَضِّلُ الاِكتفاء بذكرها من دون تفصيل، وهذه العلاقات هي: الارتباط المتبادل، والاِرتباط الأحادي، والتواجد، والكوكبة"[548]" وغيرها، إلَّا أنَّ دِرَاسته هنا تميزت بالوصف في مَواضع كثيرة، لِكونهَا قراءة مَسحية لفُصول كتاب المقدِّمات؛ لأن الغرض منها هو التمهيد لمرحلة تطبيق فرضيات هلمسلف فيما يأتي من المباحث، إلَّا أنَّنَا نَوَّدُ أن نشير بإيجاز إلى أنَّ عز الدِّين المجذوب تطرق أيضًا ضمن هذا المبحث إلى دراسة مقولة غلوسيماتيكية لها وزنها عند هلمسلف، إنَّها مقولة الوظيفة وما تفرّع عنها من علاقات جزئية وقد عَرَضَها

---

[546]- المرجع نفسه، ص93.

[547]- المرجع السابق، ص94.

[548]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص95 إلى ص98.

المجذوب عرضا مُفَصَّلاً"[549]"، مما أهلَّهُ لأن يكون اللِّساني العربي الوحيد الذي بيَّنَ مَضَامين هذه المقولة كما نَصَّ عليها هلمسلف، وهذه أيضًا إحدى الخصوصيات التي جَعلت مُؤلّف عز الدِين المجذوب مُتميزًا عن نُظرائِه ممن كتبوا عن الغلوسيماتيك، بل هي ميزة مضافة إليه.

جـــ- المعلَمُ الثَّالثُ:

وفيه حاول المجذوب تطبيق ما قدمه نظريا من مقولات وفرضيات هلمسلف حول بنية اللُّغة على بعض القضايا اللُّغوية العربية، مُعتمدًا في ذلك على ما انطلق منه هلمسلف من نقد لمفهوم اللِّسان السُوسيري، مُعتبرًا ذلك التعريف ناقصًا؛ لذا طوَّر هلمسلف- كما يفهم من كلام المجذوب - فرضية دي سوسير، وبيّن أن التحليل ينبغي التمييز فيه بين مستويين داخل العلامة، مستوى الدّال ومستوى المدلول،وتحليل كلٍّ منهما على انفراد"[550]". ناهيك عن تطرقه إلى قضية المقادير ***Les grandeurs***، والصُور ***Les figures***"[551]"، كلُّ هذا في رأي المجذوب أفضى بهلمسلف إلى تقديم تعريف مُناسب للغة المتجلي قوله: « وبناءً عليه فإنَّ التعريف الملائم لبنية اللُّغة هو ذاك الذي يعتبرها نظامًا من الصور ***Figures*** المحدودة العَددِ يتكون من توليفاتها عَدَدٌ لا منتاهٍ من العلامات»"[552]".

عمُومًا، إنَّ الذي يُستخلص من هذا المبحث أنَّ عز الدين المجذوب خاض فيه خوضًا دقيقاً وبوعي كبير بالخلفيات الإبستمولوجية التي استند إليها هلمسلف في استنباط هذه العلاقات اللِّسانية التفريعية وهو أمر لا نصادفه فيمَا تقدم من الكتابات اللِّسانية العربية.

1-3 – استبدال الدَّال والمدلول بالتعبير والمضمون"[553]":

بات أمرًا واضحًا عند الحديث عن الغلوسيماتيك أن يُخصص لقضية الدال والمدلول أو التعبير والمضمون حَيزٌ مُعتبرٌ، لكونها القضية اللِّسانية التي تشكل جوهر نظرية هلمسلف اللِّسانية، وأيضاً لانطلاق البحوث والدِّراسات اللِّسانية التي أعقبت الغلوسيماتيك منها، على

---

[549]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص96 إلى ص98.

[550]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص ص98،99.

[551]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص99.

[552]- المرجع السابق نفسه، ص ص 99،100.

[553]- المرجع السابق نفسه، ص 100.

غرار السيميائية، من هذه الزواية لا نجد كتابًا مَهما كان مستواه غُفلًا عن هذه المقولة، إلاَّ أنَّ الفارق بين ما تقدَّم وما هو في المنوال النَّحوي العَربي، أن المجذوب بيَّنها كما يجب مقتفياً في ذلك أثر صاحب المقولة هلمسلف.

على هذا الأساس لا تصادفنا مُعوِّقات في فهم مقولة التعبير والمضمون عند هلمسلف طالما كان شرحها مُساوقًا لضرب الأمثلة التوضيحية. على العموم يتجلى عمل المجذوب في تخصيصه لكلِّ جزء من جزئي العلامة بالشرح والتمثيل الذي امتد على طول خمس صفحات"[554]"وأبرز مثال هو عبارة "لا أعلم" التي قارنها مع مختلف الألسنة الممكنة وهي: الدانماركية والإنجليزية، والفرنسية، والفنلندية والإسكيمو"[555]"؛ فهذه الألسن على الرغم من تباينها إلَّا أنَّها يجمعها جامع يجعلها تشترك فيما بينها، يقول موضحاً ذلك: « إنَّ هذه الألسنة رغم اختلافاتها لها عامل مشترك هو الذي نسميه معنى واحدا، وهي التسمية الحدسية لِمَا يحصل عندك من قولي بأيِّ لسانٍ من هذه الألسن "لا أعلم"، إلَّا أنَّها تصوغ هذه التجربة البشرية وتحللها وتنظم وحداتها تنظيمًا يختلف من لسان إلى آخر»"[556]".

لم يتوقف عند هذا الحدِّ بل نلفيه يُواصل شرح المثال المتقدِّم وإخضاعه لقواعد كل لسانٍ من تلك الألسن المذكورة"[557]"، كل هذا جَعَل معالجة المجذوب تتجاوز كل القراءات والكتابات اللِّسانية العَربية التي حاولت تقديم عرض لنظرية هلمسلف؛ لأن عقد مقارنة بين الكتابات اللسانية التي خصصناها بالدِّراسة وكتاب المنوال النحوي العَربي تمكِّنَنا من إدَراكِ الفَوارق بَين الصِّنفَينِ والوقـــوف على حجم النقائص والاضطراب على مستوى الفهم الصحيح للغلوسيماتيك بالنّسبة للصنف الأول من الكتابات اللِّسانية.

سَيرًا على الطريقة نفسها يُواصل المجذوب دراسته لمقولة التعبير والمضمون، وهذه المرة على مستوى العلاقات التركيبية والعلاقات الاِستبدالية، أو كما عبَّر هو عنهما بمستوى الحدثان

---

[554]- ينظر المرجع السابق نفسه، من ص100 إلى ص105.

[555]- ينظر المرجع السابق، ص101.

[556]- المرجع السابق نفسه، ص 101.

[557]- ينظر المرجع السابق نفسه، ص ص101، 102.

(***Processus***) ومستوى النظام (***Système***)، أي العلاقات الجدولية"[558]"وقد أردف شرحه لها بأمثلة من اللّسان العربي قصد توضيح طريقة اِشتغال هذه العلاقات داخل بنية اللُّغة، ثم ختم المبحث بالحديث عن هلمسلف باعتباره أضافَ إضافات"[559]"جليلة للبحوث اللّسانية عُمومًا، ولما وَضَعه دي سوسير خصوصا على أنَّ قضية الدَّال والمدلول، وما تفرع عنها هي من أهم الإضافات والمستجدات اللِّسانية التي جاد بها هلمسلف على النظرية اللِّسانية بفضل تعمقة التنظيري والإبستمولوجي.

وتطرق كذلك إلى بيان الأسباب الداعية إلى استثمار نظرية هلمسلف في قراءة النَّحو العَربي وقد بَرَّر ذلك بقوله:« يبدو لنا أنَّ فرضيات هيلمسليف حول بنية اللُّغة تمثل مُنطلقاً لتقييم المنوال النحوي الآني الذي خلَّفه النحاة العرب لخصلتين هامتين فيها: إنَّها تستند إلى خلفية إبستمولوجية جيِّدة توضح خصائص صياغة النَّظريات وما يُميِّزُها من ضِّدها. إنها تفسر بصفة متكاملة أخطاء النُّحاة الأوربيين القدامى على مُستوى صعيدي التعبير والمضمون أو الدال والمدلول، وتفسِّرُ طبيعة العوائق المعرفية التي أوقعتهم فيها، وتمكن في الآن نفسه من تجاوزها،و بذلك تضمن الحدِّ الأدنى الضروري من الكفاية الوصفية بالنسبة لكلِّ منوال يعتمدها»"[560]". على هذا الأساس يشرع المجذوب في تحديد مَجال تطبيق هذه الفرضيات الهلمسلفية على النَّحو العَربي"[561]".

د- المعلم الرَّابع:

في هذا المحور يعالج المجذوب جملة من القضايا ذات الصلة بالطّرحِ الإبستمولوجي عمومًا والمنطلق في ذلك عنده هو هلمسلف، ولعل أبرزها قضية شروط تحديد موضوع العلم، وقد وَجَدَ ضالته فيما وضعه هلمسلف من شروط ضرورية في صياغة النَّظريات العلمية"[562]"، وهكذا يتطرق إلى صياغة النَّظرية العلمية من زَاوية هلمسلفية والتي أساسها « مبدأ التجريبية،

---

[558]- يُنظر، المرجع السابق نفسه، ص ص103، 104.

[559]- يُنظر، المرجع السابق نفسه، ص ص105، 106.

[560]- المرجع السابق نفسه، ص108.

[561]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص109.

[562]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص126.

وخاصةً أولوية شرط التناسق المنطقي على شرط شمول المعطيات»"[563]"، ثم نلفيه يوضح أهم النتائج المترتبة على معرفة شروط تحديد مَوضوع العلم وصياغة النَّظريات العلمية"[564]".

وأخيرًا يُعَرِّجُ على قضيتين بَارزتين في إبستمولوجيا اللّسانيات، وهما: طبيعة المنوالات وضرورة ارتباطها بالفرضيات"[565]"، والخصائص العامة للمنوالات، إذاً حاصل الأمر أنَّ المجذوب في دراسته للغلوسيماتيك كان مُوفقاً إلى حَدٍّ بعيدٍ باعتباره تفرد بعَرضه لها عَرضاً شاملاً ودقيقاً في مواطن كثيرة، ودليل ذلك هو التتبع المسلسل لأفكار هلمسلف لسانياً وإبستمولوجيًا، نظريًا وتطبيقيًا مما يكشف عن قراءة متأنية لكتاب " المقدمات" وهذه ميزة غابت عن الكتابات اللِّسانية العَربية التي تَمَّ فحصها فيما تقدَّم من هذا الفصل.

الصنف الثالث

وهو ما اشتمل على الكتابات اللِّسانية التي تجاوزت ذكر الغلوسيماتيك، فلمَّا كانت هذه الكتابات مواصفاتها هكذا، لم يكن من اللازم أن نتوسع في دراستها، وإنَّما جعلناها صنفاً ثالثاً قائماً بذاته لِمَا اقتضته القسمة العقلية، من كون الكتابات اللِّسانية العَربية في هذا الشأن إما أن تكون خصصت حيزًا للغلوسيماتيك أو لا، والتي خصصت ذلك إما بسطحية وإما بعمق فَبَانَ أن الأول هو الصنف الأول، والثاني هو الصنف الثاني وقد تقدَّمَا، فبقي الصنف الثالث وهو هذا الذي نحن بصَدَدِه.

نود أن نشير هنا إلى أمر آخر، وهو أن العناوين التي اخترناها لهذا الصنف الثالث تعاني من مفارقة تكمن في العنوانات التي عنونت بها تلك الكتابات وبين ما تضمنته من فصول ومباحث، على هذا الأساس سنكتفي ببيان هذه المفارقة دون سوَاها من المباحث التي وَردت فيها تفصيلاً. إنَّ عدد الكتابات اللِّسانية المختارة لهذا الصنف هي أربعة عناوين مختلفة من حيث التسمية متفقة من حيث المحتوى وطريقة العَرض، وهذه الأربعة هي عينة للتمثيل لا الحصر وإلَّا فهي الأكثر ذيوعًا في الأوساط الأكاديمية.

---

[563]- المَرجع السابق نفسه، ص127.

[564]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص ص127، 128.

[565]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص128. وص ص130،131.

8- أضواءُ على الدِّراسات اللُّغوية المعاصرة:

كتاب ألَّفه الأستاذ نايف الخرما"[566]"، وفيه تتجلى هذه المفارقة المذكورة، ذلك أنَّ العنوان يُفهم منه التطرق إلى جميع المدارس اللِّسانية المعاصرة باعتبارها درست اللُّغة بطرق مختلفة ومَناهج متباينة بالإضافة إلى هذا يُفهم منه تتبع الرؤى والتصورات اللِّسانية على الأقل في العالم الغربي، إلَّا أنَّنَا عندما نتصفح الكتاب نجده مقتصرًا على قضايا ومباحث لسانية عامة. ابتداءً من الفصل الأول إلى غاية الفصل الخامس وهو الأخير، ودَرءًا للتطويل نكتفي بالإشارة إلى ما تضمنته فصول الكتاب.

أما الفصل الأول فقد خصصه لبحث اللغة باعتبارها وسيلة للاتصال"[567]"، كما تطرق فيه إلى تعليم اللُّغات"[568]"، هذا فضلًا عن التمهيد الذي مَهَّد به للفصل.

أما الفصل الثاني فقد جعله خاصًا بالاهتمامات اللُّغوية الحديثة"[569]"، وتطرق فيه إلى دراسة أهمية اللغة"[570]"، ومواصفاتها لكونها نظامًا معقدًا"[571]"، كما أنها تحتل المكانة المحورية في العلوم الإنسانية قاطبة"[572]".

والأهم من ذلك هو كلامه على الاِتجاهات اللُّغوية المعاصرة وهناك عرَّج على دي سوسير"[573]" إضافة إلى وقفة معتبرة على المدرسة السلوكية"[574]"، والشيء نفسه مع المدرسة التوليدية"[575]".

---

[566]- **نايف الخزما:** أضواء على الدِّراسات اللُّغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة- الكويت.ع 09 سبتمبر 1978.

[567]- يُنظر المرجع نفسه، ص26.

[568]- يُنظر المرجع السابق، ص ص35، 36.

[569]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص59.

[570]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص59.

[571]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص63.

[572]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص74.

[573]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص83.

[574]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص89.

[575]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص91.

أمَّا الفُصول الثَّالث والرَّابع والخامس فإنها لم تتجاوز الطريقة الفيلولوجية؛ لأنَّ المباحث والقضايا المدروسة فيها تبتعد عن القضايا والمباحث اللِّسانية المعاصرة، من ذلك تطرقه في الفصل الثالث"[576]" لطبيعة اللُّغة البشرية، ولغة الحيوان وإشكالية اللُّغة من حيث الطبع والتطبـــع وغير ذلك في حين خصَّص الفصل الرَّابع لبحث علاقة اللغة بالمجتمع"[577]"، وقد عالج فيه علاقة اللغة بالفكر والحضارة والفرد واللَّهجات والسِّن والجنس، وكذا العرق، ثم ختمه بدراسة الكلام في البيئة الاِجتماعية. هذا وقد جَعَل الفصل الخامس"[578]" منحصرًا في قضية التركيب اللغوي وأنظمة اللُّغة المختلفة، وضمنه عرَّج على دراسة المستويات اللِّسانية منفردة. بدأها بالصوت ثم الصرف والنحو وأخيرًا المعاني، مع بعض النماذج التطبيقية.

خلاصة الأمر هي أن كتاب "نايف الخرما" المسمى "أضواءً على الدِّراسات اللُّغوية المعاصرة" لم يكن ليخرج عن البَحث الفيلولوجي التاريخي لبعض القضايا اللُّغوية المعروفة. وهذا، إِذَا ما قوبل بالعنوان المختار له تبَّين مدى البون بين العنوان ومضمون الكتاب لخلوهِ من دراسة أهم وأكثر التيارات والنظريات اللِّسانية تأثيراً في الفكر الإنساني بوجه عام.

9- مَدخلٌ إلى عِلمِ اللُّغةِ:

جعل الأستاذ محمود فهمي حجازي كتابه "مدخل إلى علم اللغة""[579]"مُحتويًا على خمسة عشر فصلاً، وكما هو ظاهر فقد وَسَمهُ بعبارة" المدخل" مما يعني أنَّ أول ما يتبادر إلى الفهـــم هو أن يكون الكتاب مُخصصًا لدراسة النظريات والتصورات وكذا المدارس اللسانية على اعتبار أنها أكثر حداثة وتأثيراً في البحوث اللِّسانية المعاصرة، ولكنَّ المتصفح لهذا الكتاب لا يُلفي فيه دراسة للنظريات والمدارس اللّسانية، بل على العكس، الموضوع الرئيس الذي دار حوله كتاب مدخل إلى علم اللغة هو فقه اللغة، وهذا جَليٌّ جدًا في الفصول المخصصة لذلك. على هذا الأساس يمكن إيجاز أهم ما عالجه محمود فهمي حجازي كالآتي:

---

[576]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص 113 إلى ص135.

[577]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص169 إلى ص199.

[578]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص205 إلى ص255.

[579]- **محمود فهمي حجازي:** مدخل إلى علم اللُّغة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة مصر- د.ط.

الفصل الأول وقد خصصه لبعض المفاهيم اللُّغوية العامة باعتباره فصلاً تمهيديًا، في حين خصص الفصل الثاني لبحث المناهج اللّسانية وكَان مُركزًا فيه على المنهج المقارن والوصفي، والتاريخي والتقابلي، ثم تطرق إلى علم اللغة العام على حدٍّ ما وصف. أمَّا الفصول من الثالث إلى العاشر فقد جعلها خاصة بالدِّراسة المستوياتية للغة، فَبَاشر ذلك بالمستوى الصوتي في الفصل الثالث، وخَصَّ الفَصل الرَّبع بالمصطلحات الصوتية في التراث العَربي، أما الفَصل الخامسُ فقد اقتصر فيه على الدِّراسة التطبيقية للنِّظَام الصَوتي، وجَعَلَ الفصل السَّادس خاصًا بدراسة بنَاءِ الكلمة، وهكذا درس في الفصل السابع بناء الجملة"[580]"، وعرَّج في الفصل الثامن على مفهوم المكونات المباشرة في النحو التوليدي"[581]"، هذا وقد جَعَل الفصلين التاسع"[582]"والعاشر"[583]"لدراسة المستَوَيَينِ المعجمي والدَّلالي، علمًا بأنَّ هذا كلَّهُ كان فيه محمود فهمي حجازي فيلولوجيًا بامتيازٍ.

أما الفصول من الحادي عشر إلى الخامس عشر"[584]"فهي فصول بحث فيها قضية فيلولوجية صرف، نعني بها: العائلات والأسُر اللُّغوية آسيوية، وهند وأوروبية وأفريقية وحتى العالم الجديد. مِمّا يُبَيِّنُ أنَّ العُنوان المختار للكتاب لا يتفق بصورة فعلية مَع مَضَامينه.

10- المدخل إلى علم اللُّغة ومناهج البحث فيه:

قَسم الأستاذ رمضان عبد التواب كتابه "المدخل إلى علم اللُّغة ومناهج البحث فيه""[585]"على قسمين، وضمَّ كلَّ قسمٍ منهما فُصولاً عالج فيها قضايا لغوية مختلفة، وجل تركيزه كان منصبا على المنهج المقارن خاصة.

لقد ضَمَّ القسم الأول ستة فصول غلب عليها الطرح الفيلولوجي الخالص، بحيث جَعَلَ الفَصل الأول خاصاً بالدِّراسة الصوتية وملحقاتها من مثل حدوث الصوت الإنساني ومقارنة

---

[580]- يُنظر المرجع السابق، من ص09إلى ص114.

[581]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص119 إلى ص112.

[582]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص129 إلى ص144.

[583]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص145 إلى ص161.

[584]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص165 إلى ص239.

[585]- **رمضان عبد التواب:** المدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث فيه. مكتبة الخانجي- مصر ط03/1997.

ذلك بين المحدثين والقدامى. أما الفصل الثاني فقد خصَّهُ لمناقشة قضية لغوية تقليدية في فقه اللُّغة وهي أصل نشأة اللغة الإنسانية، كما تطرق إلى ذكر أهم المذاهب والآراء في ذلك.

هذا وقد جَعَلَ الفصل الثالث مُقتصرًا على الحديث عن علاقة اللُّغة بالمجتمع، كما وضح أهمية اللُّغة في المجتمعات الإنسانية وأثرها فيها. وما قيل عن الفصل الثالث نلقاه متطابقاً تمامًا مع الفصل الرَّابع الذي خصصه لدراسة علاقة اللُّغة بالنفس الإنسانية، في حين جعل الفصل الخامس مُتمحورًا حول علم اللُّغة والجغرافيا أو ما يُعرف بالأطلس اللُّغوي"[586]". بقي الفصلان السادس والسابع فالأول منهما عالج فيه قضية اللُّغة المشتركة واللَّهجات"[587]"، وعالج في الثاني منهما مسألة الصراع اللُّغوي، وذَكَرَ أسبابه ونتائجه"[588]".

أما القسم الثاني من كتاب رمضان عبد التواب فهو الآخر قد احتوى فُصولاً بلغت الثمانية مع فارق بسيط مع القسم الأول، يتجلى في بيان أهمية المنهج المقارن"[589]"وتطبيقه على جملة من المسائل اللُّغوية التي بدورها شكلت فصول القسم الثاني والتي يُمكننا سَردُها من دون تعليق طلبًا للإيجاز:

الفَصل الأول: تطرق فيه إلى بحث المنهج المقارن. الفَصل الثاني: في الأصوات اللُّغوية الفَصل الثالث: في أبنية الفعل، الفَصل الرَّابع: أدوات التعريف والتنكير، الفَصل الخامس: التذكير الفَصل السادس: إسناد الماضي إلى الضمائر، الفَصل السَابع: الأفعال المعتلة، الفَصل الثامن: تطابق العَدد في الجملة الفعلية"[590]".

يتضح من فصول الكتاب بقسميه أنَّ العنوان المختار له يحتمل معاني مخالفة لمضامين الكتاب، ذلك أنّ الأستاذ رمضان عبد التواب لم يكن يتحدث مطلقاً عن اللِّسانيات التي تسمى في المشرق بعلم اللُّغة؛ بل بالعكس كانت جهوده مُركزة على دِرَاسة المنهج المقارن بالإضافة إلى غلبة النَّزعة الفيلولوجية عليه.

---

[586]- يُنظر المرجع السابق، من ص13إلى ص164.

[587]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص165 إلى ص170.

[588]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص171 إلى ص180.

[589]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص181.

[590]- يُنظر المرجع السابق نفسه، ص181 إلى ص229.

11- فصول في علم اللُّغة العَام"[591]":

من تأليف الأستاذ محمد عبد الكريم الرديني وهو كتاب عَرَضَ فيه لمجموعة من القضايا اللِّسانية، فامتزج فيه الطرح التاريخي بالوصفي كما تداخل فيه التوجه الفيلولوجي بدراسة المستويات اللِّسانية قديمًا وحديثاً. عمومًا يضم الكتاب ثمانية فصول فضلاً عن التمهيد.

أما الفصل الأول، فقد دَرسَ فيه اللُّغة الإنسانية وطبيعتها"[592]"في القديم والحديث، وفي الفصل الثاني أجمل حديثه عن المستويات اللِّسانية باعتبارها مستويات استخدام اللغة الإنسانية، كما تطرق فيه إلى ذِكر الفرق بين مفهوم فقه اللغة وعلم اللُّغة وتحديد لكل علم منهما حُدُوده عند القدامى والمحدثين. أما الفصل الثالث فقد خصصه للدِّراسات اللُّغوية قبل علم اللُّغة، أو اللِّسانيات الحديثة عند كلٍّ من الهنود واليونان والعَرب ثم عند العلماء الغَربيين، وفي الفصل الرَّابع الذي عنونه بمنهاج الدِّراسات اللُّغوية"[593]"، تطرق فيه إلى تحديد مفهوم المنهج لغة واصطلاحًا، وأشار إلى شروطه وأُسسه التي نَصَّ عليها علماء هذا الميدان.

ولما كان الفصل الرابع في شكل تمهيد للفصل الخامس خصص الخامس لدراسة المناهج الحديثة في دراسة اللغة الإنسانية، واحتوى هذا الفصل"[594]"المناهج اللُّغوية الآتية:

المقارن والوصفي، والتاريخي، والتقابلي والفيلولوجي ثم علميِّ النفس والاجتماع. هذا وقد جاء عنوان الفصل الَسادس « بالإفادة من علم اللغة""[595]"، فعالج فيه جانبين هما: علم اللُّغة التطبيقي وعلم الحركة الجسمية أو لغة الجسم، ثم الفصلان السَابع والثامن، فأولهما خصَّهُ بدراسة الأصوات اللُّغوية من حيث مخارجها وصفاتها وما يتعلق بهما، أَمَّا ثَانيهما فقد جَعلَهُ مُقتصرًا على الدِّراسة الدَّلالية"[596]"ومتعلقاتها قديما وحديثاً عند العرب كما عند غيرهم.

---

[591]- **محمد علي عبد الكريم الرديني:** فصول في علم اللُّغة العام. دار الهدى عين مليلة الجزائر .ط2007.

[592]- يُنظر المرجع نفسه من ص09 إلى ص16.

[593]- يُنظر المرجع السابق، من ص 23 إلى ص73.

[594]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص77 إلى ص91.

[595]- المرجع السابق نفسه، ص93.

[596]- يُنظر المرجع السابق نفسه، من ص93 إلى ص250.

خلاصة الأمر هي أنَّ مضامين كتاب الرُديني تنحصر كلها في إطار فقه اللغة سواء من حيث الموضوعات المدروسة أم من حيث المنهج الذي اِقتفاه المؤلف، ممَّا لا يجعل الكتاب مُندرجًا ضمن الكتابات التي درست التيارات والمدارس اللِّسانية ومناهجها، وإن كان عنوانه يحتمل ذلك على اعتبار أنَّ علم اللُّغة هو اللِّسانيات.

3- موقف اللِّسانين العرب من الغلُوسيماتيك:

إنَّ تلقي الباحثين العرب للسيميائية السِّردية تشهد له كتاباتهم الكثيرة، إن على مستوى التأليف وإن على مستوى الترجمة، فتشكل على إثر ذلك توجه سيميائي سَردي عَربي متشبع بما أنتج وما ينتج من البحوث السيميائية السَّردية في العَالم الغَربي، وهذا بدوره يَسمُح بتحديد موقفهم إزاءها، وهو موقف إيجابي. وهكذا انتسب من الباحثين العَرب في المغرب كما في المشرق مَن انتسب إلى السيميائية السَّردية خاصة في صورتها الباريسية؛ والأمثلة في هذا الشأن كثيرة تُنِّمُ عن موقف الرضى تجاهها. نذكر منها تمثيلاً؛ ما ألّفه رشيد بن مالك، وأحمد يوسف، وعبد الملك مُرتاض، وحَميد لحمداني وسعيدبن كراد، ومبارك حنون وأنور المرتجى، ومحمد نَاصر العجيمي، وقاسم سيزا وأبو زيد حامد، وعبد الواحد المرابط"[597]"، والقائمة تطول جدًا.

بناءً على ذلك، يكون مشروعًا أن نطرح السؤال الآتي: لماذا لم يُقبل الباحثون العرب على الغلوسيماتيك إقبالهم على السيميائية السِّردية، وقد بان بأنها اِمتدادُ للغلوسيماتيك؟. وإذا كان هذا هكذا، فإنَّنا لا نجد في اللِّسانيات العربية المعاصرة من انتسب إلى الغلوسيماتيك، طبعا لا نقصد بالانتساب هنا بأن يكون ضروريًا أو واجبًا، بل بالموازاة مع نظريات لسانية غربية أخرى، يوجد أعلام لسانيون عرب اِنتسبوا إليها، وبَيَّنُوا ذلك عبر التأليف والترجمة، ويُصَنَّفون على أساس ما تبنوُّهُ من تصورات ونظريات ومناهج لسانية غربية، وَصِرْنَا نَسمع عن التوليديين العَرب، والوصفيين العرب وكذا الوظيفيين وَهَكَذا مَع الأسلوبيين والتدَاوليين.

إنَّ هذا الوضع يؤكد لنا أنَّهم تابعون مقلدون حتى في الأحكام النقدية التي توصل إليها الباحثون الغربيون، وهذا ما صادفناه شاخصًا فيما يخص الغلوسيماتيك. فكُلُّ الأحكام

---

[597]- ركَّز هؤلاء الباحثون في أعمالهم على توضيح وتبسيط النّظرية السيميائية السِّردية نظريًا وتطبيقيًا وترجمةً.

الانتقادية التي قدَّمها الباحثون العَرب للغلوسيماتيك من كونها نظرية تجريدية، وأنَّها وظفت مصطلحات غريبة، وأنَّها تصلح لعلم العلامات العام، وأنّها أميلُ إلى الرياضيات والمنطق منها إلى اللِّسانيات، وأنَّها نظرية بالغت كثيرًا في التجريد الجبري الرياضي، فهي عند التحقيق نُسخة مطابقة للأصل الغَربي في نقدهم لها؛ مع فارق وحيد يتمثل في أصالة ما توصل إليه اللِّسانيون في الغرب و انعدام ذلك عند اللسانيين العرب باعتبارهم مستوردين لما قرره اللسانيون الغربيون.إنّ الذي جَعَلَنا نُقرِّر هَذا هو تلك الصِّلة الوثيقة التي تربط السِّميائيات السَّردية بالغلوسيماتيك، وقد كُنَّا ذكرناها في مُستهل هذا الفصل فأغنى عن إعادتها هاهنا. فخلاصة الأمر هي أنّ موقف اللِّسانيين العرب هو موقف سلبي بامتياز تجاه الغلوسيماتيك.

وَختَامًا يَجبُ أن نُنَوِّهَ بأن ليس لازما عن الذي قدمنا من انتقادات للكتابات اللسانية التي وقع اختيارنا عليها أننا ننقص من قدرها، أو من حجمها، أو أننا نبخسها حقها، أو نوَّهن مجهودات أصحابها؛ بل القصد عندنا هو بيان تلقي الغلوسيماتيك، والوقوف جراء ذلك على موقف الفكر اللساني العربي منها، كما واقعه المعاصر؛ وحيث كان الأمر كذلك ، كان من اللازمات والقضايا الواجبات البحث في مضامينها والكشف عن حقيقتها بكل موضوعية ليس إلَّا.

خاتمة

ننتهي مما سبق إلى جملة من النتائج التي يمكن إيجازها في الآتي:

1- تتعرض سائر العلوم إلى أزمات علمية حادة، مما يتطلب مراجعة الأسس التي قامت عليها، وهو ما حدث للسانيات إبان القرن التاسع عشر.
2- تنذر الأزمات العلمية بميلاد براديغم جديد يكون فاتحة جديدة لتحول إبستمولوجي ومنهجي في العلم، وهذا ما وقع للسانيات وقد أطلق عليه بالمنعرج اللساني
3- تعد الإبستمولوجيا أو نظرية العلم، علما هاما وضروريا في التعرف على منطلقات العلوم وأسسها، فضلا عن نتائجها العلمية، لكونها العلم الأنموذجي في نقد وفحص سائر فروع المعرفة العلمية بما في ذلك اللسانيات.

4- لا قوام للإبستمولوجيا بدون العلوم المتقاطعة معها إنسانية وطبيعية ودقيقة، مما جعلها علما مركزيا في جانب، وآلة تحتاجها سائر العلوم في جانب آخر.

5- يترتب على ذلك أن لكل علم إبستمولوجيا تخصه مثل الرياضيات والفيزياء والبيولوجيا، الغاية منها فحص ودراسة تلك العلوم، والأمر نفسه بالنسبة للإبستمولوجيا اللسانية.

6- تسمح إبستمولوجيا اللسانيات بالوقوف على الخلفيات الفلسفية والمنطقية والمنهجية لمختلف النظريات اللسانية.

7- بينت المقاربة الإبستمولوجية للغلوسيماتيك قيمة هذه النظرية علميا منهجيا، وكشفت عن الفرضيات والتصورات اللسانية التي وضعها هلمسلف في دراسة اللغة الإنسانية.

8- كما كشفت عن حجم الفراغ الذي يعاني منه التفكير اللساني العربي في الغلوسماتيك تحديدا.

9- إن المقاربة الإبستمولوجية للنظرية الغلوسيماتكية بينت طبيعة النواة الصلبة التي شكلت النظرية اللسانية البنوية عامة، ونظرية هلمسف خاصة.

10- كما حددت مواطن الالتقاء أو التعالق بين الغلوسيماتيك والسيميائية السردية على اعتبار أن السيميائية السردية تنمية للنواة الصلبة للغلوسيماتيك.

11- إن الدراسة الإبستمولوجية في الفكر اللساني العربي حددت أصناف الكتابات اللسانية العربية في هذا الشأن من سطحية ومعمقة ومتجاوزة لها، كما كشفت عن درجة الفهم المتفاوت بين الأصناف المذكورة.

12- مكّنت الإبستمولوجيا من الوقوف على راهن الفكر اللساني العربي في خصوص النظرية الغلوسيماتيكية، كما اتضح موقفهم السلبي تجاهها، مما أفرز فراغا تأليفا وترجمة.

فهرس المصطلحات العلمية

كفاية وصفية	*Adéquation descriptive*
تجريد	*Abstraction*
تطابق	*Adéquation*
كفاية أنطولوجية	*Adéquation anthologique*
كفاية تفسيرية	*Adéquation explicative*
جبر منطقي	*Algèbre logique*
تحليل	*Analyse*
نقائض	*Antinomies*
قبلي	*Apiriori*
اعتباطية	*Arbirtraire*
تقطيع	*Articulation*
اللغة الأم	*Langue matérnelle*
لسانيات	*Linguistique*
لسانيات مقارنة	*Linguistique comparée*
لسانيات تقليدية	*Linguistique traditionnelle*
منطق	*Logique*
منطق رياضي	*Logique mathématique*
لوغوس	*Logos*
قوانين صورية	*Lois formelle*
تعالق	*Lonstellation*
تجلي	*Manifèstation*
ميكانيكا كونتية	*Méquanique quantique*

Assotiation	ترابط
Atomique logique	ذرية منطقية
Axiomatique	أكسوماتيك
Baconnisme	باكونية
Calcule logique	حساب منطقي
Catégorie	مقولة
Cercle de copenhague	حلقة كوبنهاغن
Classe	فئة
Cohérence interne	اتساق داخلي
Composants du système	مكونات النسق
Concepte	مفهوم
Confirmation	تأكيد
Connissance scientifique	معرفة علمية
Connventionnalisme	مواضعاتية (اصطلاحية)
Constant	ثابت
Contenu	محتوى
Contexte	سياق
Crise	أزمة
Crise des fondements	أزمة الأسس
Découverte	استكشاف
Déduction	استقراء
Définitions	تعريفات
Démonstration	برهنة
Dérivation théorique	اشتقاق نظري

Métalangage	لغة عليا
Métaphysique	ميتافيزيقا
Méthode	منهج
Méthodologie	ميتودولوجيا
Modification	تعديل
Néogrammaiens	نحاة جدد
Non-contraduction	عدم التناقض
Norme	معيار
Noyau dur	نواة صلبة
Objectivité	موضوعية
Observation	ملاحظة
Opposition	تعارض
Paradigme	براديغم
Paramètres	برامترات (فرضيات مساعدة)
Parole	كلام
Phénomene	ظاهرة
Philologie	فيلولوجيا
Philosophie analytique	فلسفة تحليلية
Philosophie atomique	فلسفة ذرية
Philosophie islamique	فلسفة إسلامية
Phoneme	فونيم
Plan	صعيد
Pois universelle	قوانين كلية
Positivisme logique	وضعية منطقية

Description	وصف
Détermination	علاقات أحادية
Diachronique	تاريخي
Disjonction	انفصال
Distributionnalisme	توزيعية
Données	معطيات
Efficacité	تأثير
Elégante	أناقة
Eléments	عناصر
Empirisme	تجربانية
Entité	كيان
Epistemalogie	ابستمولوجيا
Epistémologie générale	ابستمولوجيا عامة
Epistémologie interne	ابستمولوجيا داخلية
Essence	جوهر
Ethymologie	تأثيل
Exhaustivité	شمولية
Expérience	تجربة
Expirémantation	تجريب
Explication	تفسير
Expression	تعبير
Falsification	تكذيب
Fonctifs	حدا الوظيفة
Fonction	وظيفة
Fondements	أسس
Postulats	مسلمات
Prédiction	تنبؤ
Prémisses	أوليات منطقية
Principe empirique	مبدأ تجريبي
Program scientifique	برنامج علمي
Raisonnement	استدلال
Rapport interne	علاقات داخلية
Rapports	علاقات
Rationalisme	عقلانية
Realisme naive	واقعية ساذجة
Réduction	اختزال
Refutation	دحض
Relativité	نسبية
Révolution scientifique	ثورة علمية
Schémas	ترسيمة
Sciences formelle	علوم صورية
Sémiotique linguistique	سيميائية لسانية
Sens	معنى
Senses	حواس
Signe linguistique	دليل لساني
Signes	علامات
Signification	دلالة
Simplicité	بساطة
Sons	أصوات
Stratification du langage	تنضيد اللغة

صورنة	***Formalisation***
شكل	***Forme***
شكل سيميائي	***Forme sémiotique***
غاليلية	***Gallilienne***
توليدية تحويلية	***Générative transformationnelle***
هندسة نظرية	***Géometrie théorique***
غلوسيماتيك	***Glossématique***
غلوسيم	***Glossème***
مقادير	***Grandeurs***
كشافة سلبية	***Heuristique négative***
كشافة إيجابية	***Heuristique positive***
تراتبية	***Hiérarchie***
تاريخ العلوم	***Histoire sciences***
فرضية العمل	***Hypothèse de travail***
فرضي-استنباطي	***Hypothéthé co-inductive***
أمثلة	***Idéalisation***
مثالية	***Idealisme***
محايثة	***Immanence***
استلزام	***Implication***
لا معرفات	***Indéfinissables***
هندو أوروبية	***Indoeuropeénne***
استنباط	***Induction***
استنتاج	***Inférence***
علاقات متبادلة	***Interdé pendances***
حدس	***Intuition***
بنوية	***Structuralisme***
بنية منطقية	***Structure logique***
مادة	***Substence***
مادة سيميائية	***Substence sémiotique***
رمزية	***Symbolisme***
آني	***Synchronique***
نسقية	***Systématisation***
نظام رمزي	***Système symbolique***
تاكسيم	***Taxem***
اختبار خارجي	***Teste externe***
اختبار داخلي	***Teste interne***
نص	***Texte***
مبرهنات	***Théorémes***
نظرية	***Théorie***
فرضية	***Théorie***
نظرية العلم	***Théorie de science***
نظرية المجموعات	***Théorie des ensembles***
تنظير	***Théorisation***
منعرج لساني	***Tournant linguistique***
تعالي	***Transcendance***
كلي	***Universel***
استعمال	***Usage***
قيمة	***Valeur***
قيمة منطقية	***Valeur logique***
متغير	***Variable***

Langage	لغة	***Vérification***	تحقق
Langage scientifique	لغة علمية	***Verité formelle***	صدق صوري
Langue	لسان	***Vérité logique***	صدق منطقي

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

-أ-

﴿العربية﴾

إبراهيم محمود خليل:

❖ في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة، الأردن ط2009/2 .

ابن تيمية:

❖ نقض المنطق، تحقيق عبد الرزاق حمزة وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1999/1.

❖ الصفدية، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط01، 2004.

ابن رشد الحفيد:

❖ الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، تقديم أحمد شمس الدين ،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2002/1.

❖ تهافت التهافت، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية بيروت بنان، ط2005/1.

❖ فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، تقديم وتعليق الشيخ أبو عمران وجلول البدوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982 .

أبو حامد الغزالي:

❖ المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال، تحقيق عبد الرزاق قسوم ،جسور للنشر والتوزيع، الجزائر ط2007/1.

❖ تهافت الفلاسفة، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت لبنان ط2003/1.

أبو يعرب المرزوقي:

❖ الإبستمولوجيا البديل، مراس العلم وفقهه، دار المتوسطية تونس، ط2007/1.

أحمد شطوطي:

❖ المدخل إلى الفلسفة العامة، دار طليطلة الجزائر ط 2009

أحمد عزوز:

❖ المدارس اللسانية أعلامها ومبادؤها ومناهج تحليلها للأداء التواصلي، دار آل رضوان وهران الجزائر، ط2 /2008 .

أحمد ملاح:

❖ المختصر في تاريخ الإبستمولوجيا، منشورات مختبر الفلسفة وتاريخها، دار القدس وهران، الجزائر ط 2010.

أحمد مومن:

❖ اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ط2005/2

الأخضر شريط:

❖ المنطق الرياضي خلاصة أثر المنطق المعاصر، جسور النشر والتوزيع الجزائر ط2009/1

إسماعيلي علوي:

❖ اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دار الكتاب الجديد ليبيا، ط2009/1 .

بناصر البعزاتي:

❖ الاستدلال والبناء، بحث في الخصائص العقلية العلمية . دار الأمان المغرب والمركز الثقافي العربي بيروت لبنان ط1999/1 .

❖ خصوبة المفاهيم في بناء المعرفة، دار الأمان الرباط، المغرب ط 1/ 2007

❖ مفهوم الإبدال (البراديغم)، ضمن كتاب المفاهيم تكونها وسيرورتها، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بوحسن، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط2000/1 .

جمال ميموني ونضال قسوم:

❖ قصة الكون، دار المعرفة الجزائر ط2006

حافظ إسماعيلي علوي، وامحمد الملاح:

❖ قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، منشورات الاختلاف الجزائر ،والدار العربية للعلوم بيروت لبنان ط2009/1.

رمضان عبد التواب:

❖ المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث فيه، مكتبة الخانجي، مصر، ط 1997/3

سالم يفوت:

❖ إبستمولوجيا العلم الحديث، دار توبقال ،المغرب ط2008/2.

صلاح فضل:

❖ علم الأسلوب والنظرية البنائية، دار الكتاب المصري القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2007/1 .

عبد الرحمن الحاج صالح:

❖ بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر الجزائر، ط 2007 .

عبد السلام بنعبد العالي وسالم يفوت:

❖ درس الابستمولوجيا، دار توبقال، المغرب، ط03، 2001.

عبد الواحد المرابط:

❖ السيميائية العامة وسيمياء الأدب، منشورات الاختلاف الجزائر والدار العربية للعلوم بيروت، ط2010/1 .

عز الدين المجذوب:

❖ المنوال النحوي العربي، قراءة لسانية جديدة، كلية الأدب سوسة ودار محمد علي الحامي، تونس، ط1998/1 .

ماهر عبد القادر محمد علي:

❖ نظرية المعرفة العلمية، دار النهضة العربية بيروت لبنان، ط1985.

محمد الأوراغي:

❖ اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية، منشورات الاختلاف الجزائر ط2010/1 .

❖ الوسائط اللغوية، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط المغرب، ط2001/1

❖ نظرية اللسانيات النسبية، منشورات الاختلاف الجزائر، والدار العربية للعلوم، بيروت لبنان، ط2010/1.

محمد الصغير بناني:

❖ المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، دار الحكمة الجزائر، ط2001 .

محمد عابد الجابري:

❖ مدخل إلى فلسفة العلوم ،مركز الدراسات الوحدة العربية بيروت لبنان ط2011/7.

محمد عبد الكريم الرديني:

❖ فصول في علم اللغة العام، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، ط 2007 .

محمد محمد العمري:

❖ الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية، دار أسامة للنشر عمان الأردن ط2012/1 .

محمد محمد علي يونس:

❖ مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت لبنان، ط2004/1.

محمد محمد قاسم:

❖ المدخل إلى فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية مصر ط2003.

محمد هشام:

❖ تكوين الممارسة الإبستمولوجية عند باشلار، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب ط 2006 .

محمد وقيدي:

❖ الإبستمولوجيا التكوينية عند جان بياجي، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2007.

محمود اليعقوبي:

❖ معجم الفلسفة، دار الكتاب الحديث، مصر، ط 2008.

محمود فهمي حجازي:

❖ مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة مصر، د .ط .

مصطفى غالب:

❖ براتراند راسل، ضمن سلسلة في سبيل موسوعة فلسفية، مكتبة ودار الهلال بيروت لبنان، ط1983/5 .

المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية، القاهرة مصر الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط 1983.

نايف الخرما:

❖ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط 1978 .

نبيل علي:

❖ العقل العربي ومجتمع المعرفة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ط 2009.

وداد الحاج حسن:

❖ رودولف كارناب. نهاية الوضعية المنطقية، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان والدار البيضاء المغرب ط2001/1.

يسرى وجيه السعيد:

❖ إبستمولوجية إمري لاكاتوس ،المنهجية في برامج البحث. ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ودار الروافد الثقافية بيروت لبنان، ط2012/1 .

-ب-

﴿المترجمة﴾

أفلاطون:

❖ الجمهورية،ترجمة نظلة الحكيم ومحمد مظهر سعيد،دار المعارف مصر ،ط2 د ت.

أحد قراملكي:

❖ مناهج البحث في الدراسات الدينية، ترجمة سرمد الطائي، معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية، لا ت، لا ط.

آلان شالمرز:

❖ نظريات العلم، ترجمة الحسين سبحان وفؤاد الصفا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1991/1.

إمانويل كانط:

❖ أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة نازلي إسماعيل حسين ومحمد فتحي الشنيطي، تقديم، عمر المهيبل، موفم للنشر، الجزائر، 1991 .

❖ مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما، ترجمة، نازلي إسماعيل حسين ومحمد فتحي الشنيطي، موفم للنشر، الجزائر، 1991.

إمري لاكتوس:

❖ برامج الأبحاث العلمية، ترجمة عبد القادر ماهر محمد علي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط01، 1997.

آن إينو:

❖ تاريخ السيميائية، ترجمة رشيد بن مالك، منشورات مختبر الترجمة والمصطلح جامعة الجزائر ودار الأفاق الجزائر، ط 2004 .

❖ مراهنات دراسة الدلالات اللغوية، ترجمة، أوديت بيتيت وأحمد خليل، دار السؤال دمشق، سوريا، ط1980/1.

بارتيشت بريجيته:

❖ مناهج علم اللغة من هارمان باول إلى نعوم تشومسكي، ترجمة حسن بحيري، مؤسسة المختار، مصر، ط 2/ 2010.

توماس كون:

❖ بنية الثورات العلمية، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان ط2007/1.

جان كلود كوكي:

❖ السيميائية،مدرسة باريس،ترجمة رشيد بن مالك،دار الغرب للنشر والتوزيع وهران الجزائر،ط 2003 .

جورج كانغيلام:

❖ دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ترجمة محمد بن ساسي، المنظمة العربية للترجمة، ومركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط 2007/1.

جورج مونان:

❖ تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، ترجمة بدر الدين القاسم، منشورات جامعة دمشق، ط 1972 .

جوزيف كورتيس:

❖ مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، ترجمة جمال حضري، منشورات الاختلاف الجزائر والدار العربية للعلوم،بيروت ط2007/1 .

جول تريكو:

❖ المنطق الصوري، ترجمة محمد اليعقوبي،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1992.

جون سارفوني:

❖الملفوظية، ترجمة مقداد القاسم، منشورات اتحاد كتاب العرب دمشق سوريا، ط 1998

.

جون غريبن:

❖تاريخ العلم(1543- 2001) ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط 2012.

دونالد جيليز:

❖فلسفة العلم في القرن العشرين، ترجمة حسين علي، دار التنوير، لبنان ط2009/1.

روبير بلانشي:

❖الإبستمولوجيا، ترجمة محمود اليعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ط2004 .

❖المدخل إلى المنطق المعاصر، ترجمة محمود اليعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،ط2009/2.

❖المصادريات (الأكسيوماتيك) ترجمة، محمود اليعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط 2004.

روبير مارتان:

❖مدخل لفهم اللسانيات، ترجمة عبد القادر المهيري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2007/1.

رودلف كارناب:

❖الأسس الفلسفية للفيزياء، ترجمة السيد نفادي، دار التنوير، لبنان، ط1/ 1993.

❖البناء المنطقي للعالم والمسائل الزائفة في الفلسفة، ترجمة يوسف تيبس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2011/1.

كارل بوبر:

❖ منطق البحث العلمي، ترجمة محمد البغدادي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1/ 2006.

❖ الاستقراء، الاستنباط، الحقيقة الموضوعية، ترجمة لخضر مذبوح ضمن كتاب، فلسفة كارل بوبر، دار الألمعية قسنطينة، الجزائر، ط2011/1.

كترين فوك وبيار لو قوفيك:

❖ مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، ترجمة المنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1984 .

كلاوس هيشن:

❖ القضايا الأساسية في علم اللغة، ترجمة حسن بحيري مؤسسة المختار مصر، ط1/ 2003 .

ماريو بانج:

❖ المنهج العلمي وتوظيفاته، ترجمة، عبد الكريم بزاز، مجلة دراسات عربية، بيروت،لبنان، ع10 السنة 24،آب،أغسطس 1988.

ميلكا إيفتش:

❖ اتجاهات البحث اللساني، ترجمة ،سعد مصلوح ووفاء فايد المجلس الأعلى للثقافة، دمشق، ط 2000.

نعوم تشومسكي:

❖ ثلاثة عوامل في تصميم اللغة، ضمن كتاب اللغة وتصميمها، ترجمة محمد غاليم ومحمد الرحالي وعبد المجيد جحفة، دار توبقال، المغرب، ط2007/1.

ول ديورانت:

❖قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط 5 .1985/

-ج-

﴿الأجنبية﴾

A. Ahmed, *Epistémologie de la linguistique Arabe, Ed okad , Maroc. 1998.*

A .j.Griemas*, Sémantique structurale,2eme ed puf ,paris,1995*

A.J. Griemas *, un problème de Sémiotique narrative , les objets de Valeur, in langages 8eme année N° 31, 1973 .*

A.J. Griemas*, les relations entre la linguistique Structurale et la poétique, in unesco/55/41/3 paris 1^{ere} Avril 1966 .*

Alain Herreman*, analyser l'analyse, dicrire la discription une Introduction au résumé d'une théorie du langage . de L . Hjelmsles .*

Centre national *des ressources textuelle et lexicales Epistémologie .*

Claud, Milner, *Introduction à une science du langage, Ed du Seuil, paris. 1995 .*

David Piotrowski*, légitimation faible et formes internes de la langue .*

Dictionnaire Hachett *, paris , 2010 .*

Didier Julia*, Dictionnaire de la philosophie, classiques abrégés, imprimé, en France, 2007.*

Drisse Ablali*,* ***et autres****, Vocabulaire des études Sémiotiques et Semiologique, Ed, puf, paris, 2002 .*

E. Benveniste , *Problèmes de linguistique générale, Ed, Gallimard Paris, 1966 .*

E.B. Maarouf*, Introduction à l'épistémologie des sciences, ed el joussour, Maroc,2010.*

F,de,saussure, *Cours de linguistique générale, ed talantikite bejaia, algerie 2002.*

France Farrago*, le langage, Ed Aramand Colin, Paris 1999.*

G. Mounin *, Dictionnaire de la linguistique . 4 ^{eme} Ed, puf paris, 2004.*

H. ch. Sorensen. *Fondements épistémologiques de la glossématique, in langages, 2 eme année N° 06, 1967 .*

H. Prebensen *, la théorie glossématique est elle une théorie ? in , langages 2 eme année N° 06, 1967 .*

J, Moeschler , et , A , Auchlin*, Introduction, a la linguistique Contemporaine, 2eme Ed,Armand Colin .*

J. Damarc *. la glossématique et l'esthétique , in langue Française , N° 03 , 1969 .*

J. Dubois et autres*, Dictionnaire de linguistique et des Science du langage, Ed, larousse paris .*

J. Kristeva*, les épistémologies de la linguistique , in langages 6 eme année . N°24 , 1971 .*

J.C. Coquet*, Réalité et principe d'immanence, in langages 25eme année, N°.103.1991 .*

J.E. Boitanski*, la révolution shomskyenne et le langage . Ed. l'Harmattan, paris 2002 .*

L. Hjelmslev *. Prolegomenes à une théorie du langage . traduit du danois par , Una Canger , Ed de Minuit Paris 1971.*

L. Hjelmslev *, le langage , Traduit du danois par Michel Olsen préface . A,j . Greimas , Ed de Minuit paris , 1966.*

L. Hjelmslev *, Résumé d'une théorie du langage in(http :résumé.univ-rennes1.fr)*

L. Hjelmslev *: Essais linguistiques, Ed de Minuit Paris 1971 .*

L. Wittgenstein *Tractatus logicophilosophicus tradurtion de l'allemand par,Pierre klossowski , Ed . Gallimard, paris 1961.*

Massimo Palmarini *, théories du langage , théories de l'apprentissage , Ed du seuil , paris 1979 .*

Maurice Leroy *, les grands courants de la linguistique moderne , 2 eme Ed , l'université de Bruxelles , Belgique, 1980 .*

Mortéza Mahmoudian*,Adéquation externe des théories linguistique, In Ecole pratique des hautes etudes 4 eme Section , Annaire , 1977 – 1978 .*

N, sillamy*,Dictionnaire Encyclopédique de psychologie Ed Bordas paris 1980.*

O,Ducrot et j.M. Schoeffer *, Nouveau dictionnaire encyclopédique des Sciences du langage , Ed du Seuil paris 1995 .*

O. Ducrot *. logique et linguistique , in langages 1 ere année N° 1966 .*

Paveau et . Sarfati *, les grandes théories de la linguistique Armond Colin . Paris , 2003 .*
R,Barthes *,Eléments de Sémiologie , in Communications 4 paris 1964 .*
R,Botha*,le statut méthodologique de la preuve linguistique externes en grammaire générative , In langages N°24 , 6eme année 1971 .*
R,Martin,*comprende la linguistique,2eme ed,puf paris,2004.*
R.Botha*, on the Galilean style of linguistics inquiry stellenbosth, papers in linguistics, N° 7 . 1981 .*
R.M. Robins *, Bréve histoire de la linguistique , traduit de l'anglais par Mauris Borel , Ed Seuil paris 1976 .*
Revue langages *, la glossématique , in langages 2eme année N°06 , 1967 .*
S. Auroux et autres *, la philosophie du langage Ed puf, paris . 2004 .*

-د-

﴿المواقع الإليكترونية﴾

http://résumé , unive – rennes 1.fr
www .santquantique,tresors .html
www.cnrtl.fr/défintion
www.delmas-rigoutsas.nom.Fr.
www.glossematics.org/Forum/pdf/ Zilberberg –Connaissance . pdf
www.monografais.com
www.revue texto.net

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

إهداء.....

كلمة شكر.....

مقدمة..... أ

مدخل

المنعرج اللساني 17-01

1-الأزمة وحدوث المنعرج في العلوم: 03

2-أزمة اللّسانيات وحدوث المنعرج: 06

الفصل الأول

الإبستمولوجيا،الأسس والمبادئ 67-18

- 1-التحديد اللغوي والاصطلاحي: 21
- 2- موقع الإبستمولوجيا من الحقول العلمية: 23

2 -1- علاقة الإبستمولوجيا بنظرية المعرفة: 24

2-2- علاقة الإبستمولوجيا بفلسفة العلوم: 28

2-3- علاقة الإبستمولوجيا بعلم المناهج والمنطق: 34

2-4- علاقة الإبستمولوجيا بتاريخ العلوم: 39

2-5- علاقة الإبستمولوجيا بعلمي الاجتماع والنفس:..... 43

- 3- الإبستمولوجيا اللسانية عموما: 48
- 4- مجال الممارسة الإبستمولوجية اللسانية: 52

4- 1- الاختبار الداخلي: 52

4- 1- 1 مقدمة الانطلاق: 53
4- 1- 2 موضوع النظرية اللسانية: 55
4- 1- 3 المنهج المتبع: 57

الفصل الثاني

118-70
المقاربة الإبستمولوجية للغلوسيماتيك

● 1- إبستمولوجية هلمسلف اللسانية: 70
1-1- المحور الأول: 71
1-1 -1- الصورنة أو الصياغة التجريدية للقضايا اللسانية: 74
1 – 2- المحور الثاني: 78
1 – 2- 1 اللسان شكل وليس مادة: 78
● 2- المنهج المتبع عند هلمسلف: 82
2-1- الاستقراء: 83
2- 2- الاستنباط: 86
● 3 – برنامج البحث العلمي عند هلمسلف: 89
3 – 1- النظرية: 93
3- 1 - 1 المقدمات المنطقية حساب الإمكانات: 98
3- 1- 2 التنبؤ العلمي(الوظيفة التوقعية للغلوسيماتيك): 99
3- 1 -3 الكفاية الوصفية والمبدأ التجريبي: 101
3- 2- النواة الصلبة للغلوسيماتيك: 103
3- 2- 1 النسقية والعلاقات الداخلية: 103
3- 2-2 المحايثة: 108
3 –3- فرضية العمل الأساسية في الغلوسيماتيك: 110
3 – 4- الكفاية الأنطولوجية للغلوسيماتيك: 114

الفصل الثالث

195-120

تلقي الفكر اللساني العربي للنظرية الغلوسيماتيكية

- 1- السيميائية السردية امتداد للغلوسيماتيك: 120
- 2- تلقي الغلوسيماتيك في الفكر اللساني العربي: 124

2- 1- تعيين الأصناف إجمالا: 125

2- 2- تفصيل الأصناف: 126

ـــــــ القسم الأول من الصنف الأول: 126

1-بحوث ودراسات في علوم اللسان: 127

2-المدارس اللسانية: 128

3- في اللسانيات ونحو النص: 136

4- المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة: 142

ـــــــ القسم الثاني من الصنف الأول: 150

5- اللسانيات النشأة والتطور: 150

6- علم الأسلوب والنظرية البنائية: 161

ـــــــ الصنف الثاني: 170

7- المنوال النحوي العربي: 170

ـــــــ الصنف الثالث: 188

8- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: 189

9- مدخل إلى علم اللغة: 190

10- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث فيه: 191

11- فصول في علم اللغة العام: 193

- 3- موقف اللسانيين العرب من الغلوسيماتيك: 194

الخاتمة: 197

المصطلحات العلمية: 199

قائمة المصادر والمراجع: 205

فهرس الموضوعات: 219